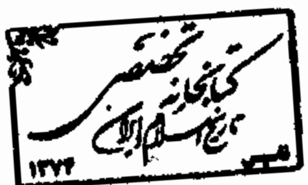
نصيف فلك

عين الدود



منشورات الجمل

رواية



نصيف فلك: عين الدود

نصيف فلك

عين الدود



رواية

منشورات الجمل



نصيف فلك: عين الدود، رواية

الطبعة الأولى ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

الفصل الأول

اسكندر



(١)

قبل صيحة (الله أكبر) وتدحرج الرأس الأول على الأرض نشف دمي وتبخر حيث لم تبق لي قطرة واحدة أتباهى بها أمام نفسي بأني لست ميتاً من الخوف ولا انخرط لباسي تحت قدمي مع معدتي ومصاريني وعمودي الفقري. دخلت في حالة تشبه الإغماء (انسحنت روحي) لا أنا غائب ولا أنا موجود فقد بلعني نفق الفراغ الموحش، أشعر بأني بعيد وناء ومحصن عما يدور حولي كأن أمي خرجت من جسدي تلقفت يدي اليمنى أنا الطفل المذعور وهربت بي بعيداً خارج بغداد وخارج الدنيا كي لا أرى ما يجري لغيري وما سيحصل لي، خافت علي أمي من لعب الكبار المتوحش كما أرعبها سماع معزوفة صخب عظامي؛ أسناني تعزف موسيقى أكلة لحوم البشر وعظام صدري وظهري تصدح بلحن السيوف فنحن أمة مولعة بالذبح، حالما نفتح كتب التاريخ تتناثر على وجوهنا رشقات دم حتى ان العلم الوطني للسعودية سيف. عظام يدي ورجلي تعزف نشيد القبور. هربت بي أمي إلى حقل (الجت) الناصع الخضرة في جو شتائي مشمس حيث ندف الغيوم البيض تتسابق معنا صوب أحلام الماء حتى زلت قدمي وسقطت على بطني فسمعت الصيحة الثالثة (الله أكبر) وارتطم الرأس الثالث بالأرض ثم تدحرج وانكفا على خده الأيمن، صارت عيناه بعيني اليسرى مباشرة وكأنه ابتسم بتواطؤ من كشف سري وهو يرى الخرقة السوداء مرفوعة قليلاً عن عيني اليسرى، لا يدري طبعاً بأن أحدهم صفعني

وهو يقول (دوختنا كلب ابن الكلب) فانزاح قليلاً من العصابة السوداء المشدودة بقوة حول عيني. رأيت حينها خليط الزبالة على العشب: خراطيش رصاص كبير وصغير ملوثة بدم يابس مع قواطي مخسفة لبيبسي كولا وسفن آب وأغلفة كاسيت مسجل مكسرة مع أغلفة نساتل ونثار ورق ممزق ومعفش، هو خليط شبيه بزبالة السينمات عدا بقع الدم وخراطيش الرصاص إلا إذا طفرت من الشاشة أثناء عرض أفلام الكاوبوي وأفلام العنف. الآن عيني اليسرى بوجه الرأس المقطوع ترى طيف ابتسامة أو هكذا توهمت، لعلها ابتسامة من وجد أخيراً الشخص الذي يحتضن رأسه فلا يذهب موته عبثا كمجهولي الهوية الذين نسمع عنهم يومياً في نشرات الأخبار، أخيراً عثر الرأس على من يحفظ له وجهه ونظرته في أرشيف حي يتنفس، في أرشيف رأسي الذي يعرف انه سيقطع أيضاً فهو الرأس الرابع والأخير لهذا اليوم الاسود الموشك على الغروب. هل توجد هناك عين خاتلة تلتقط صورة لي وللرأس المحفوظ في أرشيفي، أين تلك العين وأنا لا أرى ولا أسمع بشراً غير الذباحين كما لا أرى حيواناً أو طيراً أو شجرة يمكنهم أن يحفظوا صورة رأسي الحافل بأرشيف خطير عن القتلة الدودكية بعد انتشار وباء الدود في جميع مناطق العالم، وعن لغز المجرم الكوني (داود) ثلاثي الزعانف الايدلوجية وضحيته القاتل (روضان) في معركة عراقية خالصة أمام سينما انقلاب قرب ميدان فردوسي في طهران، وعن أرشيف (ثامر) الغاص بالنفائس من كاشان النساء الفاتنات إلى متحف الجرائم في (زندان قصر) وإلى الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية وسجن رقم واحد ثم إلى سجن أبي غريب/ قسم الأحكام الخاصة وحتى لحظة الصيحة الثالثة (الله أكبر) وانغلاق عيني اليسرى لما انطبقت السماء على الأرض وحل يوم القيامة بسقوط الرأس الثالث وها أنا أدخل نفق الفراغ الموحش مثل نفق (باب الشرقي) منتصف التسعينات حيث الحصار

وتكشيرة المعدن الخسيس للبشر وقت الأزمات الكبرى، فأنا أحمل معي ورما غافيا لهذا النفق تفجر تواً: دخلت نفق باب الشرقي وقت الغروب؛ ليتني دخلت القبر قبل هذا اليوم الأكثر اللعين، لا أعرف بالضبط ما الذي أجبرني على الدخول في النفق لأنه صار مريباً ومهجوراً تعط منه رائحة خراء قديم منذ خربة نوبخذ نصر إلى خربة صدام بعد غزو الكويت مع خراء جديد لا تزال أبخرة المجد والخلود تفوح وتتلوى منه. في هذا الجو النتن وأنا مستعجل للخلاص من النفق سمعت صرخة طفل أو صبي ايقظت وحوش الغابات الكونكريتية الخاتلة في دهاليزها المعتمة. هي صرخة لها طعم اليأس هكذا سمعتها اذني فتخيلت الصبي يرى أحذية تتراكض صوب البيوت، يرى المارة العجولين كل واحد منهم غارق في مزبلته الخاصة بانتظار المعجزة لكن الصبي تخلت عنه حتى المعجزة. اقتربت من الصراخ وأنا أبحث عنه بين أكوام الكارتون ومخلفات يوم مات الآن فوجدته ينتحب ورأسه طامس بين ركبتيه. سألته (شبيك.. ليش تصرخ؟) رفع وجهه فصدمني رعبه الطفولي بعينيه الزائغتين المحمرتين واغرقني بحزنه ودموعه، حزن يحمل جنازة الطفولة منذ أول طفل مشرد إلى آخر عنقود اليتامى. دمرني وجهه الذي يبدو كمن أضاع طفولته توا في وحل نفق (باب الشرقي). وجهه لا يمكن النظر إليه مرتين من شدة هول الفقدان والشده والتيه. اكتشفت انه مطرود من البيت وهو يقضي ليلته الاولى في التشرد هنا في النفق، لا ماما ولا دادا، حضن الاسمنت فقط.

ماذا أفعل وأنا بلا مكان خاص بي أعيش مع أهلي مثل الضيف ودائما على خلاف معهم؟ ماذا أفعل هل اتركه لجلاوزة باب الشرقي الذين يبولون يومياً على تمثال الأمومة في حديقة الأمة؟ إلى اين آخذه معي وأنا حائر بنفسي متضايق من حمل نفر واحد فكيف بنفرين؟

دست على قلبي وتركت الصبي بعدما تجمع بعض المارة

والمستطرقين. تركته لرحمة المجهول ومزاج القدر. كلما ابتعد عن الصبي خطوة يكبر احتقاري لنفسي وحين خرجت من النفق كنت حقيراً خالصاً كامل الدسم.

والآن أنا أستحق الذبح على جريمة ترك الصبي وحيداً في نفق باب الشرقي، وها قد حان دوري للذبح بعد الرأس الثالث الذي ثبت عينيه علي وكشفني رأيته لكن عينيه راحت ترمش بسرعة مذهلة وكأن الرأس ادرك توا المأساة: انه مفصول عن الجسد ولم يعد له قيمة حياة بدون بقية الجسد وكذلك الجسد صار مجرد لحم ميت رخيص بدون الرأس. لم يصدق هذا الفراق المفاجئ الرجيم، لا يصدق ضراوة المنفى عن بلاد الجسد فهو منذ كان جنينا في بطن أمه ملتحماً منسجماً مع جسده لماذا يغادر إذن غصبا عليه ويترك عائلته ومدينته وبلاد جسده ويقطع منفيا وإلى الأبد، يعيش ميتاً عن نفسه، فلقد نفوه باستهتار ولا مبالاة فظيعة.

رأيت كل شيء يرتعش مثل السعفة: الحيطان، الأشجار، المياه، البشر، زرقة السماء والأرض تختض تحتي، كل شيء لا يقدر السيطرة على نفسه فلا يستطيع الكف عن الارتجاف. هذا ما شعرت به من دون رؤيته لأن سعة مجال عيني اليسرى تشاهد ما هو تحت فقط وأنا طال عنقي من فتك انتظاري للصيحة الرابعة فأنا لم أستطع رؤية السماء ولا الحيطان ولا الأشجار والمياه ولا البشر، لكني اكتشفت وعرفت سر هذا الارتعاش والارتجاف، انه أنا، أنا مصدر هذا الزلزال، انه جسدي المرتجف، أنا الزلزال.

هؤلاء الذباحون تركوني معلقا بين أمنية الموت برصاصة وبين الذعر من التعذيب وقتلي ببطء شديد، حين أموت بالدقيقة ألف ميتة وميتة. عجيب لماذا تأخر ذبحي بعدما حان دوري إثر تدحرج الرأس الثالث

ومثوله أمامي كمرآة أرى فيها ما سيحصل لي بعد قليل. الشمس غابت وجثم سكون بشع كأن الدوام انتهى في دائرة حكومية، الزمان ألغى المكان، حيث اقفرت الدائرة وخوت ولم يبق فيها أحد. لكن سرعان ما تمزق السكون بنباح كلاب وزقزقة عصافير بددت الوحشة الضارية، وأنا قد حطمني مذاق فتك الانتظارخاصة بعدما اكتشفت الآن رطوبة مخزية شعرت بها تسري بين فخذي، هل تبولت بلا إرادة ولا وعي أم هو قذف المني كما سمعت عن الضحايا الأبرياء انهم يقذفون المني حال اعدامهم. يبدو من الرائحة انه بول لكني لم اشم البول حين تدحرجت الرؤوس الثلاثة، ولكن كيف اشم وقد تجمد في كل شيء: الحواس والتفكير والوعي والادراك، ودخلت في نفق الفراغ.

تذكرت حكمة قديمة (الظلام ستر) أو الليل ستر قالها العرب فهل كانوا يخافون من الضوء والنور لأنه يفضح ويعري؟ رحت اتلمس بيدي المقيدتين للوراء عما يوجد خلفي، يبدو انه حائط طين ولأن ساقي المقيدتين خدرتا من طول الجلوس عليها كل هذه الساعات الدموية. تمايلت وزحزحت نفسي قليلاً ثم ارتميت على الحائط بلا ضجة ولم اسمع صوتا أو حركة شخص قريب. تنفست وكأني لأول مرة اكتشف اني قادرعلى التنفس حين ارتاحت رجلي ورأسي ورقبتي من الجلوس سجودا. ولكن ما هذا الهرير والنفخ في وجهي، اقشعر جلدي ويبست فروة رأسي حين مس شعر حيوان زندي ويدي، ثم تشمم رقبتي وخاصرتي ومضى. انه كلب وربما سيأتي بعده ذئب في هذا الليل المزدحم بالضواري. حملتني أمي من سقطتي ونفضت عن ثيابي قش خراطيش الرصاص الملوث بالدم وعلب البيبسي كولا وسفن آب وأغلفة النساتل والكاسيت، نفضت عني كل زبالة الكابوس وحملتني فوق كتفها وركضت بي صوب النوم.

سمعت خطوات شخص تقترب ثم وقف بجانبي، نزع الخرقة السوداء من عيني وأدخل رأسي في كيس بعدها تأكد من وثاق يدي وقدمي. رمى بحضني صمونة يابسة وقال:

ـ ما ندري على يا قبله انذبحك.. على قبلة اليهود لو الصبه لو انذبحك على قبلة موسكو أحسن؟

(٢)

انقلب الرعب إلى مرض فصرت كلما اسمع صيحة (الله أكبر) أبول على ثيابي، أشخ على نفسي بلا إرادة ولا سيطرة على تدفق البول. تذكرت طفولتي وتراكم البقع على دوشك القطن وصمت أمي العجيب عن توبيخي وزجري ربما كي لا يعيرني اخوتي (ابو الشخاخ) ثم انتقالها إلى ربعي صبيان المنطقة واصير مهزلة الحي وعلكة في حلوقهم. في طفولتي كنت احلم اني استيقظ واذهب للمرحاض وأبول لكنني اجد ثيابي منقعة والدوشك تحتي (يجغ) بالبول. أحياناً افز من الحلم فأمسك زبي واركض للمرحاض حيث انجو في الصباح من الحرج والخجل والنهوض المتأخر وأنا انتظر قيام الجميع من فراشهم لئلا يكتشفوا البقعة الذهبية. أما الآن فأنا أتدارك فيضان البول وتلطيخ بنطلوني من فوق إلى جواربي وحذائي، إذ تطفر وتفلت أول دفعة من البول مباشرة بعد صيحة (الله أكبر) فأمسك نفسي وكأني أمنع جسدي من السقوط في هوة الخزي السحيقة حين أمد يداً خفية من غير يدي المقيدتين، تندلع من تحت أبطي فتضغط باصابعها على زبي بقوة واحتقار، ثم تعودت فيما بعد على لفه بخرق قماشية وأنا أضحك في سري من وجعي النفسي واقول: علي العادة لكنها ليست شهرية. انه طمث العصر يتفجر نازفا حال سماع صيحة (الله اكبر). واخيرا فكرت ان ألبس حفاظة أطفال كبيرة أمزقها وأفصلها على مقاسي لكني لحظتها لم أعثر على بعض العزلة لأبكي وابكي، وكم أتمنى لو أبول من عيني حتى لا يتبلل بنطلوني. خزي الدموع أهون من خزي البول.

تلبستني احزان محنتي هذي وتكومت مأساة الحياة برمتها فوقي منذ آدم وحواء وهابيل وقابيل إلى حروبنا الثلاثة وفقدان حبيبتي (ولادة) ثم دخولنا في مسلخ المجاهدين وحتى لحظة الذبح الآن إذ مازلت انتظر الصيحة الأخيرة وتنتهي بي الحياة ويبطل سبب وجودي مع علة خلق الكون. تلبستني مشاعر الرثاء والاحساس بالفجيعة كأن آلاف الدمامل والفقاقيع غطت جسدي حزنا عليه أو هي دموع محبوسة مقموعة لم تجد لها طريقا للجريان فتورمت وتكورت إلى دمامل وفقاقيع انفجرت الآن كلها بوقت واحد وانساحت علي. جسدي يبكي على نفسه ورحت أتخيل كيف أموت ويجدوني طافياً في نهر دجلة. ينصبون (جادر) لمأتمي وأقرأ لافتات النعي السوداء. ثم أدخل في خيمة المأتم وأعزيهم بموتي حيث لم يتعرف علي أحد. أجلس وأقرأ سورة الفاتحة على روحي. يجيء ابو القهوة ويصب لي فنجاناً مراً ثم أشرب استكان شاي وأدخن سيجارة اسبين وأفكر: كيف هو طعم السيجارة بعد الموت؟

سمعت ضجة نزاع مفاجئة فطارت من رأسي خيالات المأتم و(الجادر) ولافتات النعي وسجائر ما بعد الموت. لم اسمع من لغط النزاع سوى جمل مبتورة مثل: الإعدام العلني.... وعبرة لمن... وحكمة الذبح...

اختفت الضجة بسرعة مثلما بدأت ولم تفارقني مشاعر العزاء والاشفاق الذاتي، خاصة وحبيبتي (ولادة) غير موجودة لنعي حبيبها فدخلت في حمى سوداء أتقلب فيها بنعي نفسي، فقد أدركت أخيرا بأنني كنت طول سنين عمري أودع نفسي. كيف لم انتبه إلى هذه اللازمة الغنائية المتعاقبة مع ايقاع انفاسي والتي تصدح في دمي بغناء سري من شريان لشريان. غناء يدفع جلدي للاعلى دملة بعد دملة وفقاعة بعد فقاعة: أودع نفسي. كلمتان بشاشة واحدة اختزلت حياتي كلها. أرى فيها نفسي طفلاً

أركض والكلاب تطاردني تنبح جنب خاصرتي. أخرج من المدرسة أفرك يدي من حقد العصي وأمسح وجهي من بصاق السل والكوليرا بعدما نجحت وتجاوزت الحصبة والجدري. ألعب وألهو ناسياً نفسي في لعبة الدعبل والغميضة والصور وكرة القدم. من أين أعرف بأنهم سوف يلعبون برأسي (طوبه) ويعصبون عيوني بخرقة يلعبون معي غميضة السيوف. وأنا ألعب لاهيا أضحك وأكركر حتى أتعب وأنام، أغط في سابع نومة لكني أفز على صوت بكائي تندهني حرارة دموعي. فلم أفطن وقتها انني كنت أودع نفسي.

دخلت شرنقة المراهقة بجسد كله منتعض (كلي مكوم من شعر رأسي لحد اصابع رجلي). ما ان أشم رائحة انثى أقذف فوراً فلا سيطرة لي على رعشة روحي. هكذا أعري الانثى واحشرها في فيلم خلاعي من بطولتي من أجل الاستمناء فأنا لم اقلع عن عادة (ضرب الجلق)حتى مع خروج شعرات بيضاء في ذقني. أحتاج إلى غابة من الأرداف والأثداء لسد جوعي، وأحتاج إلى الغوص في كهف الانثى السري، أضيع في متاهاته الوردية وفي تقلبات شكله السحرية؛ تقلبات لا تتوقف عن التشكل، إذ من المستحيل السباحة في لغزه مرتين. لكني بقيت عفيفا أطرد كابوس الجنس بأحلام الحب وقيس المتيم العاشق الاسطوري يطل من عيني وروميو يحتضر ويتقلب فوق لساني فأهتز وارتجف من لمسة غربة لم أعرفها وكأن جسدي منفى والحب وطن لا يمكن الوصول أليه. أهيم على وجهي ضائعاً يائساً من العثور على الحب، وتتحالف الطبيعة مع وجعي حين تهب العواصف الترابية فلا أعرف أين أنا في الأرض في السماء في كوكب غريب حتى تلطم وجهي (نفنوف) أنثى كانت قد طارت من أحد حبال الغسيل المنتشرة فوق السطوح، فيقشعر جلدي وأنا أشم عطر الحب ورائحة الانثى، أبكي وأبكي بلا وعي لا أعرف أنني كنت أودع نفسي.

في سن النضج وزوال حب الشباب كنت اذوب من اليأس الفاتن، أذوب لأني نزعت كل ثياب المستقبل، عريته وتجاوزت آخر تخومه حين أقلعت عن: ماذا سأكون. وتملصت من صمغ اللهاث وراء النجومية والشهرة. الشهرة المصنوعة في معامل البلاستيك المعاد، معامل الأمل الخلب ومعامل تكرير الكذب الخالص النقي الذي انتحر من أجله شباب بعمر الورد. جرفهم وهم الخلود الفردوسي وانتحروا بأكبر كذبة في زماننا كذبة ان تكون شهيداً ونجماً في قلب الكون. لذلك خرجت من محطة اليأس الفاتن إلى محطة أخيرة لليأس الأليف الذي يتغذى علي وأتغذى به، فودعت حبيبتي (ولادة) التي لم تدع لها الرصاصة وقتا وفرصة للوداع. كما أودع أصدقائي وأمي وأخوتي والأشجار والسماء والطيور والقمر وبغداد. وها أنا للمرة الأخيرة أودع نفسي.

فطنت إلى سر الحياة بعدما ضيعت حياتي فتكومت فوقي سنين عمري وهي تنوح وتتصارخ علي كأنها أطفالي يتمسكون بي خوفا من اليتم في هذا العالم الجائر، يتشبثون بثيابي الممزقة أنا المسحول بقوة إلى حتفي، ينتحبون: وين انروح وين انولي وياهو ألنا.. كلنا انموت وراك؟ ماذا نفعل بالنضوج وما نفع فطنتي إلى سر الحياة؟ ما فائدة العفوية والبساطة والتناغم مع الكون وما جدوى الحب لذات الحب؟ ما قيمة سر لا يخفي أية أسرار؟ أويلي يابه.. ما أجمل العالم وأنا أودع نفسي.

لقد حسدت نفسي حتى وقعت في بئر خوفي. سقطت في الكابوس الذي أهرب منه ذعرا وكأني استدرجت نفسي ونصبت لها فخا إلى حيث أفظع أنواع القتل في قائمة الموت اليومي في الشوارع. حسدت نفسي على بقائي حياً برغم تجوالي من الوزيرية إلى باب الشرجي، الكرادة، شارع فلسطين، الاعظمية، ثم عودتي ظافرا بجلدي منتصرا ببقائي حياً وأنا أزوغ من رشقات الرصاص والسيارات المفخخة والعبوات الناسفة وقذائف

الهاون وسيوف المجاهدين السفلة والذباحين والقناصة والخاطفين وطلقات الاغتيال مع فيكات وصرعات وموديلات جديدة للقتل لم تخطر على بال عزرائيل الذي لا يستطيع حك خشمه من زحمة الشغل فهو لم يتوقع قط انتعاش سوق الموت في البلاد بهذه السرعة والكثرة التي تجاوزت كل الارقام القياسية.

كنت كلما أحسد نفسي أقع بورطة، عندي عقل لا مثيل له في مجرة درب التبانة، عقل خرافي وساوسي هواجسي يستجلب المصائب والأمراض وموت أعزائي. وحالما أطرد هذا التفكير والهواجس تزداد علي هجمتها الحاحا وشراسة، ويشترك خيالي على الخط في تصوير الكارثة المفكر بها والالم وتفاصيل فاجعتي المهجوس بها، فمرة وأنا جالس في أحدى السيارات الذاهبة إلى باب الشرقي نشق من منخريه شخص بعمري يجلس أمامي ومسح انفه بأطراف أصابعه. طبعاً، يومياً أرى هذه الحركة واسمع صوت النشقة آلاف المرات لكن عقلي الخرافي الهواجسي صار ضدي راح يعيد ويكرر هذه النشقة، يذهب بها بعيداً ويرجع حاملا معه افتك العلل والأمراض. ظل عقلي سجين النشقة لم يستطع مغادرتها قط فحالما وصلنا ونزلت من السيارة أخذتني موجة عطاس متواصل بلا استراحة أو فاصلة حتى تشكلت عندي جيوب أنفية ومرض الحساسية إلى هذه اللحظة. كل هذا بسبب واحد نشق ومسح خشمه.

هذا العقل التوجسي جعلني أبدو قديم الطراز ينضح من مساماتي دبق الوطن. أبدو من أجيال منقرضة انفقت سنين عمرها مهووسة بحب الوطن، فأنا اليوم إذا رأيت السماء زرقاء نظيفة من الدخان يكون عندي عيد، فأنا كلما أرى عمود دخان احس ان الدخان يتصاعد من جسدي بحرائق ليس لها أول ولا يبدو لها آخر. كل هذا الدخان والحرائق وأحسد نفسي. حالما أستيقظ صباحا أصعد فوق السطح اتطلع إلى الآفاق وأحصي

مغموماً أعمدة الدخان في سماء بغداد. ربما أكون آخر الاولين المندثرين الذين يصفونهم اليوم بالحمقى والأغبياء لأنهم يحبون بلادهم. وأنا سمعت الكثيرين يبسبسون خلفي وأحيانا يجاهرون أمامي بوقاحة سافرة: اووه هذا اشكد قديم. هذا حيل ماخذه جديات. لك يا وطن يا (طيز لكن).

أسمع الكثير من تلك الجمل وأرى الغمزات والإشارات التي تعني: انني طرن من الطراز الرفيع، لأنني حتى هذه اللحظة أحب بلادي.

هل أنا وحدي أتفرد بمثل هذا العقل المتوجس بالمصائب والذي يتفرد أيضاً بأنه لا يكف عن الأمل حتى وهو في كرش الموت. هل أيقن صاحب الرأس الأول بأنه سيموت حتما وان المجاهدين ناوون فعلاً على ذبحه. الموت لصاحب الرأس الأول آخر شيء يصدقه ولم يقطع الامل ولو بآخر لحظة... ومع ذلك قطعوا رأسه وسمعت ارتطامه وثقله على الأرض. ارتطام مكتوم سجلته في أرشيف ذاكرتي السمعية وعاش الرأس داخل رأسي، لكني قلق أسأل نفسي: هل سيبقى الأمل مع رأسي؟

إغلاق عيني بالخرقة السوداء ثم بالكيس جعل بقية حواسي تتفتح بشراهة لامتصاص الحياة إذ أخذت أذناي وظيفة عيني وأكثر، لأنني حين سمعت الارتطام المكتوم فرزته أذناي وهي ترى ذلك الرأس الغالي والنفيس قد سقط من مكانه مع صوت انشقاق اللحم وبتر العظم وانسلاخ آهة مروعة صاعقة بذات الوقت من رشقات جنون الدم، الذي تسلل طعمه إلى لساني ولا أدري كيف أزيل وأنظف لعابي من مذاق الدم؟

إن سماع ذبح شخص بقربي تشبه قلع أظفر الإصبع الكبير لقدمي ولكن ليس من الخارج بل قلعه من الداخل، إذ يتم سحب الأظفر من جذره من منبته إلى داخل قدمي وإلى الساق مروراً بربلتي والركبة. الاظفر مسحوبا بقوة وهو يمزق كل شيء بطريقه وصولاً للفخذ متوغلاً في

الخصيتين ثم الحالب فالمصارين والمعدة ويمر عبر الرأتين والقلب ثم المرئ والبلعوم يشقهما معا. وأخيراً يتم سحب الاظفر من طبلة أذني اليسرى.

هكذا رأت أذناي ذبح الرأس الأول لذلك لا يسجل بكونه ضحية مجهول الهوية بالنسبة لي على الأقل. لكن المسكين ذا الحظ النكد هو الرأس الثاني فقد تلعثمت حواسي وأضاعت موته فلم يدخل في أرشيف ذاكرتي بعدما انشغلت بنفسي ومخلفات عذابي اثر قلع الاظفر من الداخل. لم اسجل للرأس الثاني أي صوت ارتطام ولا تدحرج ولا انبثاق نافورات الدم ولم يترك فوق لساني مذاقه الخاص. ضاع المسكين بدون أن يخلف أثراً في أرشيفي، فهو ليس مجهول الهوية فحسب إنما في قائمة العدم بلا حمل تسعة أشهر وبلا ولادة ثم رضيع، بلا طفولة ومراهقة وبلا شباب ولا اسم ولا موت، لقد صادر السيف وجوده، محا اسمه من شجرة الخلق، يشاهده أهله طافيا بنهر دجلة مقطوع الرأس من دون التعرف على أبنهم، وسيدفن في كربلاء مع آلاف الجثث مجهولة الهوية في مقبرة خاصة للغرباء بعد موتهم.

وها أنا أنتظر صيحة (الله أكبر) الرابعة بعدها لا أدري ولا يهمني ان كنت قد تبولت على نفسي أم لا.

(٣)

ـ أحسن شي انذبحك بالتقسيط المريح. . يا ويل تريد تموت بدقيقة وحدة وينتهي عذابك بسرعة. . نجوم الظهر اقرب لك من هاي الأمنية.

اجابه آخر: لك هذا لا حس ولا نفس. . لا يتوسل ولا يصرخ. . يمكن هذا مات قبل الذبح.

هكذا يلعبون على رأسي كلما اقتربوا مني وتنفتح شهيتهم للسخرية والاستهزاء وإطلاق النكات البايخة عشوائياً ولم أسمع كلمة (خطيه) ولا كلمة (يجوز يطلع بريء) بل كان أحدهم يدير رأسي على اتجاهات مختلفة وهو يصيح: وين قبلة موسكو، لا لا خلي انذبحو على قبلة بوش.

في حين يمرر ذباح آخر شفرة سيفه على عنقي فيحدث زلزال غريزي وهزات جسدية متعاقبة تخضني مثل صعقة كهرباء من ملمس المعدن البارد لجلد رقبتي حيث انتفض عرقها ونهض من مقبرة جسدي ملايين الضحايا المقتولين، شعرت بقيامة ملايين الاموات منذ قابيل وحتى الرأس الثالث الذي جعلني شاهداً على ذبحه. كما لطمت خشمي رائحة عتيقة هبت من معدن السيف طردت جميع الروائح من أنفي بعدما تفتحت مناخيري على مصراعيها بشراهة لالتهام الحياة، شممت سلة روائح مختلطة متشابكة من جذوع نخيل واوراق صفصاف وتين وخروع ونبق ورارنج وشذى براعم انبثقت توا غير عابئة ولا خائفة من ما يجري ويدور حولها فنحن الآن في

شهر شباط. كذلك تلقفت مناخري روائح الخرفان والابقار والحمير حيث أشم الروث والبعر والصون، وليس بعيداً عن خشمي دخان نار تنور وأبخرة ارغفة خبز. هذا يعني أنا في قرية داخل بستان ليس بعيداً عن البيوت لآنني أسمع أصوات نساء وأطفال مع أصوات الحيوانات.

جفلت من كلمة (إسكافي) حين سمعتها من نفس صاحب صوت (التقسيط المريح)، هذه الكلمة جعلتني انسى رائحة معدن السيف وهو يقول: خلي ناخذه للاسكافي أحسن.

افزعتني كلمة (الاسكافي)، ارعبتني فوق الرعب المتكدس طبقات طبقات على خرائب جسدي بعد الزلازل والهزات التي تعرضت لها منذ صندوق سيارة (البرازيلي). ماذا يفعل الاسكافي هنا وماذا يرقع ويخيط وأنا حافي إذ ضاعت فردة من حذائي أثناء السحل والجر والفردة الأخرى لم اجدها بعدما صحوت من فقدان الوعي. أين التمزق وأين الشقوق وأين الفتوق لكي يأخذوني للاسكافي، أم أنه مصطلح رمزي مثل مصطلحات دوائر الأمن العامة والمخابرات لأنواع واصناف التعذيب.

طفرت بي كلمة الاسكافي الملعونة إلى عربة الشلغم وذلك الشاب المعوق وهو يقول (أخذوني للاسكافي). ابتسمت متوهما انه يمزح أو يسخر من نفسه بتشبيهها بالحذاء. نظر ألي وقال (لا تضحك اني ما اشاقى احجي جد) قبل سنة في مدينة (البياع) خطفوني المجاهدين واخذوني للاسكافي.

تذكرت هذا الشاب المعوق كيف كان يحكي وهو جالس على كرسي طويل خلف العربة، يحكي ويقطع حبة الشلغم بسكين صغيرة: رفعوا من رأسي الكيس الاملح ورأيت الاسكافي، شكله أفظع كابوس، شكله شكل نغل أممي من كل بلد نطفة حتى من الاقوام المنقرضة، أقوام أكلة لحوم

البشر. وجهه مرقع من أفغاني على سعودي على شيشاني على جزائري على عراقي. وكل هذه الرقع داخل إطار شكل منغولي شعره بلون القش، يبدو عليه الشغف والانهماك بعمله. طبعاً أنا لم أحزر أي مسوغ لهذا العبث الجنوني حين رأيته يقيس رجلي اليسرى بشريط قياس ملون بالامتار والياردات ويضع علامة (X) بقلم ماجك احمر على نقاط محددة من أعلى فخذي إلى أسفل قدمي، وكان يقيس سمك المناطق التي وضع عليها العلامات. السافل كان يزن ثقل المسمار بيده اليسرى بعدما يحدد طوله. ثم نهض وراح يغير طريقة ربطي حيث شد يدي للاعلى بواسطة كلاليب وسيور جلدية، كما قيد رجلي بقالب خشبي سميك. وبدأ العمل الخارق المجنون. بدأ يدق المسمار الذي اختاره مباشرة فوق علامة الـ (X) الاولى على فخذي الايسر، راح يحرك شفتيه يبسبس: يحمد ويحوقل ويشكر ويستغفر. يهيم مع صراخي مأخوذا غائبا كأنه يسمع صوتا ملائكيا أتيا من السماء السابعة؛ صوتا يباركه ويبارك عمله المقدس، يثني على جهاده العظيم في دحر جيوش الكفر والضلال. صراخي يفت قلوب جلمود الصخر وهو يدق المسمار بنشوة المؤمن الورع التقي وبمهارة اسكافي السموات والأرض حتى أغمي علي، وأعتقد انه كان يستمتع أيضاً بصمت الإغماء ربما كان ينصت مترنما بأنفاسي المذعورة وبهذياناتي. هل يتوهم انه يسبح لله ويتعبد في تعذيبي، فهل يتوهم الاسكافي انه حين يدق المسمار في فخذي إنما يدق أبواب الجنة.

حالما أصحو من الإغماء أو يرش علي الماء البارد وأعود إليه مفقوء القلب معطوب الدماغ مثقوب الروح، فهو لا يطيق فراقي ولا يحتمل غيابي طويلاً خلال فترة الإغماءة، كأنه عاشق من طينة جديدة لا يعرفها الجنس البشري حتى الآن. حالما أصحو يبدأ بقلع وانتزاع المسمار من فخذي وايقاف النزيف وتدفق الدم لكي يلعب من جديد لعبة الاسكافي

المتصوف النشوان والسعيد بعمله فيدخل في لعبة القياس ووزن المسمار وحجمه مع قياس سمك المنطقة المستهدفة ووضع العلامات ويبدأ مشوار الدق حتى آخر مسمار بنفس روح التقوى ولذة العبادة حيث الاستمتاع بنشوة النصر الرباني على العدو الكافر الزنديق.

وكما تراني الآن إذ ان معجزة إلهية دمرت تقوى عبادة الاسكافي وابقتني حياً لكنني لا أطيق رؤية محلات الاسكافيين في الشوارع. لولا المعجزة وجدتي العجوز لكنت ميتاً وشابع موت. جدتي تفرغت لي وحدي تداويني وتخترع أدوية جديدة من خلط الاعشاب ومساحيق الخرز والاحجار الكريمة.

كما ترى لقد احتملت اختراق المسامير بين الصراخ والاغماء لكنني لم احتمل إلى الآن وحتى اليوم سبب هذا التعذيب: لماذا اختاروني أنا بالذات وأي جرم اقترفت، كيف طاوعتهم أنفسهم على ترويعي بهذا الشكل بعذاب لا مثيل له وبلا شفقة ولا رحمة ولم يرف لهم جفن مع كل مسمار يدق في لحمي وعظمي، هل كانوا يتقربون إلى الله بتعذيبي، هل هو نوع جديد من التقوى للدخول إلى الجنة، ألا يدخلون الجنة إلا عن طريق دق المسامير في ساقي؟ مع اسئلة كثيرة ومعقدة في جسدي الصارخ ويصرخ إلى هذه اللحظة: ليش ليش ليش؟؟؟

صحيح هناك اشياء لا معقولة وعبثية وليس لها سبب واضح لكن القتل والتعذيب والذبح مستحيل أن يكون بلا سبب وليس هناك أي احتمال أبدا بوجود العبث مهما حاول القاتل طمس الهدف والغاية والسبب. أسئلة تتكدس في بلعومي واغص بها من دون الوصول إلى جواب.

هذا هو الاسكافي إذن. الذبح ارحم. آخ يمه هل نغزك قلبك من جعيري هذا. تعالي يمه تعاي شوفي حالي: رضينا بالذبح والذبح ما رضا بينا من يا زاغور لعين طلعلي الاسكافي؟؟؟

زين سويت اسكندر، عودت اهلك على الغياب بحيث لا يسأل عنى أحد ولا ماحود، لا يبحث عليك فلان ولا فلتان حتى (ولادة) أخذتها مني رصاصة وسافرت بها إلى عالم آخر. بعد شهر من غيابي وفقداني يدق انذاك جرس الخطر وتبدأ أمي بتدمير حياة الموجودين في البيت فتعلن أولاً الإضراب عن الطعام ثم الجلوس خارج البيت تنظر مجيء الغائب مع نواح ونحيب مصحوب بزخات نعي ونشيج كأن أحد ابنائها مات توا فيبدأ كل من في البيت إلى اختراع حيل التوسل لتناول الطعام ويتدخل الجيران في اقناعها للدخول في البيت و(ما يصلح البكاء على الغائب والغايب حجته وياه) ومن هذا القبيل فكانت تعاند مرة وترضخ مرة. ولكن كيف سيكون حالها إذا عرفت أن ابنها عند الذباحة وهو في طريقه إلى الاسكافي؟

سكن رأسي واحتل عقلي شبح الاسكافي حتى استنزف خيالي من خلال وصف الشاب المعوق له، ذكر انهم اختطفوه في مدينة (البياع) فهل لكل منطقة اسكافي خاص بها؟ في ديالى عثروا على جثث برؤوس كلاب وحمير، يعني أخذوهم للاسكافي بعد الذبح فخيط للجثث رؤوس حيوانات ولكنني حي لماذا يأخذوني للاسكافي لأن الميت لا يؤلمه السلخ ولو كنت ميتاً لكنت الآن في مصارين بغداد على وشك توزيعي إلى محلات القصابين، حيث يبيعوني بسعر رخيص على انه لحم غنم، وربما يشتري أخي (قيصر) ربع كيلو من كتفي أو فخذي. تأكلني أمي وتتقيأ فوراً وتدرك بيقين غاشم ان ابنها (اسكندر) قد ذبحوه فجر هذا اليوم. المسكينة أمي لا تدري كم أتمنى الذبح الآن بعدما جاس روحي شبح الاسكافي، أو ربما تدفعني بغداد من مصارينها إلى شرجها وتتغوطني، تخريني فأطفو على سطح الشط فوق نهر دجلة حيث ينتظر الناس من أهل المخطوفين وذوي المفقودين وكأنهم صاروا صيادي جثث ينتظرون ان يطفو أبناؤهم ويتخلصون من عذاب الانتظار وحلب نقودهم من قبل تجار الدم، الذين يلعبون في سيرك الحياة والموت. هذا الانتظار أفتك من القتل.

المصيبة ان المجاهدين حالما وضعوا السيف على رقبتي أدركت فوراً كم أنا حي أنبض في شغاف قلب الحياة حيث الامطار والشموس والرياح رهن اشارتي وأنا أنبض بغابات وأنهار وحقول. وهولاء المجاهدون يريدون انتزاع كل هذه الحياة مني. الآن أدركت والآن فقط كم أنا طرن غبي أحمق لم أعرف قيمة حياتي حتى بعد فقدان (ولادة)، كم كنت غافلا ناسيا أنني حي ويمكنني فعل أشياء كثيرة اختارها. آخ بويه كم كنت ارعن لاهيا ومشغولا عن حياتي. وها أنا الآن أواجه أهمالي ولامبالاتي وجه قبالة وجه وأنا أنظر في مرآة الرأس الثالث المقطوع.

أدركت أهمالي ونسياني لحياتي فور لمس حد السيف جلدي (يعني لازم انذبح حتى أعرف قيمة حياتي.. هذا كلام واحد طرن براسه كرن أطول من ناطحات السحاب) هل يعني ان بشاعة الموت تذكرنا حتما بقيمة جمال الحياة، هل يجب أن نرى صدمة النهاية لكي نعرف كيف نعيش وندافع عن حقنا في الحياة؟؟

هل انتظر أنا ذلك الصراع الرهيب مع الاسكافي؟

(٤)

(المجاهدين تاج راسك وراس كل العراقيين. المقاومة شرف العراق الوحيد وإذا تجاوزت حدود الله وهذا الخط الاحمر مرة ثانية فلن تلحق ان تقرأ اسمك المنقوش على الرصاصة. هذا الإنذار الأول والأخير والله مع المجاهدين ومع المقاومة وقد أعذر من أنذر).

من هذه الرسالة بدأ فيلمي المرعب الذي انتهى بي إلى الاسكافي. كلمة (مرعب) لم نعد نستعملها من كثرة وجودها وشدة حضورها، الرعب موجود على مدار الساعة يأكل ويشرب معنا مثل القطط والكلاب. الميت لا يتكلم عن الموت، الحي هو من يتحدث عن الموت ونحن ميتون من الرعب لا ليلنا ليل ولا نهارنا نهار، تصادم الزمان مع المكان وحدث زلزال راح يكبر ويتوسع يوما وراء يوم فلا يخرج أحد منه سلامات. بدأ فيلم الرعب عندما كانت (منى) زوجة اخي (قيصر) تكنس الغرف ومدخل البيت لاح لها ظرف رسالة أصفر. ارادت فتحه فوجدته محكم اللصق وثقيلا وعلى ظهره مكتوب (الى اسكندر) بخط قبيح لم يتجاوزمن كتبه المرحلة الابتدائية كما هو نص التهديد المكتوب في الرسالة الذي يلعلع بالأخطاء الاملائية والنحوية لكنني انبهرت بنقش اسمي فوق (البوشه) خرطوش الرصاصة. يبدو ان لديهم مؤسسة ضخمة فيها جميع الاختصاصات من الجهاز الاستخباراتي (العلس) والجهاز القتالي وأقسام الاغتيال والخطف والتهديد وأقسام الغنائم والضرائب وبيت المال إلى قسم العلاقات

والاعلام، وإلا كيف استطاعوا بهذه الدقة والسرعة نقش اسمي على الرصاصة، صحيح انها رصاصة اكلاشنكوف كبيرة لكن النقش صعب على معدن أملس، مع ان شكل المظروف ورداءة الخط واسلوب التهديد لا يوحي بأنهم مؤسسة ضخمة.

دائما الجو يتعاطف مع مصائبي ومحنتي، إذ تنسجم وتتماثل الطبيعة مع حالتي النفسية والروحية فيوم مات صديقي (أنور) مدهوسا بسيارة انقلبت الدنيا بعصف ورياح وتراب اغرق بغداد بسخام ولطام وأنا تتقاذفني عفاريت الرياح من مكان لأخر ودموعي تتطايرمع سخط وغضب الطبيعة التي حزنت مع حزني وتنفعل مع حالتي لكنها اليوم تعاند فلا تعكس ترويع رسالة التهديد على الجو وتصطخب الدنيا هائجة غاضبة بل الجو صافي رائق بلا ريح ولا عصف ولاغبار بل ولا حتى فسوة الواوي، بينما رسالة التهديد في جيبي تأكل قلبي خلية خلية وها أنا أخرج الآن وقت آذان الظهر. خرجت بـ (علاكه) زرقاء وغتره بيضاء ألف بها رأسي ونصف وجهي متخيلا وجود نسخة أخرى من الرصاصة المنقوش عليها اسمي هي الآن بطريقها إليّ حالما انعطف من شارع مركز الشرطة في (الدور) وقد تصيبني في الرأس لأن أكثر المقتولين مثقوبو الرؤوس فينعوج وجهي ويتغير شكلي وتنمحي بصمة المكان والزمان، الظاهر ان تأثير المكان في الشكل واللون يشمل الجميع فأنا أعرف أهل الحرية من شكل الوجه والسحنة، لا أدري بالضبط كيف يمكن فرز ملامح الاختلاف مع غيرهم لكنني ببساطة حالما أرى شخصا يحمل تلك السمة والعلامة أقول في نفسي (اكيد هذا من مدينة الحرية). ربما تكون المدينة فد نقشت ذاتها بوجه سكانها وجعلت روحها تجري في شرايينهم. أرى بصمة المدينة على الوجوه فتخبرني انها من أهل الحرية. بقينا ننتقل في جسد مدينة الحرية من الطفولة وحتى الآن، بدأنا من منطقة (الدباش) إلى منطقة (الثالثة) ثم

(الثانية) أمام مقهى الكادحين وموقف السيارات الصفر المصنوعة أصلا لتلاميذ المدارس والروضات لكنها صارت لعنة علينا، لعنة صفراء طويلة تسد باب الله وتفتح أبواب جهنم فمهما غصت بالركاب تظل تصرخ هل من مزيد، والناس المساكين يتدفقون في جوفها حتى تصل إلى منطقة الكاظمية بساعة ونصف الساعة في حين مشيا على الاقدام نصل بنصف ساعة.

أنا الآن سأقطع (دور النواب ضباط) بالعرض مشيا على الالغام والرصاصة تلهث ورائي إلى أن تنقذني إحدى السيارات الصفر المتوجهة إلى الكاظمية، ومن هناك أصعد سيارة توصلني إلى مبنى الجريدة، مأواي الجديد بعد الرسالة الصفراء. صادفت (ولادة) عند مدخل الجريدة فقرأت وجهي وحدست ان خطر ما داهمني. لا بد أن وجهي مفضوح يفشل في إخفاء سر لذلك قرأتني (ولادة)فورا. أعتقد ان العينين تفشل في طمس ما حدث في الرأس، تأتي الفضيحة دائماً من العيون، لأنها مهما حاولت اخفاء الهم والمحنة والسر يفلت شيء ما فتبثه شاشة العيون. وإذا استطاع شخص متمرس في السيطرة على جسده وخبير في طمس الاسرار والاحداث فسوف تقول عيناه: انه يخفي أمراً.. انه يضم سرا. لذلك شرحت لـ (لولادة) كل شيء بسرعة البرق ثم دحست الـ (علاكه) الزرقاء تحت ميزي وخرجنا إلى منطقة الوزيرية. مشينا إلى أن جلسنا فوق مصطبة كونكريتة تحت شجرة صفصاف عملاقة. كنت أفكر: لابد من وجود (علاس) وراء رسالة التهديد هذي وإلا كيف عرفوا بأني أنا اسكندر ساكن في مدينة الحرية/ دور النواب ضباط.. كيف عرفوا بي أنا من يكتب مقالات عن المجاهدين طلعتهم فيها من طيز الكلب وكتبت عن المقاومة أم سبع كساسه. هذا يعني ان عندهم اشخاص يقرؤون الجرايد ويتابعون الفضائيات، هم من وضع علامات استفهام وخطا احمر على أسمي ولكن

كيف عرفوا اني من أهل الحرية ومن دلهم على بيتنا.. ميه بالميه وجود علاس يعرفني حق المعرفة وهنا من اهل المنطقة ولكن من هو؟؟؟

سطرت أمامي عشرات الاسماءالمريبة: من فشل في كبح واخفاء حقده علي، من يفترسني ويود علسي بين أسنانه فتصطدم نظراتي بنظراته وتجدح شرار فور التقاء العيون، ومن يراني ميتاً عتيقا مدفونا منذ حرب غزو الكويت فكيف أفلت من بين أسنان رجال الأمن والمخابرات والرفاق البعثيين فيعتبر ان جرائمهم ناقصة بدون قتلي لذلك لا بد أن تعود مياه الموت إلى مجاريها واكون تحت التراب. وهناك من يراني أثناء الجدل والنقاشات أنني أحمق غبي قديم فيقولون (لك هذا مصدك) و(هذا ما خذه جديات) لكن مثل هؤلاء الذين يمارسون العهر داخل أروقة الدماغ وخلف جدران القلب لا يدفعهم الكره لحد القتل.

عشرات الاسماء سطرت امامي لكنني بدون اثبات ودليل كيف اتهم الناس ويستحيل ان ألصق التهمة بأي واحد مهما كان سافلاً منحطاً وإلا كنت مثل المجاهدين في فتاوى القتل: لا جناح عليك.. اقتله الآن وإذا تبين انه بريء فسوف يذهب إلى الجنة. أو فتوى الشيخ القرضاوي الذي يقول: ان البشر أحقر وأهون من ان نحبهم أو نكرههم من أجل صفاتهم الدنيوية، بل يجب أن تتحدد مشاعرنا ناحيتهم وفقا لالتزامهم بشرع الله.

تعرفت على (ولادة) في الجامعة المستنصرية قبل سنتين في حفل تأبيني أقامته دائرة الهجرة والمهجرين على أرواح الادباء والكتاب والفنانين الذين ماتوا في المنافي. وأنا كنت قد نشرت تحقيقاً عن مصير الهاربين من نظام البعث وصدام فقد امتلأ العالم بقبور عراقية حيث لم يبق محيط ولا بحر ولا خليج ونهر بدون مدافن مائية للعراقيين، ولم يبق جبل ولا واد ولا سهل ولا صحراء بدون قبر لجثة عراقية واكبرها حادثة العبارة التي

غرقت في المياه الاقليمية لاستراليا على متنها عشرات من العراقيين. قرأت مقاطع من التحقيق في هذا الحفل التأبيني. استوقفني شاب وأنا خارج من القاعة، شاب خجول متهدج الصوت كمن ظل يبكي الدهر كله منذ أول زخة دم على الأرض وحتى هذه اللحظة الدموية. كانت برفقته فتاة حسناء تخبل (تشك شك) جمالها متفرد لا يشبه جمال النساء التقليدي، فيها نمط حلاوة خاص يختلط مع وجع خفي يتفاوح من نافذة عينيها فكلما ترمش تطرد الحزن لكنه سرعان ما يلتمع حين تفتح جفنيها. إلتصقت عيناي بوجهها لا تفارقه كأن صمغا لا مرئياً سمرهما إلى الوجه الاليف المألوف. وجهها يبث طاقة سحر لا يقاوم. الشاب المسكين يحكي معي ويشرح ويقص وأنا مثل الاطرش بالزفه، أومأ برأسي علامة الفهم واستيعاب لكل ما يتفوه به لكنني لم اسمع ولا كلمة ولم أفهم أي شيء لأن أذني وعيني وخشمي بل وعقلي قد استولت عليها صاحبة الوجه الاليف. ورغم اني حاولت بكل طاقتي عدم لفت انتباهه لورطتي مع وجه الفتاة وخشيت من احراجه باهمالي له وعدم الاصغاء أليه، فإنه اختفى حال خروجنا من الجامعة بعدما سلمني رزمة رسائل لم أعرف وقتها ماذا أفعل بها. فيما بعد شرحت لي (ولادة) ان (جمال)وهو اسم الشاب الخجول صاحب رنة الصوت المفجوع هو زوج أختها، رجع من السويد فور سقوط صدام وهو الآن بطال عطال قرر إذا لم يجد عملا خلال هذا الشهر فسوف يرجع للسويد. تقول: اعطاك رسائل خاله (روضان) المحكوم عليه بالإعدام في طهران بسبب قتله مجرم دولي اسمه (داود). حدثت معركة القتل أمام سينما (انقلاب) قرب ميدان فردوسي في طهران. كما قالت: يطلب منك استنساخ هذه الرسائل لعلك تستفيد منها في كتابة تحقيق خطير عن مصير العراقيين الهاربين من البعث وصدام.

ما ان عرفت معدن (ولادة) حتى صارت أمانة في عنقي، أنا حاميها

ولست حراميها وبمثابة ولي أمرها رغم اني لا أصلح لدور ولي أمر ولا أجيد الحماية وأنا لم احم نفسي. وجدت لها عمل (منضده) على الكومبيوترفي الجريدة. لأول مرة أكتشف ان الكلام المكتوب يمكن رؤيته وتلمسه حين صادفت أمها وأخوتها، رحت أنظر إليهم من بعيد مع أختهم الكبيرة (ولادة) يتلفتون مذعورين بوجوه هلعة قاست من تجارب مريرة مع الخوف، يتلفتون كمن تطاردهم قوى همجية غير مرئية من مدينة إلى مدينة تطاردهم حتى من الداخل من تحت جلودهم من شريان إلى آخر. لقد هجروهم من بيتهم في الدورة وهم الآن عند عمهم في بغداد الجديدة. أبو (ولادة) مات بأنفجارالسيارة المفخخة في مسطر باب الشرجي لم يعثروا على أي شيء منه سوى يده اليمنى مع ردن السترة الزرقاء وقد سرقوا من كفه خاتمين اعتقدها لصوص الجثث محبسين ثمينين يدران ثروة وبقي الأثر الابيض اسفل الخنصر والبنصر، أثر ابيض ميت مثل شتيمة معلقة كل من يراها يحسبها عليه ولا أحد سواه وهو المقصود.

بقيت اكتب وانشر بعناد وتهور طوال فترة مبيتي في مبنى الجريدة، شهرين ونصف كرستها لفضح وجوه الملثمين القتلة بحيث كلما أرى نجاسة كلب اتذكر المجاهدين، جعلت الكلاب جميعاً تخري مجاهدين وتبول على المقاومة أم سبع اكساسه. وكتبت نبوءة أمل: هناك في الطريق تتشكل مقاومة للمقاومة.

تسللت خلال هذه الفترة ثلاث مرات إلى البيت كي تطمئن أمي علي واخمد اسباب وذرائع النحيب والهلع. بقيت اكتب وانشر لأني جزعت من طول عمر الخوف، مللت من الادمان على مخدراته لـ (٣٥) سنة. بذرة الخوف صارت غابات في أغصانها مجسات تتحسس وتقيس درجة خطورة الواقع كأن للخوف كف عملاقة تجس نبض الواقع وترصد حجم الكوارث التي تدب تحت جلد الايام الآتية.

متنا من الخوف (يوميه جاك الذيب جاك الواوي) حتى صارت أوهامي وخيالاتي تخترع ما هو أبشع من الخوف، فقلت لنفسي: بس.. كفى لك اسكندر إذا كنت تخاف من الخوف أكل خره واسكت وبطل كتابة.. احترم نفسك وسد حلقك واستر على أهلك ونفسك.. اكسر قلمك وخليه بطيز العالم. وإذا تقول لا والله أريد الانتقام من هذا الخرس الاجباري هذا الخرس العام الشامل الذي يلف الجميع. إذن اكتب.. افضح.. عري.. خلي قلمك بعين الملثم واكشف قناع العقل الجايف اكشف هويته للناس واكشف هويه من يدعمه ويغرقه بالسلاح والاموال.. اسكندر: الصمت عار.. فعلاً اليوم من يسكت شيطان اخرس. لكن الخوف لي ضروري.. ضروري للحفاظ على حياتي في مواصلة الكتابة والنشر في الجريدة، لذلك لم أنقطع عن ممارسة طقوس حماية الذات من الخطر والأذى. بقيت امارسها من ذاك اليوم الاسود يوم غزو الكويت وإلى هذه اللحظة.

لبست قمصلة ثخينة مع الفترة البيضاء وأنا اخرج إلى باب المعظم للتسوق مثل كل مرة، اشتري الصمون وخضار وفواكه. تجاوزت مدخل الجريدة وبدات أقرأ تعويذة السلامة بصوت مسموع لأن الشارع فارغ من المارة. راحت الكلمات تتطافر من لساني بصوت هامس حيث بدأ مفعول كلمات التعويذة تعمي عيون المسدس والبندقية المتربصة لي عند رأس الشارع. التعويذة تخفيني عن العيون فأمر من امامها مثل شبح لا تراني عين القاتل.

لاحظت غيوما سودا تتحاشك فوقي تنذر بمطر طائش وأنا لم أفرغ بعد من طقس التعويذة إذ لا يبدأ مفعولها إلا حينما أرى أنثى حتى ولو مجرد سواد عباءة من بعيد، لازم أنثى ولو طفلة صغيرة أو عجوزا. وإذا سألني أحد اكتشف سر تعويذتي بواسطة ساحر أو جني وقال: لماذا الانثى بالذات؟ سوف أفحمه بجواب مقنع قاطع وأقول: لا أدري، فعلاً لماذا أنثى بالتحديد؟

واليوم، الآن في هذه اللحظات طارت من الشارع الاناث فلم ألمح أي أنثى لا من قريب ولا من بعيد ولا حتى (نفنوف) انثوي معلقا على حبل فوق السطح. اختفت تماما رائحة الاناث لكني رأيت فردة حذاء نسوي مقلوبة على وجهها فهل ينفع هذا الحذاء في إكتمال طقس التعويذة وانتهي من خط حمايتي الأول لأبدأ في خط حمايتي الثاني (جدران الهالات الاربعة) وهي جدران صد نزق وطيش الأقدار: ارسم أول هالة حول أهلي وحول مدينة (الحرية) ثم حول مدن واحياء ومناطق بغداد كلها بالتزامن مع (بسم الله الرحمن الرحيم). بعدها ارسم هالة بغداد والمحافظات من الشمال إلى الجنوب ومع (بسم الله الرحمن الرحيم). ثم أرسم الهالة الثالثة حول العراق ولبنان وافغانستان وشعوب المنطقة البؤساء وألتف بهالتي حول جميع دول العالم. أما الهالة الرابعة فارسمها حول الكرة الأرضية والكواكب والنجوم حتى يصير الكون برمته داخل هالتي، فأقرأ (وجعلنا من بين أيديهم سدا). وأخيراً أبدأ بخط حمايتي الثالث حين أدخل في حصن (آية الكرسي) الذي يحيطني من جميع الجهات بدرع رباني يطرد مسار الرصاص التائه ويحرفه عني ليضيع في الفضاء إلى الأبد فلم تسقط منه رصاصة واحدة على الأرض ولم اسمع صوته مطلقا. كما ان الحصن يصد عني طلقات القناصين وقذائف الهاون حين يجر قدمي إلى دروب آمنة لم تخطر على بالي يوماً.

وصلت قريبا من كراج باب المعظم بعدما تجاوزت كلية الآداب ولم تمطر الدنيا بعد لكن البرد خفت شدته فأخرجت يدي من جيوب القمصلة لحظتها رأيت فوق الرصيف قلم جاف أزرق، وفورا بدأت لعبة التردد الجائرة: اتركه أم التقطه، ولا تفصلني عنه سوى خطوتين. اشتغل عقلي بسرعة الضوء حائرا بين موقفين متعاكسين متناقضين حول قيمة وتفاهة قلم الجاف، وهل هو رمز روحي أم نحن نضفي عليه هذه الاهمية. أخيراً

انحنيت على القلم وتناوشته بأصابع يدي اليمنى فارتج المكان بصلية رصاص. سمعت وشيشه وأزيزه فوق رأسي وهويخترق الهواء، كما سمعت صوت دراجة بخارية انطلقت بسرعة الصاروخ.

أنا تكورت جنب سياج حديدي ولم أعرف أين دحست رأسي، تصلني صيحات قريبة وبعيدة: سلامات... سلامات، يلا يلا ماكو شي ماكو شي.

كأن هذه الصيحات تصلني من عالم آخر بعيد، عالم سفلي فيه تجويف عميق يفور بالاستغاثات. هل أنا ميت أحلم؟

وأنا مصطك جامد أحدق بقلم الجاف الازرق ايقنت أنا المستهدف بهذا الرصاص وهم أنفسهم المجاهدون أصحاب الرسالة الصفراء وقد عرفوا مكاني ومبيتي في الجريدة. نهضت أنفض ملابسي من التراب وما علق من زبالات الرصيف. رجعت بدون شراء أي شيء وبدأت الدنيا تمطر بهدوء وخفوت بلا زعيق الرعد وبلا كاميرات البرق وهي تلتقط الصور.

مبنى الجريدة لم يعد ملاذا آمنا ولا يجب أن ابقى في الجريدة، ولكن أين اهرب من رصاصة منقوش عليها اسمي؟

(٥)

لحقت أصحاب الدراجة البخارية متسرنما مثل الخروف الذي يركض وراء الذئب ليكون فريسة له. وصلت إلى السفارة التركية وتجاوزت أكاديمة الفنون الجميلة وأنا أشعر بأن الوقت يضيق علي يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة لا بل لحظة بعد لحظة لأن زمن الرصاصة التي انطلقت علي أسرع من رمشة العين واسرع من تفكيري: إذا رجعت للجريدة فقد أجدهم عند رأس الشارع ينتظرونني على أحر من الدبر مع دراجتهم، هل أذهب للبيت إلى حتفي اروح برجلي وخلي شيصير خلي يصير هي روح لو قندره؟

يمعود، يمعود الثالثة بيها المنيه. الله يستر من الثالثة. الاولى تهديد برسالة الرصاصة الصفراء. الثانية الاغتيال المحقق في باب المعظم لولا قلم الجاف الازرق، والثالثة آخر الانفاس. فالظاهر ان مفعول التعويذة ومفعول جدران الهالات الاربعة ومفعول حصن (آية الكرسي) لها وقت محدد، لها (اكسباير) قصير جدا: لا عمت عيون الرشاشة ولا تحولت إلى شبح لا مرئي، بل اخترق الرصاص خطوط حمايتي الثلاثة لولا قلم الجاف المنقذ. يجوز نجح الخط الثالث (حصن آية الكرسي) في انحراف مسار الرصاص وابعده عني بمعجزة وجود قلم الجاف، أم انها مجرد مصادفة لا أكثر ولا أقل؟ سمعت مقولة استقرت بدماغي تقول: ان الشعب العراقي هو الوحيد على كوكب الأرض يعيش بالمصادفة بينما بقية شعوب الأرض

يموتون بالمصادفة. فكم مصادفة تحتاج يا اسكندر لكي تبقى على قيد الحياة؟ لا.. لا الثالثة فيها الهلاك.

صعدت في سيارة (كوستر) للكاظم بعدما أخبرت الجريدة بواسطة هاتفي الموبايل كيف تعرضت للاغتيال، كما اخبرت أخي (قيصر) الذي أصر ان أرجع للبيت الآن فوراً لكن شعوري لايزال يلح علي بأن الوقت راح يضيق جدا، وبدأ يتفتق من شدة الضيق وكم أخشى ان يصير زمن الكتابة أضيق من ثقب الابرة خاصة بعد رصاص اليوم في باب المعظم، رصاص نسف ايماني الذي لا يتزعزع: كم قلت أني الوحيد بمنأى عن الذبح والاختطاف والقتل الطائفي حتى ولو تذابح كل العراقيين سأنجو أنا، لا أعرف كيف لكني سأنجو بحيلة قدر داهية أم بتهوري وعنادي في ركوب الخطر. لم أضع نفسي أبدا في عداد الموتى لأني وحدي الاستثناء الاعظم خارج وجبات مطاعم أكلة لحوم البشر. أنا لا أخاف من السيارة المفخخة والعبوة الناسفة حين أتناثر في الهواء بين أغصان الأشجار وأعمدة الكهرباء أو اتناثر فوق رصيف أوالشارع ولا يجدوا لي أثرا يدل على هويتي. ولا أخاف من أقبح ثقب في رأسي أو صدري، ولكنني ارتعد خوفا وهلعا من الاختطاف. دمي يتراكض مذعورا من شريان إلى شريان حالما اتخيل عملية اختطافي. ان أقذر وسيلة للقتل هي عندي أرحم آلاف المرات من الخطف.

التوت أعناق ركاب سيارة الكوستر الى: جثة رجل في الثلاثين من العمر منكفئاً على بطنه وتحت رأسه بركة صغيرة من الدم. ادرت وجهي فوراً عن المنظر لئلا يتحجر قلبي بلا مبالاة القسوة مثل بقية الناس بعدما ادمنوا على مخدرات رؤية الدم وحدائق الجثث. فيما ظل الركاب يحدقون بالجثة حتى تجاوزتها السيارة، سمعت نشغة بعض العجائز اخترقت سقف السيارة ولطخت السماء باسئلة متورمة يائسة من جواب. وسمعت ولولات

ونحيب متقطع مع فرقعة تأويلات وتكهنات واحكام ثقبت اذني وتسللت إلى ردهة قلبي واتخمته ضجيجاً ساماً. انطلقت هذه القرقعة من افواه الركاب:

ـ يمكن هذا شرطي.

ـ لا لا يجوز جاسوس للاميركان لو علاس.

ـ لا هذا عميل والمجاهدين قتلوه.

ـ شلون عرفته قابل مكتوب على وجهه عميل يجوز بعثي مجرم، وين اكو مجاهدين هذوله لوطيه.

ـ يعني اتكول المقاومة لوطيه مو مقاومة شريفة.

حتى تفاقم الضجيج السام إلى الذروة وكاد الاحتدام بالايدي ان ينشب لولا صيحة السائق المنفعلة: السيارة مالتي مو قناة الجزيرة.. إليّ ايريد يتلاطخ ويتناطح خلي يتفضل ينزل من السيارة.

لم اسمع أي واحد ينطق بكلمة (ضحية) وهو يشير إلى الجثة كالعادة دوماً حين يتصاعد دخان الجدل في سيارات النقل.

أغلقت أنا قنوات حواسي الخمس وعزلت نفسي تماماً عن زعاف لغوة قناة الجزيرة التي استمر بثها حتى وصولنا إلى الكاظمية. عزلت نفسي وفكرت: هل يترك الموت فسحة من الوقت لكي يعدل المحتضر هندام موته، ويغدو منظره جميلاً، يحاول ان يزين قبح موت قاهر كاسح صادم لا يريده الميت ولا خطر على باله هذا المصير الخائن. الوقت يضيق على المحتضر من لحظة إلى لحظة، يقاوم المنية لمواصلة الحياة والرجوع إلى البيت. العقل يتفتق من شدة ضيق الوقت وزحمة اكتظاظ سيول الافكار والرغبات والذكريات والمشاريع والاحلام وصدمة النهاية المروعة وما سيؤول إليه وما يترك وراءه. ضيق الوقت هذا انفجار لحظة مدوية تتزامن

فيها آلاف مؤلفة من شظايا الحنين إلى الحياة والندم على كل ما فات والحزن على الذات الصريعة وعلى المفاجأة القاتلة. تسيل من العقل ملايين الحيوات تتدفق مع دمه تصارع الفناء، حيوات بدأت من أول شهقة في الكون وحتى آخر زفرة من صدره. بموته تفنى كل المخلوقات وتسقط الدنيا إلى جثة في جثته. ان الرصاصة لم تقتله وحده إنما قتلت كل الحياة فهل ينتظر الموت ذرة من اللحظة لكي يعرف المحتضر كيف يموت؟

بالرصاصة أعلنت الساعة زمن الصفر حيث يصرخ الوقت بوجه الضحية: لا وقت لدي.

في أية لحظة ربما أكون أنا هذه الجثة وربما لا يخطر في ذهني هذا السؤال الصلف القاسي: لماذا لا نعرف كيف نموت ونكون بأجمل منظر في آخر لحظة ونحن نودع الحياة؟

(٦)

ما تزال السماء تبكي على بغداد حتى تنقعت ملابسي لأني أستحي الركض خوفا من المطر. ذاب الدخان وانطفأت مجامر الانفجارات الكبرى. للمطر سحرأبيض يشغل أفتك القتلة عن الجريمة. هكذا أفكر وأنا مبتل بطريقي إلى السيارات الصفر قرب مستشفى الاطفال في الكاظمية. أتمنى أن يستمر المطر حتى تتنظف القلوب ويخمد جمر الحقد. تزنجر السيوف وتصدأ البنادق والمسدسات وتخرب القذائف من الرطوبة، ويسقط مبرر وجود السيارات المفخخة والعبوات الناسفة لعدم وجود ازدحامات في الشوارع والساحات والاسواق.

حيرني سؤال: أيهما أفضل لبغداد الحرق أم الغرق طالما لا يوجد خيار ثالث الآن في هذا الاحتقان الدموي وجنون العقائد؟

نزلت في منطقة الاولى (باتا) لأصعد سيارات الدور لكن الشوارع فارغة وندرة وجود الركاب، طبعاً لا تتحرك السيارة ما لم يكتمل نصاب الـ(١٨ راكباً يعني تقبط) وأنا صدري مقبط بملايين الركاب المذعورين. هل المطر إعلان بمنع التجوال، لا أعرف لماذا يهرب الناس من المطر: هل يخافون على الجمر في الصدور ان يخفت أم يخافون على الوسخ الروحي ان يزول وتصفو النفس، لماذا لا يتوقعون ان يتحول الفحم وقود الحقد الرابض في كهوف القلوب إلى ماس؟

قبل وصولي مركز شرطة دور نواب الضباط صحت (نازل عيني نازل) كي أراقب شارعنا من بعيد. تذكرت ملاحظة أحد اصدقائي: لماذا نحن العراقين نكرر الكلمة مرتين: شاي عيني شاي. وخر يمعود وخر. جيبه جيبه. وهكذا لا نكتفي بمرة واحدة؟

طبعا، لم ينفع خداعي لنفسي بالتفكير بالمطر وتكرار الكلمة (مصيبة مصيبة) لم ينفع في إزاحة الخوف من رصاصة منقوش عليها اسمي. لعل المطر يذوب حقدهم علي وينسوني، لاأعتقد ان للمطر سطوة في تذكير المجاهدين بجبروت الله وقوة الطبيعة.

الشوارع خالية بعدما قبع الجميع داخل سجن شآبيب المطر. لو كانت الظروف ليست بهذه الخطورة ولا البلاد بهذا النزيف اليومي لكنت احتفلت بمهرجان الدنيا وصلاة غسل الروح بالمطر كما في السابق حين ألبس ثيابي البيضاء من الغترة إلى الحذاء وامشي أمشي إلى أن يتوقف المطر أو أتعب وتتلطخ ملابسي بالطين من فوق إلى تحت، انزعها واعطيها لأمي كي تغسلها إلى المطرة القادمة.

دفعت باب البيت الموارب ودخلت يتقطر الماء مني، احتضنتني أمي أول المستقبلين وانخرطت تبكي وتلعن حظها الاسود بذات الصوت والنبرة والنغمة التي تفطر القلب وتهيج كل الجروح الغافية والمنسية فلا يبقى هروب وزواغ من الدموع. أمي دائماً تنخرط في طقس النحيب منذ موت أبي وأنا في صف الثالث متوسط قبل امتحانات البكلوريا بأيام. حيث أنقذنا الراتب التقاعدي لرجل الاطفاء الذي مات في حريق سينما علاء الدين في شارع الرشيد. مات أبي أيام كان للموت معنى وقيمة ورهبة.

بعدما غيرت ملابسي وتناولت العشاء قبل العشاء مع أخي (قيصر) الذي بدأ يسولف بمصاحبة استكان الشاي عن تاجرالاطارات (الحجي ابو ليث) في مجمع المشن على طريق معسكر الرشيد، قال:

ـ الله يكثر من أمثاله، فهو شخص نبيل يساعد كل من يحتاج وأنا بالذات أغرقني بكرمه منذ اشتغالي معه حارس في مخزن اطارات وكنت بعيداً عن أنظاره لكنه يتفقد كل العاملين معه. أنقذ اخاه (ثامر) من جلاوزة الأمن واستدعاءاتهم المتكررة فقد اشترى حياة أخيه بالفلوس، سد بها عيون وافواه رجال الأمن. (ثامر) رجع للعراق من إيران بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية وحكموا عليه بالسجن المؤبد في أبي غريب/ قسم الاحكام الخاصة. كم بودي لو تتعرف عليه.

التاجر (حجي ابو ليث) ترك بيته في الوزيرية وهاجر إلى الامارات برغم ان الحجي ليس مطلوبا ولا سياسيا لكنه يخاف من الاختطاف لاسيما اختطاف أحد أطفاله ورعب الفدية أو القتل مثلما حدث لبعض أصدقائه التجار في مجمع المشن.

اسمع صوت المطر خارج الغرفة وكأنه خلفية بعيدة موحشة لهذا الجو العائلي الحميم الدافئ أتنفس الطمأنينة والأمان بعد الشبع. قيصر أنهى استكان شايه الثالث وأنا اكتفيت باستكان واحد، أخرج سيكارة (غمدان) قدمها لي واستل أخرى له أشعلها وقال:

ـ كلفني الحجي ان اسكن في بيته الفارغ بالوزيرية براتب شهري.. يعني هم سكن وهم حارس.. وأنت تعرف أني صعبة علي ترك البيت وخاصة حالة (ورود) الصحية انتكست هذي الايام، أنت تتذكر صحتها يوم أخرجناها من مدينة الطب سنة١٩٩٩ وبعد اسبوع اكتشفنا انهم سرقوا كليتها، تتذكر وقتها كانت صحتها زينة ولكن كليتها الوحيدة مضطربة الآن وتتعثر في عملها يمكن ادركت هذه الايام انها بقت لوحدها غريبة بعدما سرق بعض الاطباء المجرمين أختها.

طبعا، أنا أعرف ان عذر أخي (قيصر) ضعيف وغير مقنع فلا بنته

(ورود) مسروقة الكلية هي السبب ولا تشبث أمي بالبيت ورعبها من الانتقال إلى مكان آخر، لكنه تنازل لي بهذا العمل لأنني أحتاج إلى ملاذ آمن (بيت الحجي) هكذا رحنا نسمي البيت الفارغ بالوزيرية.

اتفقنا على خطة للخروج بدون لفت الانتباه واحتمالات مراقبة المجاهدين للبيت، حتى اني بالغت في التكتم عن مكاني الجديد في الوزيرية ولم أخبر (ولادة) خوفا عليها أثناء نقل فراشي واغراضي من مبنى الجريدة. شرحت لها خطورة وضعي وحتى لا تتسرب إليها تلك الخطورة علينا ان نلتقي في فترات متباعدة، وأنا من يتصل بها بواسطة الموبايل. بالغت وادخلت الرعب في أعماقها حين قلت لها: احذفي رقمي من تلفونك بعد كل اتصال.

أخيراً حصلت على عزلة في (بيت الحجي) لكنها عزلة إجبارية مثل السجن. أخرج في الاسبوع مرة واحدة إلى باب المعظم على الرغم من ان (قيصر) أخي يزودني كل ثلاثة أيام بما أحتاج من طعام. بدأ الفائض من الوقت عندي بالتناقص حين تعرفت على (ثامر) شقيق الحجي تاجر الاطارات. ثامر حكى لي تفاصيل جريمة في طهران كأني أعرفها أو سمعت بها في يوم بعيد ومكان بعيد: حكى عن سجن (زندان قصر) في طهران وكيف التقى بـ (روضان) المتهم بجريمة قتل. وان روضان المسكين تورط في قتل مجرم دولي، مجرم أولمبي، لامع اسمه (داود) هو أيضاً عراقي. بعدها جلب لي (ثامر) أوراقا كثيرة كتب فيها يومياته في طهران وفي سجن أبي غريب وقال: هذه المذكرات تصلح لتحقيق خطير يهز العالم.

آيباخ.. اي.. أي تذكرت تذكرت: يوم تعرفت على (ولادة) في الجامعة المستنصرية كان معها شاب خجول تحدث عن محنة خاله في

طهران وكيف ارتكب جريمة قتل ـ طبعاً لم أتذكر ان المعركة وقعت أمام سينما (انقلاب) ولم أتذكر حين وصف المقتول بأنه ثلاثي الزعانف الايدلوجية ـ لكني ركضت فوراً إلى أوراقي وحقائبي ونبشتها حتى عثرت على رسائل (روضان) في سجن (زندان قصر) إلى ابن أخته (جمال) في باكستان.

هنا في الوزيريةفي (بيت الحجي) لم أعد أصعد إلى السطح لأتفقد سماء بغداد واحصي أعمدة الدخان المنبعثة من جروحي. بل رحت اتحرز واحذر من عيون العلاسة وعيون الفضوليين الغمازة مع عيون بريئة تشي بي وتسلمني بيد المجاهدين القتلة بدون ان تدري ولا تعي وهي اشد براءة من عيون العجل. في ذلك اليوم، يوم رأيت رأس العجل أبن البقرة على دكة القصاب في سوق (الثانية) بمدينة الحرية. رأيت عينيه تنظر ألي بسؤال جاحظ: لماذا ذبحوني، ما الذنب العظيم الذي ارتكبته وماذا فعلت، أنا مجرد حيوان وديع غير قادر على إيذاء أحد، لماذا تذبحوني وتأكلوني أنتم البشر لماذا لماذا؟

دخلت في عيون العجل وتوغلت بعيداً خارج كيس الدمع فرأيت مجازر ومسالخ وأنواع السيوف والسكاكين والكلاليب، رأيت قطعانا تنحر كل يوم ورؤوسا بشرية تتطاير من جيل إلى جيل كلهم لا يعرفون السبب وراء شلالات الدم. وإذا عرفوا السبب فهو سبب تافه فارغ مقفر، سبب يعاني من إنعدام المعنى، هو سبب بلا سبب.

بقيت هناك خاتلا في عيون العجل لم أستطع الخروج أبدا إلا كدمعة حمراء تقهر عقلي وتذيب قلبي بغموض سؤال لا جواب له: لماذا كل هذا الذبح؟

فرشت أمامي رسائل (روضان) ويوميات (ثامر) فوجدت تطابقا مذهلا

في تفاصيل الاحداث والاسماء ودقة الوقائع. كما وجدت تناقضا واختلافا بعيد المدى في وجهات النظر والمزاج واسلوب الكتابة.

زيارات (ثامر) المكررة إلى (بيت الحجي) لم تزعجني لحد الآن بل اجتاح عزلتي بوجه أليف كأني أعرفه منذ سنين طويلة، كما أنه ليس ثرثارا ولا يتحرج من صمته وسكوته بوجهه الوسيم المرح وشواربه الرفيقة المسالمة، له ثؤلول أسود تحت ذقنه. وإذا تحدث يختصر مسافات كبيرة بلا لف ولادوران، يتحدث بحميمية صديق قديم.

بعد تفكير طويل وجدت ان رسائل (روضان) ويوميات (ثامر) لا تصلح للتحقيقات والريبورتاج ولا تصلح لكتاب سيرة أو مذكرات لسبب بسيط: لا يستطيع أحد تصديقها من شدة واقعيها ووضوحها ولأنها إحداث وقعت فعلاً لكنها بلا شهود ولا صور وبدون إثباتات ولا أدلة، إنها بالضبط كما يصفها ثامر: حفر ونبش بحثا عن تابوت مدفون، تابوت يخبرنا عن مصير حياتنا والى أين نحن ذاهبون. تابوت يخفي أسرار وباء الدود.

وحين قلت له ان رسائل روضان ويومياتك لا تصلح لأي شيء سوى لكتابة رواية. إمتعظ ثامر وقال:

ـ الرواية ورشة للتفسيخ، تفسيخ الحياة البشرية. وان معظم كتاب الرواية مثل مصلحي الاجهزة الالكترونية، حيث دائماً هناك براغي زايدة مع قطع واجزاء يعتبرونها إضافية وكمالية لا داعي لها وكأنهم أكثرخبرة ومهارة من صناع التلفزيون ومن الشركة التي انتجته بدون براغي زائدة وقطع فائضة. هؤلاء الكتاب لا يستطيعون حتى إخفاء إسلوب (الترهيم).

ضحكت على وصفه للرواية وكتابها وقلت له:

ـ ثامر، هذه ورطتي أنا وحدي ورطتي الشخصية وأنا كفيل بها..

حيث لا تنفع أي مساعدة أو انقاذ، الكتابة هي الشيء الوحيد الذي تكون فيه المساعدة خيانة.

بدأت أكتب في ليلة اشتد فيها عصف الرياح، أغصان وأوراق الأشجار تنوح وجذوعها تجعر. كالعادة الكهرباء مقطوعة، أشعلت اللالة واخترقت الظلام بعناد حر لانجاز وثيقة صعب امساكها كأنها من الزيبق. وليلة بعد ليلة تغيرت مواقيت ساعة جسدي تدريجيا حتى صار النهار للنوم والليل للعمل. والآن بدأت تمطر مع ايقاع السطور والجمل والكلمات التي أكتبها، حتى توغلت بعيداً داخل عين الدود.



الفصل الثاني

ثامــر



(١)

خرجت ثلاثة مواكب تشييع يوم الاربعاء، الموكب الأول في طهران انطلق من مقر متطوعي (البسيج) في شارع فردوسي. اصطفت حشود من الرجال والنساء والاطفال على جانبي الشارع، وبرغم صيت الفضول المعروف عنهم لكنهم لم يسألوا عن اسم ومكانة الشهيد صاحب هذا التابوت الاسود. لأن شوارع المدن الإيرانية، تشهد كثرة المسيرات التي تشيع جثث ضحايا الحرب، الذين يدفنونهم في مقبرة (بهشتي زهراء). هؤلاء المستطلعون وبعضهم من يجيد القراءة والكتابة عرف ان اسم صاحب الجثة ليس إيرانياً.

الموكب الثاني اخترق شارع (غوريانوفا) في موسكو بتابوت أحمر، يمشي جميع المشيعين على ايقاع مارش جنائزي، وهم لا يعرفون من يكون صاحب التابوت، ولا يعرفون مدى اهميته ومكانته وصفته في الحزب الشيوعي سوى قلة من ذوي الشعر الاسود والسحنة السمراء واثنين أو ثلاثة من الذين يتصدرون مسيرة التشييع. كذلك المارة المستطلعين لاحظوا اسم الرفيق الميت لم يكن روسياً ولا حتى اوروبياً.

وانطلق الموكب الثالث في بغداد من رأس شارع عشرين في البياع، تتقدمهم سيارة بلون سمائي تحمل تابوتاً مغطى بالعلم العراقي. يمشي خلف السيارة صف رجال ببدلات سوداء واربطة سوداء وشوارب سوداء. يتبعهم حشد من الرجال والنساء، صامتين بحزن وظيفي تلبية لاوامر

حزبية، وهم لا يعرفون ولا يسألون عن صاحب الجثة من يكون. كذلك الناس الواجمون على جهتي الشارع، الشارع الذي تبخر تلقائياً من السيارات وعربات الباعة واصحاب الاكشاك والمطاعم المرتجلة. لم يعرفوا ولم يسمعوا باسم الرفيق الشهيد صاحب التابوت.

في التقاطع الأول من الشارع داهم حصان هائج مقدمة الموكب والسيارة فارتبك السائق منطلقاً للامام ثم توقف بشكل مفاجئ. يبدو ان التابوت لم يكن محبك الشدّ بالحبال، لذا انزلق على الزجاج الإمامي وسقط على الأرض وانفتح الغطاء، كاشفاً خلوه من اية جثة، بل تساقط من جوفه صرة ملابس وحقيبة دبلوماسية عتيقة. تدحرجت على الاسفلت وانفتحت هي الأخرى واندلقت محتوياتها: اوراق صفراء، علبة كلينكس، معجون أسنان اجنبي وفرشاة مع مسدس ابو البكرة فضي اللون مثل مسدسات الكابوي. انطلق الحصان يسحل خلفه اربطة اللجام وقطعة حديد تتقافز على الشارع بصوت مقرقع، لا يعرف إلى اين يتجه، الظاهر انه حصان عربة نفط. وبذات اللحظة التي غادر فيها الحصان المكان هب رجال حول التابوت يسدون مجال الرؤية على المتفرجين، برغم ان جميع المستطلعين الواقفين على جانبي الشارع قد اختفوا وبعض المحال التجارية اقفلت ابوابها. بحركات سريعة لملم الرجال محتويات الحقيبة الدبلوماسية ومحتويات التابوت واغلقوه، وضعوا العلم فوقه وشدوه باحكام فوق السيارة السمائية التي انطلقت سريعاً وتبدد المشيعون بنفس وتيرة ايقاع المسيرة وهم يتقدمون للامام. ثم تفرقوا عجولين لا يعرف غالبتهم صاحب هذه الجنازة الرمزية ولم يسمع أحد باسمه.

جميع المشيعين في المواكب الثلاثة للعواصم الثلاثة، موسكو، بغداد، طهران، لم يعرفوا قط إلى اليوم: انهم قد ساروا وراء جثة واحدة وميت واحد.

كانت مصادفة يوم الاربعاء عجيبة وغريبة في توقيت وتزامن انطلاق المواكب. كل عاصمة موقنة (ومالئة يدها) بأن الشهيد يخصها وحدها فقط وكان يلعب على البقية. بحيث راحت بغداد تضحك على طهران وموسكو وهي تشيع الجثمان الرمزي للقتيل داود. وضحكت طهران على بغداد وموسكو أثناء مسيرة موكب التشييع للمجاهد العراقي العنصر المهم في (البسيج) المحمولة جثته في التابوت، يقولون انها جثة الشهيد داود. وموسكو هي الأخرى ضحكت على طهران وبغداد في موكبها الصارم بايقاعه الجنائزي، الذي يحمل تابوتاً فارغاً يرمز للرفيق داود.

ضحكت الواحدة على الأخرى بسرية وكتمان تشبه كبح ضحكة لجوجة أثناء الصلاة في مسجد أو خنقها وطمسها أثناء قداس في كنيسة، ضحكة تشبه الضرطة حين يتم تقطيعها وتصريفها إلى فسوات.

ولكن أي من العواصم الثلاثة كانت واثقةً فعلاً من الضحك على البقية؟ هل داود الجثة حتى وهو ميت ضحك عليهم جميعاً، بدون ان تعرف أي عاصمة بأنها كانت ضحية مهزلة سوداء، وانها كانت غبية مغفلة طوال تلك السنين، وانها كانت تعيش دراما خيانة ساخرة؟

(٢)

بدأ المطر يغسلني من وسخ التزوير في شارع (ناصر خسرو)، وراح الحبر يذوب تحت قدمي حتى صرت ناصعا خفيفا فدخلت في ثوب طهران المبتلة وهي تمشط شعرها الاخضر بشآبيب المطر. كم تبدو جميلة وهي تخرج من الحمام السماوي رطبة لامعة طرية تمسد خصلات أغصان الأشجار والاوراق تلصف بعدما غسلها المطر من سخام السيارات وأبخرة الطمع ولهاث السباق الوحشي للفوز بال (تومان). كنت أتأمل تيجان الثلج فوق سلسلة الجبال المطلة على تجريش وشمال العاصمة بعدما انقطع المطر فجأة مثلما بدأ واشرقت على الفور شمس رقيقة ولد من أشعتها الرذاذية قوس قزح ينث الالوان فوق جسد طهران. يقولون ان المطر يذيب الثلج أكثر من حرارة الشمس، فأنا يومياً أراقب انحسار الثلج متألما خائفا من تقدم خطوات الصيف إلينا على الرغم من ان صيف طهران أرحم مليون مرة من صيف بغداد حيث كنت دائماً أردد مع نفسي ومع أصدقائي: هم حر وبعث وصدام وهم فرار من الحرب والجيش، وهنا في طهران أردد: هم حر وسخام وكذب العمايم وهم فرار من المخيم.

منذ فترة طويلة لم أشعر بعذوبة الهواء ونشوة التطهروالخلاص من غرفة (سرداب العالم) السيئة بصيت التزوير. تحررت أخيراً من سجن التزوير. كنت مدفونا تحت أنقاض الحياة المؤجلة، لم أر كيف تنسل السنين من وراء ظهري بدون ان أدري وإذا يوم يجريوما حتى نسيت نفسي

بتفاهات وأغراءات التزوير. ليست اغراءات النقود فالجميع هنا اما صديق أخجل من تحديد ثمن أتعاب وخسائر التزوير واما فقير مفلس يتوسل بأنه باع كل شيء واشترى هذا الجواز سفر، كانوا يدفعون لي مبالغ بسيطة لكن الاغراءات في سحر التزوير، فمن أصابعي حلق وطار عشرات العراقيين إلى السويد والدانمارك وألمانيا وهولندا والنرويج مع دول كثيرة أخرى. أشعر بأن كفي مطار سري تنطلق منه طائرات إلى جميع بلدان العالم. طاردني صيت التزوير من (كوجه مروي) إلى غرفتي التي هي عبارة عن قبو شاعت عليها تسمية (سرداب العالم) فهي سرداب الطيران للعالم وسرداب الجو والفضاء ومن ثم هي سرداب الخلاص من قبو إيران إلى ضوء العالم. كانت لي فلسفة خاصة بالتزوير: ان كل ما يصدر عن السلطة مثل سلطة صدام وامثالها بالمنطقة هو بالجوهر مزور كالحرب والتجنيد ومعجزة التسريح من الجيش وتعقيدات تغيير السكن والانتقال من مكان إلى آخر مع تعقيدات تافهة وصعبة تشل الحركة داخل الحياة والى عقدة العراق الكبرى: جواز السفر. إذن يحاول تزوير السلطة قتلي وسجني، هنا ابدأ أنا بتزوير أوراقي الثبوتية لأبقى حياً وغير مطارد أو مشبوه ومشكوك بي. أنا أزور لمواجهة تزوير السلطة، تزوير مقابل تزوير. السلطة تريد سجني فأزور حريتي، السلطة تريد تجنيدي وزجي في الحرب المزورة فهل ابقى أتفرج على حياتي كيف يلعب بها السفلة، إذن أزور تسريحي وأهرب من كرش الحرب. وهنا إيران تمنعنا من السفر إلى الخارج فلابد من التزوير وخلق (كوجه مروي).

البارحة قررت الاقلاع عن مخدرات (كوجة مروي) والانتقال من غرفتي إلى مكان آخر بعدما وصلتني تحذيرات وشائعات عن سماع اسمي يتردد كثيراً عند الشرطة و(الكوميته) والحرس (السباه) في قائمة أخطر المزورين. انتفضت وخرجت من تحت انقاض الحياة المؤجلة وأنا أسأل

نفسي: هل تركت أهلي وبلادي وغامرت بحياتي ومصيرعائلتي لكي أصير مزورا؟ عبرت شط العرب اسبح في الماء الاسود وهو يشتعل هنا وهناك بالقنابل وانفجارات الالغام. كل قطرة ماء يكشرمنها عزرائيل، الميتات بعدد قطرات الماء وأنا أزوغ منها ومن كواسج وغيلان الماء. أصعد وانزل مع الامواج كأنها جماهير من الزنوج العبيد ترفعني فوق أعناقها تهتف بمليون أمنية للحرية والخلاص. احث نفسي وأنا افوج واشق بطون الاخطار: اما موت أبيض وأنا أهرب في هذا الموج الاسود واما أنقذ نفسي من حرب مجنونة لا تعرف لماذا بدأت ولا متى ستنتهي، فهل حملني شط العرب بين شغاف أمواجه لأكون مزورا؟

البارحة أنهيت كل شيء بسرعة وخفة للخلاص من الشبهات وسمعة التزوير: دخلت دكان دلالة صغير فيه ثلاث كراسي حديدية وعلى الحائط لوحة (آب كوشت) أكلة شعبية إيرانية يستخدم فيها وعاء يشبه الهاون أمام شيخ أبيض اللحية يفكر ساهما في ما وراء الطعام. أعتقد انه يفكر بالشاي. تركت الدلال ينهي حديثه مع شخص أمام الباب وأنا أجوب بعيني محتويات الدكان. انتبه الدلال إلى وجودي الذي يبدو انه فائض عن الحاجة، وهنا في إيران هو وجود ليس زائدا فحسب بل وعبء ثقيل بلا معنى. بادرته قبل ان يسألني: أريد غرفة للايجار.

مد يده مودعا الشخص الذي يتحدث معه ودخل إلى الدكان وهو يقول: ألفين تومان، ألف مقدمة وألف إيجار، ها ماذا تقول؟

اتفقنا على ألف تومان أعطيه الآن وبعد اسبوع أعطيه الالف الباقي. قال: هيا تعال معي ترى الغرفة.

وجدتها تناسبني لبعدها عن محطة العراقيين في (كوجة مروي)، ولأن مساحتها لا تكفي سوى دوشك نفر واحد حتى لا يضطرني الخجل والحياء

لمبيت أشباه الاصدقاء ثقيلي الوزن. فأنا بحاجة قهرية للعزلة بعد حياة الانتهاك والمشاعية في غرفة (سرداب العالم) التى فقدت فيها حاجات لا تعوض مثل سرقة جوازي سفر وسرقة جهاز مسجلة وآخرها سرقة بعض اجازات سوق مزورة أودعها عندي صديقي (هاني الابيض) لكي أبيعها له، وكانت الصدمة حين اتهمني بسرقتها حسب ما نقله لي أصدقاء وزبائن التزوير. هذه الصدمة هي السبب الأول في كراهيتي لغرفة (سرداب العالم) واحتقاري أعمال التزوير التي يبدو انها تشوه سمعتي حتى لو كنت نبيا.

نقلت اغراضي الفقيرة بعربة دفع صغيرة وانشغلت بتنظيف غرفتي الجديدة ولصق الجرايد على الجدران وسد الفجوات والثقوب الكبيرة والصغيرة وتغطية السقف المتهدل بشرشف أبيض.

نمت بدون عشاء نوما صخريا بعد التعب والارهاق لكنني فززت مرعوبا في جوف الليل ألهث إثر كابوس فنطازي: نبتت لي لحية من داخل فمي وبقيت استل الشعر واخرجه من فمي وكنت دائماً على وشك التقيؤ بدون قيء، ولحيتي لا أول لها ولا آخر كأنها تمتد إلى خصيتي. أخيراً تقيأت رغوة ثلج راح يتكور إلى ثدي يموء وينفخ علي مثل قط شرس، قفز على وجهي واستيقظت مذعورا. يا ليتني لم أفز ولم استيقظ لأنني وجدت نفسي مدفوننا تحت كابوس الصحو الذي هو أفظع وأشنع من كابوس النوم. وجدت نفسي مغطى بلحاف من الدود، تطمني حشرات بلون رصاصي مقزز وهي تمشي بأرجل سيالة مزدوجة على شكل قوارب بمجاذيف كثيرة تفوج متسرنمة فوق بحر جسدي المتلاطم بالكوابيس. قفزت كالملدوغ خالعا ملابسي وأنا أذب عن وجهي ويدي سيول الحشرات. استفقت من الكابوس الايوبي، نسبة إلى النبي أيوب الذي يرى الدود يأكل وينهش جسده فيخاطبه قائلا (كل، كل مما رزقك الله). وبما أني اسمي (ثامر) لا أيوب وليست لي ميول نبوية ولا حتى ادعاء النبوة.

فقد لعنت الاولين والآخرين ولعنت اليوم الاسود الذي ولدت فيه. ثم كدست ملابسي المخلوعة ونفضتها خارج الغرفة. اختفى الدود هاربا وهو يلعنني لأني لم أقل له (كل مما رزقك الله).

ذهبت إلى الحمام مع خيط الفجر الأول لأغتسل وأزيل وسخ ورعب الكوابيس. مررت على دكان الدلال أثناء عودتي وقلت له: الغرفة ممتازة لكنها تسفو بالحشرات الغريبة. أجابني ببرود سلحفاة:

ـ ولا يهمك انها حشرات اسلامية.

رحت كل ليلة أجمع الدود في علب الكبريت الفارغة وأطلق سراحها صباحا خارج الغرفة، لكن سجون الحشرات هذه كانت تمتلىء وتغص بنزلاء جدد مما اضطرني إلى توسيع سجوني بعلب السجائر الفارغة. كنت أحشوها بالسجناء ليلا وأفرغها صباحا. أسمع الضربات والخبطات والخربشات على أبواب وجدران سجون العلب، فأخاطب الدود قائلا: اطمئنوا ولا تفزعوا فسجوني خالية من التعذيب والإعدام، غدا صباحا أطلق سراح الجميع في عفو عام وشامل، في كل صباح عفو فلا أريد سماع أي احتجاج وخبط على الابواب، بأمكاني الآن إبادتكم في مقابر جماعية ومحال ان يعترض علي أحد لكن القتل يعمي القلب مهما كان شأن المقتول وهويته. وها هي حشرة رمادية (ملحة) سنحت لها فرصة للفرار فانتهزت وجود فتحة صغيرة في باب علبة الكبريت وراحت تدب بسرعة السجين الهارب والمتلهف للقاء حبيبته الحرية، وأنا أطاردها من مكان لآخر رافعا علبة الكبريت لاقتناصها، وإذا بها تصعد فوق قدم أنثى حافية. إنخلع قلبي مرتعدا من الخوف وارتددت إلى الوراء جافلا من صدمة المفاجأة. وحالما رفعت رأسي أشرق علي وجه ساحر لامرأة في الثلاثين وحشية الجمال بثوب نوم حلمي فضفاض وكنت في قلبي اسأل

(حورية لو جنية نزلت علي من السما). مالت علي وانسكبت فوقي وأنا ارتجف من شعاع حضورها ودفء حرارتها حتى سلمت أمري لعينيها الغائبتين في مكان آخر وزمان آخر، استسلمت لانسكاب شلال اللحم الوردي الناضج لا أسمع غير خرير دم الشهوة الضاج. وبدأت الملحمة البشرية الخالدة في أروع صفحاتها اللحمية. هل يفرح الله بهذه المعاشرة والالتحام الرباني بعكس ما يشاع عنه والمتعارف عليه. هكذا كنت أفكر قبل سنين طويلة من المراهقة الدائمة والمزمنة فأقول: لأن الله لا ينام جعل البشر يغطون في أوضاع مختلفة من النوم وكانه يعوض عدم نومه، أوينام من خلال النوم الجماعي للبشر. ولأن الله لا يأكل فقد خلق ما لذ وطاب من الطعام ليأكل البشر، وكأنه يعوض عن صومه الابدي، أو هو يأكل من خلال البشرجميعهم. ولأن الله لا يمارس الجنس فهو يعوض ذلك بأشكال وأنواع المضاجعات، ومع أجناس عديدة وبوضعيات لا تخطر على بال، فألله سبحانه وتعالى يمارس الجنس من خلال البشر جميعاً.

هذه الجنية (سبلا) أرملة قتل زوجها في السنة الثانية من الحرب العراقية الإيرانية، عندها طفلة عمرها ثماني سنوات. وهي تتحدث كنت أرى الدموع الفوارة في ما وراء خديها، كانت تخفيها وتكابر في اجهاد وصراع مع نفسها، بالكاد تلزم نفسها لئلا تنخرط في بكاء عاصف طويل سوف لن يتوقف ولن ينتهي مثل حربنا السرمدية. تلمست ورما خفيا يندى قيحه من وراء ثياب كلماتها وهي تقول: أنا لست أشرف امراة في إيران فحسب بل وأشرف امرأة منذ خلق الله الكون والى هذه اللحظة. حفظت نفسي طوال عمري كجوهرة مقدسة لا تقدر بثمن ولكن بعد صدمتي بمقتل زوجي وسلوك بعض المسؤولين معي وكأنني جارية أو سلعة رخيصة بلا مشاعر ولا كرامة ولا ذات بشرية، كل هذه والضغط النفسي الهائل أشعل

عندي ثورة ضد الثورة، فأنقلب فعلهم الشائن معي إلى رد فعل عاصف أهوج دنست فيه المقدس وخرقت المحرم، وها أنت أول من يشاركني لذة الانتقام من الشرع والحرام بتقديم جوهرتي لك بلا أدنى شعوربالإثم ولا الندم. لقد راقبتك منذ اليوم الأول هنا وعرفتك بحدسي أنك الآخر تعاني من رد فعل انتقامي لا تعرف كيف تثأر من حكومات الموت. تعال، تعال نحتفل بقيامة الجسد والثأر من أكفانه الهمجية والى الجحيم بجلاوزة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

قلبت الجملة ساخرة وهي تبتسم باشراقة تحطم كل سجون العالم. تذكرت رد فعل (عدنان) الشنيع في مخيم (خرم آباد) الذي أرتد من أقصى الايمان إلى أقصى الكفر في حين كان هو أحد الشخصيات البارزة في المعارضة العراقية. رد فعل ينعقد اللسان قبل النطق به ويخر الخيال ساقطا من شاهق تاريخ الشذوذ. (عدنان) هرب من مديرية أمن الحلة بعدما نقلوه للمستشفى حين قام بتمثيل مريض الصرع، وهناك في المستشفى حلق لحيته بمشرط العمليات وبوله بدل الماء. لبس (صدرية) الممرضين البيضاء وخرج إلى الشارع العام وعن طريق صديق كردي هرب إلى إيران حتى وصل إلى مخيم (خرم آباد) حيث بدأ العد العكسي للايمان فانقلب من مؤمن يضحي بنفسه في سبيل دينه إلى أشد انواع الزندقة، إذ راح يومياً يمزق ورقة من القرآن ويبول عليها في المراحيض. واستمر على هذا التطرف في التجديف وردة فعل طويلة الامد ضد إيران.

صادفني في شارع ناصر خسرو أبو المشاريع الخرافية (سيد علي) وهو يحمل كيسا قماشيا فقال محذراً:

ـ الدنيا مقلوبة عليك وعلى كل المزورين ب (كوجة مروي)، أمس اقتحم رجال (الكومية) غرفتك القديمة (سرداب العالم) كما اقتحموا الكثير

من غرف العراقيين. أعتقلوا ست مزورين حتى الآن، فلا تقترب من (كوجة مروي) ولا تدل أحداً على غرفتك الجدبدة.

وعندما سألته عن سبب كل هذه الضجة والحملة على المزورين قال:

ـ لقد زوروا جواز سفر لأخت رئيس الجمهورية وهربت للخارج ملتحقة بزوجها المعارض الذي هرب قبل سنة ونصف من طهران. ولما استقصوا عمن زور الجواز اكتشفوا انه خرج من (كوجة مروي) ومن تحت يد مزور عراقي.

أخذت (سيد علي) إلى مكان غرفتي الجديدة ورجوته ان يجد لي عملا لأنني على وشك الإفلاس التام. رجع إلى الوراء وبحركة بهلوانية مد يده بداخل كيس القماش الذي يحمله وأخرج علبة زجاجية مملوءة بالنمنم. ثم علمني كيفية فرز الالوان ولظمها بخيط وقال: هذه شغلة مؤقتة تمشي بها أمورك. تركني مع النمنم أخوض بعمل لا يبشر بالخير.

(٣)

مثل القمار كانت تغويني ودائما في اللحظات الأخيرة أمسك نفسي عن الذهاب إلى (كوجة مروي). محلة تعج بكل أنواع السحر والاغواء وعقاقيرعلاج الغربة وادوية سد النقص الروحي. في كل صباح تفتح (كوجةمروي)عيونها على وجوه المسفرين أو المرحلين أو المهجرين أو (التبعية) كما يسميهم صدام والبعثيون الذين رموهم على الحدود الإيرانية بحجة انهم ليسوا عراقيين بل تبعية إيرانية، هم اكراد فيلية جذورهم عيمقة في أرض وادي الرافدين، وجوههم تجعدت وشيب شعرهم من شدة الادمان على حلم الرجوع إلى العراق. يومياً يجلسون مثل مساطرعمال البناء يهيئون الاسمنت والطابوق والجص ويبدؤون ببناء أحلام العودة لكنهم سرعان ما يهدوها ويهدمونها ساخطين من صوت عفطة الامل ترس آذانهم فلم تثنهم سخرية الأمل عن تشييد أحلام جديدة للرجوع. اكتشفت وقتها ان الادمان لا ينحصرعلى المخدرات والكحول والسجائر لأني الآخر كنت مدمنا على (كوجة مروي) مثل المسفرين. وها أنا أستدعي كل قوى إرادتي واحتياطات الدعم النفسي من أجل التخلص والاقلاع عن الذهاب اليها. أنا الآن مثل طفل رضيع يلطخون ثدي أمه بالحنظل والمرارة والعلقم لينفر من رضعه، أحاول فطام نفسي من ثدي كوجة مروي. هذا المكان جعله العراقيون مثل زقاق بغدادي يفوح بكل روائح مدن العراق من السليمانية إلى البصرة. (الكوجة) كما نسميها اختصارا هي محلة عامرة

بالاكلات الشعبية ونكهة حضور الامهات وهي تنادي علي نداءات تعصر القلب، وتجرني من خشمي أبخرة الصباح حيث الباقلاء بالدهن وعطر الشاي في الهواء يدوخ والبيض مع (العروك) ودخان الكباب والمعلاك. كلها تتحول إلى حبال تجرني إلى أكبر محطة عالمية للحنين وتزوير الحنين. يهيمن على الكوجة مناخ التزوير الذي يقود إلى دهاليز جميع وسائط النقل: طائرات، سيارات، قطارات، بواخر وسفن لكن المشكلة هي في عدم التنبؤ بالمكان المقصود ومعرفة آخر محطة أو الوجهة. فاذا كنت ذاهبا إلى برلين قد تصل إلى أوسلو بقدرة قادر وعليك ان لا تعترض أو تحتج. اسكت فقط لا تدعهم يشعرون بوجودك فأنهم قد يرمونك في الفضاء إذا كنت في طائرة وقد يرمونك فوق جزيرة أو حتى صخرة إذا كنت في باخرة. وفي السيارة قد يتركونك في صحراء لا تمر بها حتى البعران. لذلك اسكت وابلع لسانك.. لا تنطق بحرف واحد.

كم تبدو الكوجة حنونة أليفة لكنها تعج بكل أنواع المجرمين. كما ان إغواء قمارها ليس بخسارة النقود إنما أنت تقامر بحياتك ومصيرك فكل التزوير والتهريب مغامرة في إجراء عملية جراحية داخل الوجود البشري قد تنجح وتصل إلى كوبنهاكن وقد تفشل وتكون طعاما للسمك في قاع المحيط.

أخاف لو شفيت من ادماني على (الكوجة) ان اسقط في ادمان آخر وربما سوف أكون مدمنا على الجنية (سبلا). امسكت نفسي من زيقها ومنعتها من الذهاب إلى (كوجة مروي) رغم اني سوف أفتقد الوجوه الجديدة التي هربت توا من العراق، وسوف لن تصلني آخر أخبار التهريب والسفر وآخر حيل ومغامرات اللجوء من تمزيق جواز السفر في الباخرة ورميه في البحر أو تمزيفه في مراحيض الطائرات والمطارات، لكن (البوليس) اكتشف هذه الحيلة فجرب العراقيون طريقة النزول قرب حدود

البلدان الاوروبية والدخول في متاهات غابات ثم يسلمون انفسهم إلى أقرب دائرة شرطة. هذه الحيلة أيضاً اكتشفوها ولم تعد تنطلي على رجال الشرطة وصارت قديمة. وإذا فشلت كل الحيل والوسائل يلجؤون إلى تجربة (الموس) وتهديد موظفي المطار بالانتحار وقطع الوريد لو أصرورا على أرجاعهم إلى العراق. كذلك اكتشفوا هذه الحيلة من كثرة تكرارها في المطارات. لذلك صارت كل مغامرة لجوء لها حيلتها الخاصة بها، واندثرت الحيلة الواحدة والقاعدة الوحيدة لنيل جنة اللجوء.

سمعت طرقات على الباب ونداء باسمي. خرجت فوجدت (سيد علي)بصحبة شخص عرفني عليه قائلا: هذا صديقي (روضان) هو الآخر يشتغل بالنمنم. لكنه لم يكمل جملته لأن رشقة وحل لسعت ظهره جاءته من اطفال يلعبون بالحقن الفارغة (اسرنجات المدمنين على الهيروين) يملؤونها من المجاري المكشوفة ويزرقوها واحدا على الآخر. جفل سيد علي والتفت إلى الاطفال يشتمهم بالفارسي.

تعاطفت مع (روضان) برابطة اخوة النمنم. فهو عمل قذر يجعل الحياة خالية تماماً من المعنى. اين عثر سيد علي على مشروع كهذا يقتل فيه الوقت والبطالة، ضرب صقرين بنمنمة واحدة. سيد علي صاحب اغرب المشاريع العملاقة التي تتحول إلى نكتة بمرور الايام. مرة دوخني بمشروع (الالف صديق) هو يشرحه بجدية صارمة متطرفة لحد التوهم ان يكون مازحاً ساخراً أو ينصب على الآخرين. يقول: إذا كان عندك الف صديق لا يؤثر عليهم إطلاقاً ان تطلب من كل واحد (١٠٠٠) تومان. ما قيمة المبلغ انه تافه. يصير عندك مليون تومان تستطيع به ان تفتح مشروع ناجح مئة في المئة. مشروعه يشبه المثل العراقي: الف صديق ولا عدو واحد. من شدة العوز رضخت لشغلة النمنم. اتسلم نصف كيلو نمنم مختلطة الالوان واقوم بفرزه، كل مئة نمنمة بلون واحد مقابل خمسة

توامين. قلت مع نفسي: لا اخسر شيئاً بهذا العمل، اجلس في غرفتي وبلا جهد عضلي ألعب بالنمنم وأعزل كل مئة لون على حدة. اولا: اسكت به جعير معدتي وثانياً ادفع به ايجار الغرفة. ولكن تبين لي بعد يومين من الشغل: ان كل خرزة نمنم تتحول إلى صخرة سيزيف. حتى زهقت روحي في اليوم الثالث من هذا العبث الجاد ولم انجز سوى (٥٠٠) خرزة، يعني (٢٥) تومان فقط لا تكفي لشراء وجبة طعام واحدة وعلبة سجائر.

نظرت في عيني روضان هل يطل منهما سيزيف النمنم، وهل اجد اثار خطوط على وجنتيه من كثرة تدحرج صخور الدمع. رايته منزوياً خلف جبل من الخجل. لا أدري مم يخجل ومن اين ينبع هذا الخجل؟ رايته يلوذ بوجهه في الفراغ، يتطلع إلى جميع الجهات وكأنه يرى البشر عراة واحد ينيك الآخر، فيلوذ بوجهه لا يعرف أين. رايته طامساً في ذاته هرباً من وحشة الآخرين. يبدو عليه انه موجود وغير موجود في آن واحد. ملامحه بلا هوية، يشبه الجميع ولا يشبه أحد في نفس الوقت. تنسى شكله حالما تلتفت إلى شخص اخر، يغيب تماماً وكأنه غير مخلوق أصلاً فورما يغادر إلى مكان اخر. لكن المفاجأة العويصة التي اذهلتني كانت في صوته. نطق وسمعت نبرته وهو يقول لي:

- إلبس نظارة طبية حتى لا تتلف عينك من النمنم.

انه بصمة صوتية نادرة وفريدة، صوته متهدج مكروب وفيه بحة من ظل يبكي منذ سقوطه من رحم أمه وحتى الآن، حتى هذه اللحظة حيث يقف امامي منزوياً خلف جبل الخجل.

تناوش سيد علي ما انجزته من فرز ألوان النمنم، وسجل في دفتر صغير اسمي وكمية الخرز. ودعوني واختفوا في الازقة الملتوية كأنها

مصارين القدر. مباشرة اختفى وتوارى شكل روضان. غاب وجهه كله وانمحى إلى الأبد. لكن صوته ظل يثقب اذني بنافورة من الصدى، ظلت نبرة صوته تمتطر علي وابل من مسامير الدمع.

رأيت لطخة خضراء كبيرة على قميص سيد علي حين استدار. والبارحة ثقبت جمرة سيجارة أحد الحشاشين بنطلوني في شارع (مولوي). لم أنتبه حتى لسعتني الجمرة. ماذا سأفعل بهذا المدمن، هل أطفيء سيجارته في عينه كما يفعل جلازوة الأمن في المعتقلات العراقية، هل اتركه يذهب وكأن شيئاً لم يكن، أم ارغمه على دفع ثمن البنطلون؟

والله حيل وياي، استاهل... لك أبلع الجمرة واكل خره واسكت... عفت أجمل شوارع طهران واجمل نسائها وجئت إلى هذي الخيسه ومتحف الجنون.. حيل وياي (اللي يجي من ايده الله ايزيده).. قلبي اللعين دائماً يورطني بهذه المشاوير المسخمة... قلبي يجرني من خشمي ويقودني إلى اماكن شقيقة وتوأم لأماكن في بغداد، ولأن نكهة شارع مولوي تشبه نكهة سوق هرج في الميدان في شارع الرشيد. اضيع ناسياً نفسي في مولوي الذي يتعوسج بالمدمنين على الحشيشة والترياق والمورفين والهيروين وكل انواع المخدرات. اتيه بين الأواني والقوارير التي انقرضت وولى عصرها، بين صحون ومواعين وملاعق فافون قذرة. اتعثر بمفروشات بالية متهرئة كانت تبسط عند مدخل قصور الجواري والغلمان، واثاث من كراسي وخزانات وطاولات جرباء، ومرايا مزنجرة صدئة عافها الامير داريوش حينما سقط بالضربة القاضية للحب. تهيم عيني بخردة حديد منخوب متهرئ على شكل أسلحة قديمة استخدمها رستم وسهراب في معركتهما الأخيرة التي دامت سبعة ايام بلياليها.

شارع مولوي يغص بنفائس نادرة وكنوز تشق طريقها إلى الزبالة.

شارع دائماً أرى فيه أنصاف بشر يخوضون في المجاري المكشوفة، ايديهم تبحث عن لقى ومدخرات مفقودة جرفها طمث (تجريش) المدينة اللعوب المتأنقة والمترفعة بأنفها الثلجي شمال طهران حيث يعيش أنصاف الالهة.

اضيع بشارع مولوي واصطدم بصعاليك يبيعون أي شيء وكل شيء من الابرة إلى صخور فضائية تساقطت من مجرة درب التبانة.

(٤)

مثل جميع اللاجئين العراقيين كنت اعيش على اوكسجين الرسائل، نشم فيها هواء السويد والدانمارك والمانيا وهولندا. لكن أكثر هذه الرسائل ملغومة بالمخدرات. مخدرات نحقن بها وريد اليأس من السفر بمورفين الوعود: بعد شهر تتكفل الامم المتحدة بمشاكل اللاجئين العراقيين وتوزعهم على اوروبا. بعد اسبوع تفتح السفارة السويدية في طهران ابوابها لطلب اللجوء. انتظر.. تحمل اسبوعين وستصل الدعوة (الطلبية) من سورية فتنجز بها معاملة الليزا باص (جواز لسفرة واحدة) من محطة دمشق تنطلق إلى استوكهولم. حاول باي طريقة الخروج إلى اية عاصمة غير طهران ومن هناك نتكفل بسفرك إلى كندا.

وهكذا صرنا من اشهر المدمنين على مخدرات الرسائل. لكن هذه المرة تدفقت علي موجة جديدة من رسائل صديقي (حقي) في السويد، تدفقت عكس تيار موجات رسائل بقية الاصدقاء المخدرة. يكتب حقي رسائله كأنها وصفة دواء طبية، يشخص أمراض الواقع بدقة أشعة إكس (X) لا يبالغ ويجعل من الحبة قبة ولا يقع في فخ عينيه ويرى السراب بحراً. وصف في رسائله الاولى ذهوله بشوارع ومحلات (استوكهولم) واهلها وكيف كان مأخوذاً بحضارة النظافة، بعدها بشهرين كتب لي: زالت الدهشة وحلت الوحشة، راح جلدي الشرق اوسطي يحكني من نظرات الاحتقار والامتعاض، نظرات تقول: أنت عالة علينا أنت طفيلي على

مجتمعنا وفعلاً نحن عالة وطفيليات، وجوهنا تحمل سمة من نجا تواً من أيدي أكلة لحوم البشر، وجوهنا ممزقة بالرعب، خائفة مخيفة، تحمل وسم حكامنا السفلة وقطيع الشعوب. تصور ياثامر: مرة كنت جالساً في حافلة وصعد شخص سويدي وراح يبحث عن مكان فارغ فلم يجد إلا مكاناً بقربي، نظر إليّ بقرف مفضلاً الوقوف على الجلوس بقربي وكأنني أجرب. هناك انقشع من عقلي وهم الجنة لا في الأرض ولا في السماء.

وبنفس الرسالة دس صديقي حقي ٥ (كرون) كتجربة ليبعث لي مئة دولار في الرسالة المقبلة، وهذه الايام اوان وصولها.

لبست بنطالي الكابوي الذي ورثته من صديق سافر إلى المانيا وانقطعت أخباره، وقميصاً أبيض مع قمصلتي الحليبية، القطعة الوحيدة المتبقية من ذخيرة بلادي. خرجت باتجاه شارع (الخيام) القريب من متنزه (بارك شهر) حيث يقع معمل أحذية الخيام، صاحبه عراقي مسفر منذ السبعينات، الذين طردتهم حكومة البعث بدعوى تبعية إيرانية، وتبعهم بتسفير آلاف العوائل في الثمانينات بنفس الحجة، لا يزال بعضهم في مخيم (خرم آباد) يرتدون ذات الملابس التي طردوهم بها من العراق، ملابس بالية، أسمال مرقعة مثل ضمير العصر واعلام دول الشرق الاوسط.

كنت أتسلم رسائلي من صاحب المعمل الذي عرفني به (حقي) قبل سفره للسويد. رايته واقفاً في باب المعمل يضع قوالب احذية على الأرض. لمحني من بعيد فمد يده في جيب قمصلته الجلدية الداخلي، اخرج عدة رسائل وهتف يصيح بصوت جذل: تعال تعال اربع زواجل. وكانت مفاجأة كبرى لي إذ لم استلم في حياتي كلها هذا العدد من الرسائل دفعة واحدة. شربت معه استكان شاي وخرجت متلهفاً لفتح الرسائل. ومن شدة صخب فرحتي نسيت وباء الفضول عند الإيرانيين، نسيت كيف

يتدخلون بالصغيرة والكبيرة وإذا اكتشفوا اني اجنبي يطوقوني بسياج اسئلة لا فرار منها، وإذا كنت احمل كيساً يطاردني اثنان أو ثلاثة من المارة وهم يتطلعون إلى الكيس من جميع الجهات حتى يعرفوا ما بداخله فينصرفون مرتاحين. وباء الفضول هذا لا ينجو منه سوى القليل منهم مع انه غير مؤذ ولا يخلف اثاراً جانبية الا الازعاج. جلست على دكة في شارع عمر الخيام ـ اعظم شاعر يحتل اصغر شارع في طهران ـ وفتحت مظروف رسالة (حقي) اولاً، لعلها تنقذني من جحيم طهران. كان فيها كارت (معايدة) مع ورقة زرقاء مطوية بعناية. بدأت أقرأ الورقة الزرقاء وإذا بظلام يتكاثف فوقي وحولي شيئاً فشيئاً على الرغم من سطوع الشمس والساعة لا تتعدى الثانية عشر ظهراً.

وجدت صعوبة في رؤية السطور وقراءتها. رفعت رأسي لأرى ما سر الظلام هذا فهل حدث كسوف كلي للشمس أم ماذا؟

انصعقت بعشرات الرؤوس التي سدت عليَّ الضوء. رؤوس مطلة تحدق بورقة الرسالة لمعرفة اللغة المكتوبة فيها، وهل يستطيعون قراءتها أم لا يستطيعون وربما عندهم غايات أخرى لا أعرف ما هي. صرخت متنفضاً بصوت انفجاري فتناثروا على جميع الجهات مستنكرين ومنزعجين من سلوكي الشائن غير المؤدب، توزعوا على الرصيف والشارع يهزون رؤوسهم وأيديهم من وقاحتي. ارجعت الورقة الزرقاء والكارت إلى المظروف واسرعت إلى غرفتي.

يوضح صديقي حقي في الرسالة: انه وضع المئة دولار داخل الكارت بعدما شقه إلى نصفين وحشرها بينهما ثم ألصقه.

سلمت بضاعة النمنم إلى صاحبها (سيد علي) قبل ان اتخبل من هذه الشغلة السيزيفية. وانطلقت لإكمال تزوير الجواز ومغامرة السفر به، وليكن ما يكون حتى لو ابتلعتني حوت النبي يونس.

(٥)

علمني مخيم (خرم آباد) المتواري خلف عمالقة الجبال على حيلة ذهبية لمقاومة مطرقة العزلة ومسامير الحنين. وكذلك مقاومة سرعة البكاء خاصة في الشوارع أثناء التيه في ذاكرة حياتي البغدادية فقد كنت أختل وألوذ في زاوية بعيدة عن الانظار حين تداهمني زخة بكاء مفاجأة، كنت أجهش وانخرط في دوامة دمع بدون سابق إنذار كأن جسدي تورم بتلال حنين تتفجر من أي لمسة ذكرى أوأي نسمة عطر للشوق مثل رائحة فوطة أمي المضمخة بالعنبر أو نكهة بيت يستيقظ توا من النوم ويغمرني صوت الاطفال أو أرى مجنونا يشبه أحد مجانين الميدان في شارع الرشيد.

تتلخص الحيلة الذهبية بتدخين سيجارة أخصصها لشخص واحد فقط، استحضره معي داخل ذاكرة حية. كما استطيع التوغل في أحد شوارع ومقاهي بغداد أو أي مكان له حضور يمس روحي. اسمي هذه السيجارة لشخص أو لمكان يلح علي ويظل يطرق ويدق باب قلبي عندها افتح صدري للدخان فأرى كل شيء يتدفق بالحياة والحنين.

لم أدرك حينها بأني كنت أنشط ذاكرتي وخيالي، وانشط قوة تركيزي مع دخان سيجارة واحدة فقط لكل شخص ولكل مكان أو حادثة.

أدخلت كل أنواع دخان السجائر في مختبر رئتي فاستقر بي الدخان على سيجارة (شيراز)لأنها تتناسب مع جيبي أكثر من سجائر (بهمن) و(آزادي) غالية الثمن، كما ان عمر سيجارة شيراز أطول من بقية الأنواع.

أشعلت واحدة فتشكل دخانها بصورة أبي وهو بملابس الجيش ورتبة العريف، لم أتذكره بغير هذه الملابس. قضى عمره غائبا عنا في مهمات غامضة علينا نحن أبناءه الصغار كأنها مهمات سماوية دهرية يبتكرها كبارالضباط في الحكومات المتعاقبة. وحين كبرنا عرفنا ان هذه المهمات أسخف من عبث حفر الخنادق ثم ردمها وطمها وإرجاعها كما كانت، بل حتى موته ظل بفخامة الغياب العبثي، ظل عبثيا حينما أخذوهم للاردن يدافعون عن فلسطين. لاأزال أسمع صوته يدوي في أرجاء قلبي هناك في غرفة الطين أسفل هامش كرادة مريم، حيث استقر بنا هناك بعد مشاوير تطواف ورحيل منهك، أينما ينقلوه ينقلنا معه وكنا نجوب البلاد من الشمال إلى الجنوب حتى تعب وخاف ان يحرمنا من المدارس. والآن أسمع صوته في قلبي مدويا: ـ كلهم سفلة أولاد كلب يبيعون ويشترون بنا ولكن ماذا نفعل بالأوامر العسكرية والعيشة.

بقي أبي من غير ان يتعرف علينا مثل بقية الآباء ونحن كذلك لم نتعرف عليه، حتى قبره لم نعرفه أين، كان قبره بعيداً بعيدا جدا ابعد مما يحتمله القلب. بقي مدفونا بالاردن وكأن القبر شاهد على عبث حياته وعبث موته أيضاً.

تورط أخي الكبير (عامر) بمسؤولية العائلة وهو في صف الثالث متوسط، هذه السيجارة نقشت على دخانها اسم (عامر) الذي صار هو المعيل لأن مرتب تقاعد أبينا لا يوصلنا لمنتصف الشهر. اشتغل في معمل بسكويت غسان أول مرة ثم يتنقل من شغل إلى شغل حتى استقر ببيع الاطارات المستعملة في مجمع مشن على طريق معسكر الرشيد. أنتقلنا إلى سكن في البياع قرب شارع عشرين بعدما تزوج وانجب صبيا أسماه (ليث) حتى انه ذهب لمكة يحج وهو لم يزل شابا وقويا فنسينا اسمه القديم (عامر) وصار الجميع يناديه الحجي أبو ليث.

أطفأت كل شيء في جسدي والغرفة وفي طهران والعالم وأشعلت سيجارة أمي. انطلق دخان كثيف على شكل كنغر وحين نفخت الدخان ظهرت أمي بعباءتها السوداء (كيس الكنغر) ونحن بداخلها: عامر اخي الكبير وأنا وفاخر أخي الصغير وهدية وحنان اختي الأصغر من فاخر. وكأن أمي لا تزال حامل بنا حيث نخرج من رحمها نلعب ونصخب، نتعارك ونضرب فنهرب راكضين نلوذ داخلين برحمها كيس الكنغر. وأنا ألوذ برائحة أمي من جيفة الواقع ومن صنان القدر. لفت أنتباهي تشابه الأمهات مثل تشابه التوائم في العاطفة والحنين والثياب وشراسة الذود عن الأبناء. رأيت أمي الآن في هذا الغروب حيث بدأت الشمس تطمس خلف البنايات العالية، رأيتها تمسد البساط بكفها ذهاباً وإياباً لا تكف ولا تهدأ كعادتها حين تريد تذكر شيء، وهي الآن تفكر بوجه يفلت ويزوغ من بين أصابع ذاكرتها، وجه غابت ملامحه وطمس طيفه وحضوره من عينيها. هاهي تستعيده شعرة شعرة، هدأت حركة كفها تدريجياً حتى توقفت فوق البساط وأشرق وجهها مبتسماً بدمعتين تدحرجت على خدي، لقد رأت وجهي تواً.

عامر (الحجي أبو ليث) أخذ دور أبي في الغياب وشحة وجوده بيننا. هذا الغياب فتح لي ولفاخر صداقة الأخوة الأعداء. وفاخر يكرر دائماً بوجهي عبارة: يا صديقي اللدود ويا عدوي الحميم. وأنا اسخر واستخف من براعته في قلب الجمل والعبارات وكنا نتبارى ونتسابق في شطط الخيال أثناء السوالف وقص الحكايات الخرافية المختلقة بلحظتها الآن توا بدون التحضير لها مسبقا وكانت أختي هدية وحنان تغصان وتدمع عيونهما من شدة الضحك. لكن (فاخر) يغافلني ويخرج من كيس الكنغر وأمي نائمة أو تتلمس وتداعب أوتار حزنها لتبدأ العزف المأتمي في حفلة العزاء المقامة والمنصوبة على شرف ميت جديد ينبش قبور جميع الموتى الذين سبقوه

والذين يتوافدون بالحضور والتقاطر من أول رشقة دمع وأهتزاز أوتار الحزن. في هذا النسيان المأتمي يتسلل (فاخر) إلى حلقة صبيان يحلمون بتغيير العالم من خلال زيادة عدد الركعات المستحبة وصلاة الليل وتعلم فقه السياسة.

والان لا أفوت سيجارة من دون غمس دخانها بوجه أخ أو صديق وقريب، أصبغ دخانها بشارع ومقهى وسوق حتى صار الدخان أخي وأبن عمي وصديقي، صار الدخان بيتي ووطني.

ذلك اليوم، يوم الاربعاء، وأنا في طريقي إلى شارع فردوسي لتسلم صوري من استوديو (آرام) لتزوير جواز سفر لي. رأيت أحد صعاليك مولوي فارشاً خرقة بيضاء في ميدان الـ (توب خونة)، يضع فوقها قطع حديد جديد لكنها شعثاء غير متساوية، وقد نضدها حسب الحجوم. سألته: ما هذه؟

أجاب بزهو من يعرض بضاعة اسطورية:

- صواريخ عراقية.

هززت يدي وتركته مدهوشا من سلوكي وحركة يدي. استغرب مني كيف استغربت منه. (ولك) طرن، يومياً تسقط على طهران صواريخ عراقية والشظايا في كل مكان. توزن بالاطنان لو جمعوها، فمن يشتري بضاعتك ايها الغبي؟ لا لا، ربما هذا الصعلوك يبيع تحف الخراب لعصور قادمة، حيث ستعرض في متحف (السلام النووي) الذي تقيمه عوانس المريخ بمناسبة الذكرى المئوية لانقراض فحول كوكب الأرض.

وصلت شارع فردوسي وأنا اغني بعبي، اغني بخرس لئلا يسمعني أحد وخاصة جلاوزة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اغني: يكولون غني بفرح/ وأنا الهموم اغناي/ بهيمة ازرعوني ومشوا/ وعزوا علي

الماي. . . . سكت فوراً وان لم يسمعني أحد. اسكتتني سطوة الموت وأنا أرى موكب تشييع ينطلق من مدخل مقر (البسيج). لولا وجود استوديو (آرام) في نهاية الشارع لكنت غيرت طريقي.

اقتربت مع المارة الفضوليين من الحشد الجنائزي الكبير. في مقدمته سيارة (بيكان) خضراء اللون، فوقها تابوت مغطى بقماش اسود منقوش عليه شعار (البسيج). وراء السيارة مباشرة صف رجال دين بعمائم ولحى سود وبيض يتصدرون حشد الرجال. وخلفهم النساء الغارقات حتى الهامة بالسواد. الجميع يمشي بخطوات مأتمية ويعيشون نكبة أليمة. على ملامحهم آثار مصاب عظيم وكرب. بعض الوجوه مبتلة بالدموع وهناك من يلطم على صدره أو يشبك يديه فوق رأسه. يبدو ان خسارة هذا الفقيد صاحب التابوت فادحة، ولا يمكن تعويضها. تخفق فوق الرؤوس رايات سود وخضر مع أصوات تكبيرات حانقة (لا اله الا الله)، تودع صاحب النعش إلى مثواه الأخير.

اخترقت صفوف الناس المتجمهرين يسار الشارع حتى وصلت إلى مقدمة الموكب برغم نظرات المسلحين المرتابة الذين يحرسون الموكب. تجاوزتهم وقرأت اللافتة السوداء المكتوب عليها باللغة العربية: الشهيد السعيد داود عبدالله سكران الذي اغتالته أيدي الضلالة والكفر عصابة العفالقة الصداميين فإنا لله وأنا إليه راجعون.

تذكرت الآن حزن وشحوب (مؤيد) حينما صادفته أمام مخبز الأعور صاحب أشهر أرغفة (البربري) اللذيذ. قال (مؤيد) وكأنه يتقيأ كبده:

ـ قبل ثلاثة ايام خسر الحزب الشيوعي العراقي اعظم كوادره. . . قتله عميل للمخابرات العراقية أمام سينما انقلاب.

تذكرت بالضبط كلمات (مؤيد) الشيوعي المخضرم وهو يصف القتيل

بلوعة من فقد أخا لا مثيل له، ويشعر بانتكاسة وفقدان يستحيل تعويضه وهو يقول:

- لم ينجب الحزب الشيوعي عقلاً أعظم من عقل. . . . . . .

آخ، اللعنة على ذاكرتي، نسيت اسم القتيل ولكنني حزنت معه وأصابني الغم. آخ لم اتذكر اسم القتيل الشيوعي وأنا امشي مخلفاً ورائي الموكب. هل اسمه سلمان، لا لا ربما دريد. . لا لا، لا يمكن اسمه داود ايضاً، نفس اسم صاحب هذا التابوت؟

دخلت استوديو (آرام) ونسيت الاسماء كلها إذ استحوذ علي التفكير باتقان التزوير، آخر تزوير في حياتي لكي أجعل جواز سفري افضل من الاصلي. لكن المطار، مطار (مهاباد) أنقلب كله على رأسي فوجدت نفسي في سجن (زندان قصر).

(٦)

ما كنت أعرف ان للجريمة موديلات مثل السيارات، تتطور حسب طراز ومزاج المجرم، وحسب نمط الضحية ونكهة العصر. موديلات ليست على غرار ان نقول: جريمة نوع (مارسيدس ٢٠٨) أو جريمة نوع (فولفو شاصي قلاب) ولا جريمة (مسكوفيج اشلع كَلبك) ولا جريمة (فوكس وايكن) الخنفساء. إنما الجريمة هي الوجه الآخر من قمر الفن، ولكن التشابه هنا في المدارس والمذاهب، جريمة كلاسيكية وجريمة رومانسية، وواقعية بشقيها واقعية اشتراكية واقعية برجوازية وجريمة سريالية. شكراً جزيلاً يامخيم (خرم آباد) الخرافي علمتني الكثير عن الادب والفن بتلك الكتب القليلة التي تهرأت من كثر القراءة، انمحت سطورها من جوع العيون وهي تعيد قراءتها مرات ومرات. يا (خرم آباد) كنت منعزلاً بنا خارج الدنيا، تشرق عليك الشمس بعد كل العالم وتغيب عنك قبل كل العالم. شكراً لك على حسنتك الوحيدة بتعليمي لذة القراءة، ولكنك فشلت يامخيم (خرم آباد) حين لم تجعلني عبقرياً لاضع جريمة قتل داود في موقعها الصحيح. فهي من جهة كلاسيكية لأن اداة الجريمة سكين، ولكونها سكينا بنابض تخرج وتدخل في المقبض مثل مخلب القط نسميها كلاسيكية حديثة. والجريمة من جهة أخرى رومانسية حيث الأشجار والطيور وبوستر فيلم (العقرب) يطل من واجهة سينما انقلاب، كما ان الجريمة واقعية بحذافيرها من حيث الدافع وشكل المشاجرة مع

لمسة من الواقعية الاشتراكية. والجريمة ايضاً سريالية: دودة في تفاحة روضان، طفلة مقلوعة الضرس، غراب يقصف كتف روضان، وشلال نمنم فوق جثة داود، الذي جاء قاتلاً فصار مقتولاً.

اين كانت مخبأة لي هذه المصيبة ومن المستحيل عليّ اهمالها أو نسيانها؟ أنا أخاف من خيالي وإذا بي ملقى وسط افتك المجرمين في سجن (زندان قصر) حيث التقيت بروضان للمرة الثانية. في اليوم الأول اخذني في جولة سياحية لمعرفة جغرافيا الزنازين، ثم اطلعني بموجز غير قصير عن جريمة كل قاتل ممن ينامون في زنزانتنا رأيتهم مختلفين في تقليعات (بوزاتهم) و(استايل) خاص لكل شكل يستحيل على أحد تقليده. في اليوم الثاني استفرد بي روضان بجو غائم مسود على وشك المطر. اجلسني على دكة قرب ملعب كرة الطائرة، وبدأ يحكي عن داود في مسلسل يومي على شكل حلقات لا رابط بينها حتى يوم خروجي من السجن. اذهلني بلغز داود وكيف ان كل معرفته وخبرته به لا تعدو قطرة من بحر حياته المتلاطم. (اني وين وهاي الورطة وين، يامصيبة المصيبة)، أي لعنة فرانكشتاينية وضعتني في كرش الجريمة. انا، أنا المتصالح مع الحياة مهما كانت فقيرة وبائسة، فقد كنت استمتع بجمال نساء طهران بصمت وخلسة واغني في عبي لـ (حضيري ابو عزيز وداخل حسن، وفيروز وعبدالحليم حافظ، والبيتلز وكات ستيفن وبنك فلويد). أنا والجريمة مثل البطنج والحية ولا ابالغ حين أقول اخاف من خيالي، فعندما اذهب إلى المراحيض في نهاية بيتنا تحت الدرج، اتخيل احدهم مترصداً لي خلف الباب، لذلك ارفع يدي اليسرى فوق رأسي اصد بها الضربة حال دخولي المراحيض. لم أرَ جريمة في حياتي وقعت أمام عيني سوى جرائم افلام السينما والتلفزيون. اخي الكبير (عامر) يشتغل قاطع تذاكر في سينما الخيام وبعدها بست سنوات راح يشتغل (مضوي) في سينما علاء الدين يرشد الداخلين

في ظلام السينما إلى كراسي فارغة. يأخذونني في الاعياد والعطل المدرسية إلى السينما، أرى الفيلم نفسه من الصباح إلى منتصف الليل. رضعنا من ثدي السينما وفطمونا على طعام الافلام، فاذا تمرض أحد منا لا نأخذه إلى الطبيب إنما إلى السينما حيث يرجع مشافى معافى بدواء سحر السينما. انصعقنا أنا وروضان من زخات مطر اسود، تركنا الدكة وملعب كرة الطائرة وهربنا مع بقية السجناء إلى الزنازين، تلطخ كل شيء في الخارج بسخام اسود. الحيطان، الأشجار، الأرض، الملابس المنشورة على الحبال واغصان الأشجار، التي هب إليها بعض السجناء يلملمونها، وعادوا لنا زنوجاً، لم يسمع أحد منا ما بثته نشرات الأخبار عن احتراق أحد المصانع الكيمياوية وانتشار غيمة هائلة من الدخان كنا مندهشين خائفين بأن يوم القيامة قد حل.

يقول روضان: لا امل لي في الخروج من السجن، الهروب مستحيل كما تعرف، وزوجة داود مشغول الصفحة تطالب بإعدامي وتصر على حضور لحظة الشنق لترى موتي أمام عينيها.

كنت اسمع روضان وكأني اقرأ كتاباً ممزقاً، كتاباً من لحم ودم يتكلم متلعثماً بالبراءة، براءة قاتل خارج كل طراز ونوع ونمط. عندما التقيته للمرة الثانية في سجن (زندان قصر) بالكاد عرفته وتذكرته. لكن بمرور الايام صار وكأنه صديقي منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة ثم نسيت اني قد تذكرته وعرفته حالما نطق باسم داود إذ تغير وجهه وانقلبت سحنته، تبدل وصار هو ليس هو أثناء توغله بشخصية داود، بث الروع في قلبي، وقف شعر رأسي واخذتني الرجفة من كلامه، في حين هو كلام مجرد كلام لا أكثر ولا اقل، فقلت مع نفسي: الله يساعدك روضان كيف تحملت وقاومت العيش معه سنتين في غرفة واحدة. ايقنت مباشرة بعد كلامه، والاصح بعدما تقيأ داود، أيقنت ان عصراً جديداً من الرعب قد بدأ تواً.

ارتجفت وحل بي نوع فريد من الهلع يشبه تململ وحش كان غافياً ومهملاً وهو الآن على وشك الاستيقاظ تمطى وتمغط، استيقظ الوحش تحت جلدي. وحش كلام هذا دمر بنيتي التحتية والفوقية. دمر براءتي وغدا كل شيء على الأرض مشبوهاً مشكوكاً فيه، كل شيء يلبس قناعاً وهويته مريبة مزورة، من النحلة والوردة والحائط والشجرة والناس خاصة الناس. اراهم ملثمين بوجه يبتسم بطيبة وبوداعة طفل. لكنني اتوقع في اية لحظة ان ينشق الوجه وينط منه وجه مصاص دماء، اتوقع رؤية انيابه من تكشيرة حلقه وتنعقف اظافره إلى مخالب.

تلطخت براءتي في النظر إلى الاشياء بعدما حكى روضان لي عن سطوة داود. ما من شيء اراه واسمعه والمسه لا يثير الشك والارباك وبالذات الشخص الطيب.

لا.. لا يخدعني قناع الطيبة التي لا حدود لها فهي قد تخفي سفاحاً يستدرجني إلى حتفي بألف نوع من التعذيب ومن لذة شرب دمي.

ياويلي من سذاجتي، كيف قضيت عمري أعمى. أرى الاشياء مثلما هي لا زايد ولا ناقص: أرى الحمال حمالا، والشرطي شرطيا، القطة قطة، الشجرة شجرة، الراديو راديو، القاتل قاتلا، والضحية ضحية.

تفتحت الآن عيوني وعقلي وحواسي على دنيا جديدة غير دنيا الامس بعد لقائي الثاني بروضان. احترق اليقين وماتت الثقة إلى الأبد، لا يوجد شيء اسمه الحقيقة بعد اليوم. لقد دمر داود عالمي البسيط المألوف الواضح وصار مخيفاً ملتبساً مزوراً، صار مريباً إلى حد الوحشة حتى مع وجهي.

ماذا حل بي هل أصابني مرض الوسواس، مرض الارتياب، وهل سيلازمني بقية عمري بدون شفاء ولا نسيان؟

تركت الجثة التي شيعتها ثلاث عواصم في يوم واحد، يوم الاربعاء، جثة داود عافت قاتلها روضان بين اللاحياة واللاموت. تركته يعيش بقية عمره يتنفس الهواء من رئة ميت، ينام روضان على فراش كابوس عودة داود من الموت: يرجع بوجه وجسد يتشكل من دود احمر بلون الدم، دود يسفي ويدب تحت بشرة وجهه وتحت جلده فينقض على روضان أمام سينما انقلاب قرب ميدان فردوسي في طهران. كابوس ينفرد به لوحده بلا جمهور وبدون مقاومة. يبدأ باستلال إحشائه واحدة تلو الأخرى. والقاتل روضان يبحلق مذهولاً لما يجري في جسده. لا يبحلق بعينيه وحدهما بل بجميع حواسه الفاغرة المفتوحة إلى أقصاها برعب عظيم. الكابوس يستل الاحشاء ببطء ولا مبالاة ضارية كأنه موظف إرشيف في قاع دائرة حكومية لا يتذكره أحد. وما ان يستل آخر حشية يفز القاتل المسكين فارغاً، يستيقظ خاوياً كصحراء يرن في جوفه المقفر ناقوس الغوث.

يستيقظ روضان ويستعيد أنفاسه التي يراها عالية جداً مثل ثمار الخلاص، حيث لا يستطيع ان ينوش الهواء بأنفه فيصعد إلى الشهيق بدرج ويتنفس. يسترد لون وجهه بعدما يطمئن إلى عودة احشائه، يبلل شفتيه بلسانه المتخشب الناشف، لسانه غدا مجرد تابوت يخفي جثة داود، لذلك يضطر إلى شرب الماء وابتلاع الجثة. وحالما تغادره آخر صور الكابوس ويتحسس عافية جسده يستشيط غضباً وحنقاً، يطلق كلمات طالما كررها امامي وأنا اذكره بشناعة جريمة القتل مهما تكن اسبابها، وكيف يتجرأ الإنسان على قتل نملة، فيصيح روضان مختنقاً بالجمر الذي يتطافر شراره من كلماته:

ـ إلا داود، الا داود فلو شق القبر وطلع سوف أقتله. كلما يطلع أقتله لو مئة مرة، لو ألف مرة، اقتله واقتله واقتله إلى يوم القيامة.

هامش دود رقم (١)

اختنقت من عزلة الخوف والنفي الاختياري في سخافة حماية نفسي من الموت في حين تتطاير الاشلاء يومياً بانفجارات السيارات المفخخة والعبوات الناسفة وقذائف الهاون. زهقت روحي من الوحدة الخانقة المفروضة، في أحيان كثيرة يكون الموت أهون من الخوف منه. هكذا تمردت على الخوف ومشتقاته وقلت لنفسي: أخرج قبل مجيء (ثامر) الذي يحشر أنفه بكل سطر من الفصل الذي كتبته أكل رأسي بكثرة تدخلاته في الرواية وأنا لم أكتب منها سوى فصل واحد، قبل أيام قال يصف الرواية: يمعود.. أنت تقول الحقيقة بلسان الوهم، وتجسد لنا الوهم بلسان الحقيقة، لذلك يتداخل الواقع بالخيال، ولا أحد سيعرف من أين يبدأ الخيال ومن أين تبدأ الحقيقة.

لبست بنطلوني السمل مع ال (تي شيرت) السمائي والقمصلة الزرقاء. أفكر: بأن للملابس دورا مهما وفعالا في خداع العيون والزواغ من المراقبة. دائماً وقت الخطر ألبس ما يشبه ملابس الملايين، ودائما أختار نفس الملابس التي انقذتني وحمتني من القتل والاعتقال والاختطاف. كنت أداوم على لبسها كل يوم حتى وان جرجفت من الوسخ والقذارة، حتى وان بادت وهزلت وهي تتمزق من هنا وهناك، لكنها في النهاية هي الدرع اللامرئي والحرز الرباني في بقائي على قيد الحياة إلى الآن. أختار هذا الطاقم من الملابس وكأنها طاقية أخفاء بحيث أذهب وأروح وأرجع بدون

خسائر وبدون ان يراني أحد أو يسألني أحد عن هويتي ومن أكون وماذا تفعل هنا وكيف وصلت ومن بعثك وهل أنت من بعيد أم قريب؟

نظرت إلى الشارع من وراء الباب كان خاليا يصوصي مثل مقبرة. خرجت إلى باب المعظم أمشي بين البيوت الهامدة الخامدة وكأنها فارغة مهجورة. كلما دنوت من باب المعظم يتكاثر الناس والسيارات والضجيج. تنفست بانشراح الذاهب لعيد، وحالما دخلت السوق كأني دخلت في العيد وقلت مع نفسي: يمكن صحيح (حشر مع الناس عيد) هو صحيح فقط بحالة مثل حالتي بعد عزلة طويلة وسجن انفرادي.

لم يدم طويلاً هذا العيد أذ سرعان ما اشتدت صليات الرصاص تئز فوق الرؤوس. فوراً هرب الناس وأقفل السوق تلاشت السيارات وانقطع الضجيج عدا رشقات الرصاص المتقطعة.

أخذتني أمواج الناس الهاربين إلى كراج صغير لتصليح سيارات (الكوستر) فوجدت قبلي خلقا كثيراً من الناس ينتظرون انقشاع المواجهات بين المجاهدين السفلة والحرس الوطني الممتدة من محلة الفضل إلى سوق وكراج باب المعظم. الجميع فز وطمس رأسه حين دوت رشقة رصاص بأذني وسمعت صفيرانشقاق الهواء، أعقبه تبادل إطلاق نار كثيف وصل قريبا جدا منا فانكمشت مع الناس إلى داخل الكراج وفجأة سقط شخص ملثم عند باب الكراج. سقط وهو ينزف من صدره وظهره. انه أحد السفلة أصابته رصاصات الحرس الوطني وظل ساقطا لم يستطع مواصلة الهروب. اقتربنا منه وهو بأخر نفس بعدما أخذه النزيف. الدم يتدفق من ثلاثة ثقوب في صدره، وإذا بصياح مرعب انطلق من أحد الواقفين بقربي: يا رب استر يا الله يالله سترك هذا مو دم هذا دود... يا جماعة هذا دود أحمر مو دم.

لا أدري هل بحلقت واتسعت عيوني على آخرها وأنا أرى نزيف الدودالاحمر اللاصف، دود يسبح مع الدم الفوار من الثقوب الثلاثة، أم ان هلوسة نظر سيطرت علينا وجعلتنا نرى الدم دودا. لم أر ردود أفعال الناس المتجمهرين حول جثة المجاهدلأنني دخلت مباشرة من فرحة العيد إلى صدمة الدود، ولم أفق من الصدمة حتى بعد مجيء سيارة الحرس الوطني الذي حملوا الجثة ومضوا.

أشتريت (تكه) سجائر (غمدان) ورجعت إلى البيت مشيا مثلما جئت يفترسني تفكير وحشي وتنهشني مخالب أسئلة باشطة حتى سمعت صوت تفكيري تردده أصداء البيوت الهامدة: هل ما رأيته وهما. . . لا وألف لا، ربما أكذب أذني وخشمي ويدي وجلدي ولكن كيف أكذب عيني لا وألف لا، لقد رأيت الدود كما وصفه (ثامر) في أوراقه وروضان في رسائله. عجيب كيف لا يفطن إليه أحد إلا المتفرس اليقظ فلولا صيحة ذاك الرجل (يا رب أستر) لما لاحظت الدود ولا ميزته عن نزيف الدم. لقد رأيت توا كابوس (ثامر وروضان) في جثة المجاهد. إذن لم يكن وهما ولا خيالا. وها أنا أسقط في هوة التفكير بالدود: هل يأتي الدود من خارج الجسد فيتغلغل إلى الداخل أم انه ينبع من جوف الجسد وأحشائه، أم ان بيوض الدود تنتقل من شخص إلى آخر على شكل عدوى مثل الدود الشريطي في الامعاء ودود المستقيم ودودة الوحيدة؟ هل يمكن علاجه وهل يوجد دواء لمثل وباء كهذا؟؟

تجاوزت البيت وخرجت من حي الوزيرية إلى حي القاهرة حيث كنت أمشي نائما مثل المتسرنم بعدما أخذتني سنة من الدود:

ـ هل الدود هو الدم نفسه لكنه تدود، أصابه مرض الدود؟ وهل الدود تحت الجلد فقط أم هو داخل اللحم والعظم؟ هل توجد علامة فارقة أو

أعراض تفضح المريض بالدود غير انبثاقه مع الدم، وهل يمكن معرفة مرضى الدود من لون البشرة، من سحنات الوجوه، من اشارة أو علامة في العيون في الشفاه في الانف، أو علامات في أطراف الاصابع أو تصدر منه رائحة خاصة يفرزها جسد المدودين؟

من هم هؤلاء المدودون أو الدودكية أو حملة الدود، وكيف نميزهم من غيرهم من الاصحاء؟

أيييه يا اسكندر. . . . هذا ما كان ينقصنا.



الفصل الثالث

روضـــان



(١)

فاتتني صلاة الصبح بسبب هذا النذل داود. قضيت الليل كله أفكر به وأقلب تهديداته على كل الوجوه. تهديدات صارت شبه يومية يحذرني فيها من فلتات اللسان، وتشويه سمعته التي يقدسها كل من يعرفه.

فاتتني الصلاة برغم الحلم الغريب بثامر، ثامر الذي بالكاد اعرفه أثناء ذاك اللقاء السريع حين اخذني سيد علي إلى غرفته.

ظل ثامر يندهني ويهزني في الحلم ويصيح باسمي:

ـ روضان.. روضان.. مطرت نمنم.

سبحانك ياالهي، أي امتحان رهيب ورطتني به وكيف سأخرج من غابة الرعب هذي؟ ورطة النبي ايوب أهون من ورطتي بداود، هل هو فعلاً بشر؟ هل حبل الشيطان بداود ورضعته العفاريت، ثم ترعرع بأحضان افتك اساتذة الشر؟ هل أنا نبي لكي تختبرني بهذا الامتحان الكارثة؟ لماذا ياالهي ابقيتني حياً حتى مجيء داود؟ الموت سعادة فوز انتصار خلاص.

النذل تسلل إلى دمي واستعمر قلبي وعقلي بسحر كلامه وافكاره وعواطفه، جعلني خادمه بكامل ارادتي وحريتي وكأنني اخدم الانبياء والائمة والقديسين المجتمعين كلهم في شخصه. النذل كان يغوص في جرحي، يهيجه ويطامنه بذات الوقت حين يبدأ بكلام غامض، يتكشف غموضه خطوة خطوة مزيلاً قشور افكاره، ويتعرى الوضوح سافراً

يحتضنني بقين حب عاصف حتى أدوخ، واسكر بطريقة واسلوب كلامه وهو يترسخ في اعماقي، فاسلم له قلبي وعقلي، يقول:

- اخي روضان، هناك عدة اشخاص يديرون العالم بطريقة فذة الخبث؛ يقلدون آلهة الاغريق في لعبة المصائر ولكنهم بلا اسماء وغير خرافيين مثل الالهة: زيوس وأثنا وبوزيدون. اشخاص لا يعلنون عن وجودهم ولا هوياتهم، يعملون بخفاء وسرية كما يعمل العقل بادارة شؤون الجسد.

انهم يقلدون الله في السيطرة على الكون، ولكن بلا حب ولا رحمة ولا جمال. تصور ان اميركا والاتحاد السوفيتي خدمٌ لهم، ينفذون اوامرهم حرفياً وبتقنية عالية. هم اشخاص يتمتعون بعبقرية الشر وفن التحكم والبطش، لهم عاطفة مثل عاطفة المعادن. يقسمون البشر إلى اصناف من الخدم، خدم بمراتب ودرجات حسب النوع والاهمية. تصور ياروضان، يجعلونهم خدماً بدون ان يشعروا انهم خدم، بل يوحون إليهم انهم احرار في اختيار نمط حياتهم واسلوب عيشهم وموتهم، يرونه مناسباً في تدبير دنياهم.

مثلاً: أنا أريد أن أنتحر هذه اللحظة، إذ لا يعلم أحد بقراري سوى الله، فلم يخطر على بالي ولن اكتشف انهم هم من دفعني للانتحار، ولن أعرف مطلقاً انهم قتلوني بيدي.

أخي روضان، هل حدست أو تخيلت يوماً ان فوهة مسدس لا مرئي مصوبة دوماً إلى صدغك؟ هل فكرت يوماً باليد الخفية التي تمسك قبضة المسدس؟ أنا اكتشفتها وعرفت صاحب اليد، وعن قريب سوف اصل إليهم هؤلاء الالهة واجلس معهم، ثم ابدأ بتصفيتهم وقتلهم واحداً تلو الآخر، واخلص العالم وانقذه من شرهم فتتنفس البشرية هواء الحرية لاول مرة.

لكن النذل داود بعدما فضحت أمره بالدليل الحي، دليل من لحم ودم نسف أسطورته ظلّ قلبي مقفلاً على صورته الناصعة ولم يتطرق الشك إليه من خلال شهادات وإرشادات بسلوكه الشهم على لسان اصدقاء اعرفهم واخرين لا اعرفهم، فقبل سنتين حاول أحد اللاجئين الهرب من مخيم (كرج) وامسك به الحرس وهو يعبر من بين الاسلاك الشائكة، هموا بضربه لولا تدخل داود الذي منعهم مخاطراً بنفسه في اتهامه كشريك له في الهروب. لقد اعجبتني شخصيته وتسلل إلى قلبي، كما انه يمتلك عبقرية استحواذية في نيل الاحترام والحب والإعجاب، عنده لسان سحري يطوي به العالم تحت إبطه، لسان له سطوة غير سليط ولم تكن اللباقة سوى خلية واحدة فقط في هذا اللسان. داود عنده قابلية لغة كيمياوية في تحويل الخسيس إلى قديس وبالعكس بدون ان يثير الريبة والظن، عنده عجينة لغة تبهر السامعين كما انه يجيد خمس لغات: العربية والكردية والفارسية والانكليزية والاوردية. لذلك لمع نجمه بسرعة وصعد في سماء اللاجئين العراقيين خاصة أثناء الإضراب الكبير في مخيم (كرج) الذي اندلع لسوء المعاملة وعدم السماح لهم بالسفر خارج إيران، حيث يصفه الجميع بأنه كان حريصاً مخلصاً ويدافع عن حق الإضراب على الرغم من نجاته من الاعتقال مع ال (٥٤) لاجئاً وزجهم في سجن ايفين، وهذا أمر عصي على الفهم، لأنه من أول المرشحين للاعتقال. لا أعرف بالضبط لماذا اختارني صديقاً حميماً له، ربما لشدة صمتي وسذاجتي، ومع شدة قربي وملازمتي له لم يطلعني ولا مرة واحدة على أي سر من أسراره، وعلى مشوار واحد من مشاويره الكثيرة، والتي غالباً تكون خارج إيران، حيث يغيب فترة طويلة. نال داود سمعة منيعة على الطعن فهو دائماً يهب لمساعدة الآخرين في أي وقت وفي أي مكان ومهما بدا نوع المساعدة خطيراً أو باهض الثمن، ولكن ليس بعيداً ولا خارج الأضواء لنشر سمعته الناصعة البياض،

التي تبدو طبيعية وبدون تدبير وتخطيط مسبق. داود عجيب ومذهل في حذره ورهافة دقته وكيف لا يترك وراءه ثغرة شك مهما كانت صغيرة، وكيف يمسح بصمات الريبة وظن السوء في أي فعل وخطوة، انه يحصن نفسه بل يتفحص ويراقب هذا التحصين؛ كأن وراءه فريقا محترفا من الاختصاصيين يزينون شخصيته باجمل مظهر وسمعة ويحسبون الف حساب لادق التفاصيل التافهة، ففي أحد تلك الايام وصل اعجابي به حد العبودية والتلهف لخدمته غير عابئ بشخصيتي وكرامتي، إنما لتأكيد تلك الكرامة واحترام شخصيتي، في تلك الايام وصل بي الأمر إلى غسل جواربه وملابسه، فيها اكتشفت ثلاث بقع دم في ذيل بنطلونه الكاوبوي، وفي الليل اراني ساقه اليمنى ملفوفة بشاش طبي وهو يقول: صدمتني دراجة بخارية.

وهذا أمر ما كنت اكلف نفسي عناء السؤال عنه حينها لشدة تفاهته، ولأن قلبي مقفل على صورته الناصعة في حين كان بنطلونه كان مثقوباً ولم يتمزق من صدمة الدراجة ثم ان بقع الدم كانت في كمه الايسر وليس في ساقه اليمنى المشدودة. تذكرتها في ما بعد حين صحوت من عمى عيوني وعماء قلبي.

لم يخطر في بالي عشق داود للنقود وحبه للمال وكيف كان يجمعه بطرق خفية غير مشبوهة ولكني اكتشفت بعد ذلك أنها ليست نظيفة. مرة عثرت على مبلغ كبير في جيب قميصه قبل غسله: مئات الدولارات والتومانات والدنانير مع عملات أخرى لم اعرفها، سلمتها له بدون ان يرف لي جفن شك، بعدها جاء أحد اللاجئين العراقيين يسأل عنه فقلت له انه غير موجود وأنا اقوم بالخدمة إذا احتاج الأمر فأنا صديق داود، تردد اللاجئ في بداية الأمر ثم قال ان داود اشترى له تأشيرة دخول (فيزا) إلى المانيا الشرقية وامسكوا به في المطار لأن (الفيزا) مزورة وسجن على اثرها

ثلاثة اشهر، وهو الآن يريد الحصول على (فيزا) غير مزورة. طبعاً لم اصدق ولن يصدقه أي واحد يعرف داود فشخصيته بمنأى عن الطعن والشك في نزاهته حتى جاء يوم الصدمة الكبرى، صدمة الدليل القاصم والدامغ، دليل من لحم ودم: دخل إلى الغرفة (جمال) ابن اختي فور خروج داود. عانقته واحتضنته بدموع الحيرة والفرح، سمرتني اسئلة كثيرة: كيف استطاع الهرب من العراق وباي طريقة عبر الحدود، وكيف عرف مكاني هنا وكم يوم مضى عليه في إيران مع اسئلة لا تعد ولا تحصى. لكنه اغلق عليّ جميع ابواب الاسئلة وشعرت بأنه يرتجف أثناء عناقي له وداهمني هو بالسؤال الواحد الاحد: هل تعرف هذا الشخص الذي خرج تواً من الغرفة؟ اجبته بذهول: طبعاً هو صديقي داود. فانفجر (جمال) بصوت مخنوق مكتوم: هذا المجرم السافل صديقك.

فتح ابن اختي باب جهنم من بين شفتيه وراح يحكي كيف ان داود يطرق عليهم باب البيت بين آونة واخرى، يهددهم بالوشاية عن خالهم (روضان) الهارب إلى جهة العدو (إيران) وكيف كان يبتزهم مقابل صمته، وبيت اختي يرفضون ويقولون انهم لا يعرفون احداً بأسم روضان. وعلى ما يبدو انه فعل قذارات الابتزاز مع الكثير من عوائل الهاربين إلى إيران لأن (جمال) سمع اختفاء بعض العوائل ممن فر ابناؤهم خارج العراق، وسمع ان بعض العوائل دفعت النقود خوفاً من الوشاية. النذل داود يعرف اني بلا عائلة ولا اقارب سوى أختي (مناهل) وزوجها وابنائها فهم عائلتي الوحيدة، وعرف داود عنوانهم من سياقات احاديثنا التي لا تشوبها ذرة شك واحدة. النذل يعرف كيف يخرج الابرة من قش الكلام وهكذا فعل مع بقية اللاجئين وبنفس الطريقة اكتشف عناوين كثيرة، دمر فيها عوائل كثيرة وحصل بها على اموال كثيرة، داود كما يبدو أحد اهم رجال المخابرات العراقية.

كم كنت أرعن أحمق ومتهورا وطائشا حينما فضحته مباشرة، كشفته عارياً أمام نفسه، كم كنت متسرعاً وعجولاً بهتك سره امامه وجهاً لوجه. انقلب داود الرصين القديس فجأة إلى مخلوق غير آدمي يتلظى بالشر والعهر والنذالة فقال جملة صعقتني ختم بها عاصفة سمومه، وبعد فوات الاوان فتحت عيوني على هول خطورته، قال:

ـ إذا كانت الدنيا عاهرة فأنا قوادها.

كنت ساذجاً بشكل مخيف والا كيف انطلى عليّ سم هذا العسل. وفي غمرة ذهولي في يوم الصدمة قال (جمال) يودعني وهو يرتجف بأنه سيهرب إلى باكستان قائلاً: البلاد التي فيها داود صديقك لن ابقى فيها حتى لو كانت الفردوس.

(٢)

قبل أن أفقد ديني وأفقد الله ونفسي يجب أن اختفي من دنيا داود، عليّ ان اتحاشاه ولو ظاهرياً وانسحب خطوة خطوة من طريقه، ثم الابتعاد نهائياً حتى ينساني وانساه. آنذاك ابدأ بمطاردته من بعيد لفضحه.

اذهب اولاً إلى (سيد علي) وأسلمه النمنم فقد انجزت (١٠٠٠) خرزة ليدفع لي أجري، أنا مفلس ولم يبق من الطعام سوى هذه التفاحة. تناوشتها ومسحتها بقميصي حتى التمعت شهية فقضمتها... تفوووه.. تف.. تف، بصقت القضمة فوراً وبصقت لعابي وتمنيت ان ابصق حتى اسناني، وأنا أرى دودة حمراء مقززة في قلب التفاحة وهي تتحرك وتتمطى للخارج. قذفت التفاحة فاصطدمت بالجدار والدودة لم تقع من جوفها، التقطتها بسرعة والقيتها في كيس الزبالة ثم مسحت فمي بكفي. كنست بخرقة وسخة ما بصقته على الأرض وأنا اردد مع نفسي: فأل سيىء، فأل سيىء حين يستقبلني الصباح بدودة، الله اكبر، تفاحة شهية خلابة لا مثقوبة ولا مخدوشة، من اين دخلت الدودة في بطنها؟

تذكرت المثل العراقي: من فوك هلا هلا ومن جوه يعلم الله.

بحثت عما تبقى من عشاء البارحة فوجدت كسرة خبز بربري، مضغتها مع استكان شاي عتيق وبارد، لا مزاج لي ولا وقت عندي لتسخينه. ترددت في لبس القمصلة الثخينة ذات اللون العسكري، قد ترتفع الحرارة عند الظهر واتضايق بحملها اتناقلها من يد إلى يد.

نزلت بايات الدرج الثلاث أمام باب العمارة إلى الشارع، صادفت طفلة عراقية من تلك العوائل الكثيرة والمتحاشكة ساكني العمارة، الذين حالفهم الحظ فوجدوا من يكفلهم وينقذهم من ذل وجحيم المخيمات بعد طردهم ورميهم على الحدود الإيرانية حفاة بلا حقائب ولا مال ولا اوراق ثبوتية. لكل عائلة نكبة تنفرد بها ولا تشبه نكبات بقية العوائل، لكل عائلة قصة تهجير ونهب خاصة تحولت بمرور الايام إلى غصة. لكن اغربها قصة البنت (ليلى) التي هجروها وحدها حين كان عمرها أحد عشر عاماً ولا تعرف أي شيء عن مصير اهلها، تبنتها إحدى العوائل في مخيم (جهرم) التي فقدت صبياً بعمرها حينما سفروهم من مدينة الكوت. وجاؤوا بها إلى هذه العمارة بعدما كفلهم رجل إيراني سمع بالقصة. ماتت ليلى بحمى مالطة قبل اربعة اشهر بنفس اليوم الفاصل الذي كشفت فيه سر داود.

صادفت الطفلة وهي تمسك شيئاً ناعماً في اصابعها، سألتها:

ـ شنو هذا؟ قالت:

ـ طاح سني.

وارتني المكان الفارغ الدامي في لثتها. من لهجتها خمنت انها من مدينة جنوبية.

قلت لها:

ـ اشمريه بعين الشمس حتى ينبت بمكانه سن ليلو.

تركتها وانعطفت إلى الشارع العام فرايت داود مع شخصين لا اعرفهما. كانوا واقفين أمام سينما (انقلاب).

ينتظرونني على ما يبدو. خفق قلبي واعتقد ان وجهي تلون. اغصان الأشجار تهتز وترتعش اوراقها، وخبصة طيور لا أعرف مصدرها؛ حتى ان غراباً قصفني ومس كتفي.

خففت مشيتي وترددت بين الاستدارة والرجوع إلى العمارة، أمثل خادعاً من يراقبني وأبحث في جيوبي كأنني نسيت شيئاً، قد ينطلي هذا التمثيل على غيري ولكن أنا ماذا أقول لنفسي؟ ومتردداً في مواصلة السير بخطواتي للامام باتزان ولا مبالاة، رحت اوبخ نفسي على ايقاع قلق التردد: هل جبنت ياروضان من هذا النذل، من يكون هو حتى تتراجع بخزي وعار؟ لا والله، تقدم ياروضان، امشي بهدوء ولا تنسى ان الله معك. ولكن هل اسكت له إذا تجاوز وضربني؟ اقتربت منهم فاعترضني داود مشتعل العينين وينفث من حلقه شرار كلمات تلسع وجهي وهو يقول:

ـ كم نصحتك ان تكف عني ولا تنبش تراب خطواتي.. كم مرة حذرتك من التحرش بي وتلطيخ سمعتي.. كم مرة كم مرة ياغبي ياارعن. من هو اللعين الذي دس السم في اذنيك فانقلبت عليّ من اخ ودود إلى عدو لدود؟ طهران صارت اضيق من خرم الابرة ولا تتحملنا نحن الاثنين.. أما أنا أموت أو انت. قذر تريد نسف كل ما بنيت بسخافاتك. هيهات.. هيهات.

وقفت بمكاني اغلي ولم يخرج مني حرف واحد، كنت اتوقع مئة في المئة ان داود لا يتجرأ على العراك لأنه شجاع كلمات، سوف يتقيؤها على رأسي ويمضي كل منا في طريقه. ربما هذا الأمر هو الذي اسكتني ولم اجبه بحرف واحد. لكن الشخصين تحركا وانقضا عليّ. وبدأ الجر والعر حتى طوقوني وامسكوا بيدي إلى الخلف فاستل داود سكين (ام الياي) من جيب بنطاله. ضغط على النابض بحركة خاطفة وانبثق النصل من قبضة السكين.

لولا ان الله سبحانه وتعالى لا يريد لقدره ان يتحقق لابتكر آلاف

العوارض التي تحول دون وقوع القدر: لجعل الدنيا تمطر، لحدث حريق في العمارة، لأصابني مرض انفلاونزا حاد ولم اغادر الفراش، آلاف العوارض المتوقعة أو اللامتوقعة بل لدفع الناس والمارة ان يهبوا ويحجزوا بيننا ويفضوا النزاع برغم يأسي من الإيرانيين ان يفعلوها ويتدخلوا، فضولهم الاسطوري يجبرهم على حشر انوفهم والتدخل في كل الاشياء الا العراك (انا غاسل ايدي منهم لحد العكس) لو ان الله لا يريد ان تقع الفأس بالرأس لمرت سيارة شرطة أو سيارة (كوميته) سيارة سباه (الحرس الثوري)، وما اكثرها وهي تجول الشوارع ليل نهار، لماذا اختفت خلال هذه الدقائق وكأن عزرائيل منعهم من المرور ونفخ على الناس فتسمروا جامدين من الرعب، هل عزرائيل هو من يدير حلبة الصراع؟

لم اسمع صوتا ولا همهمات صدرت نحونا. لم ارَ جفنا يرمش ولا يداً تومئ إلينا: ثلاثة رجال مع سلاح ضد واحد أعزل. أي ميزان عدالة أخرق؟ تقدم داود نحوي والسكين بكفه اليمنى تحوص، لكن الله العلي القدير ازل قدمه وتزحلق ساقطاً فوق خليط عجيب من قشور حب عين الشمس، واوراق الأشجار، واغلفة نساتل وعلب سجائر فارغة وسيفون قناني (زمزم). خليط احتفالي من الزبالة؛ الغريب انه لم يكنس مثل باقي شوارع وارصفة طهران. وإذ سقط داود تملصت من أحد الشخصين ورفسته في خاصرته، رفسة غريق باخر نفس فركع إلى الأرض ممسكاً كليته. ثم تملصت من الآخر بعضة اطبقت فيها اسناني على زنده وانتزعت اللحم حتى عاط من شدة الوجع، يسب ويشتم بزعيق غير مفهوم بعدما أفلت من يدي وراح يبحث في الأرض عن أي شيء ليضربني به. وحالما هم داود بالنهوض وهو على وشك الوقوف تزحلق مرة أخرى وجلس فوق المزبلة المنقذة. هجمت عليه وأمسكت بقبضته ذات السكين وتناوشت شعر رأسه بكفي اليسرى. رحنا نتدحرج على الأرض الوسخة من مكان

لمكان وداود يضرب بيده اليسرى على صدري. السكين اتخيلها ترتفع مرة وتنخفض مرة، واتخيل عيون اهل السماوات واهل الأرض متعلقة بالسكين، مشدودة إليها بخيوط المنية.

في تلك اللحظات شعرت ان بخار دمي قد ملأ رأسي بغيوم سدت عيني وطمت اذني فلا أرى ولا اسمع حيث اللهاث الشاغب الفوار من حلق داود ومن فمي، لا اسمع الشهقات الحارقة من احتكاك تلاحمنا العاصف. وبلحظة خارقة مثل لحظات الكشف والرؤيا أو ومضات الاحلام والكوابيس: رأيت السكين نابتة في صدر داود، وقد تناثرت على طول جسده مئات الخرز الملونة من النمنم. كيف ومتى صارت السكين في صدره؟ لا أدري لأن غيوم بخار الدم عزلتني كلياً عما يحدث. فجأة وجدت نفسي وحيداً على سطح الأرض أركض، يطاردني هدير خواء وغياب العالم. أركض في البرية المقفرة منذ آلاف السنين لوحدي.

لا أدري هل كنت أركض بين زحمة المارة على الرصيف أم وسط ازدحام السيارات؟ هل كان الرصيف خالياً أم ان الشوارع ابتلعت جميع السيارات وافرغت اسفلتها لاستقبال خطواتي؟ هل اختارني القدر لاكون اشهر راكض في براري الفراغ المطلق؟

أركض مثل الأعمى لا اصطدم بشيء، في حين يطم بخار الدم عيني وعقلي وقلبي، أركض وصورة النمنم الملون يسيل على وجه داود ورقبته وقميصه وبنطاله، كأنما فعلاً مطرت الدنيا عليه لوحده نمنما.

كنت بلا وعي ولا أعبأ بالفراغ القاحل حولي حتى امسك بي جسدي واوقفني مثل من يقول: (هذا حدي واياك) إلى هنا وكفى فلم اعد احتمل، حتى الهواء يهرب من مناخري ولا اقدر ان أسترد انفاسي، كفى لقد دمرتني تماماً.

وفعلاً توقفت وأنا بآخر نفسي، بالكاد مشيت به عدة خطوات وانهار جسدي في موقف الباصات. ترنحت جالساً فوق المصطبة.

صدري يرتفع ويرتفع حتى ظننت انه سيمزق قميصي ثم ينخسف إلى حد الالتصاق بظهري. تطلعت حولي بعيون سكران فرأيت على يميني كشك لبيع الورد.

عجيب امري، عجيب أمري.. أنا أعرف الآن أن عقلي قد أغلق أبوابه وأسدل ستائره على جميع نوافذه وخر نائماً مثل الميت، لا يصحو ولا يفز حتى على أصوات المدافع. لكنه سلم قيادته للروح، الروح التي ادخلت كياني في اقصى درجات الإنذار. وهنا أنا حزرت المكان واين وصلت، عرفت ان كشك الورد قريباً من بارك (لاله) ولو دخلت إلى البارك لضعت ولن يراقبني أحد.

تنفست بعمق وادخرت كمية كبيرة من الهواء ونهضت صوب البارك. لا أدري من أي ثقب في ذاكرتي نطت إلى ذهني العجوز (وردة) أم رحمن. ربما بسبب حالة جسدي المخجلة التي اخزتني أمام نفسي. عكس جسد العجوز التي سوت معجزة تجلت تحت عيوننا المبحلقة من الدهشة، وهي تنقذ رحمن ابنها من موت محقق عندما سقطت عليه السيارة وهو تحتها لا يبين من جسمه سوى قدميه، كان يصلح عطلاً في جوف السيارة بعدما رفعها بوساطة رافعة صغيرة (جك). لكن هذا (الجك) فشل (فكَس) بصوت انخراط للاسفل، وبذات الوقت لسقوط السيارة فوق ابنها انطلقت العجوز مثل الرصاصة ورفعتها بيديها الواهنتين حتى خرج رحمن من تحت السيارة. وصارت العجوز (وردة) مضرب الامثال في ولادة المعجزة، وفي القوة الخارقة غير المتوقعة، و(الحجارة الما تعجبك تفشخك) و(اطلب من الميت حيل) والنملة التي هدت جبلاً.

لا أدري بالضبط لماذا نطت هذه الحادثة إلى ذاكرتي الان: هل هو جسدي الخائر الذي خانني أم كشك الورد؟

جلست تحت شجرة زعرور احمر في زاوية قصية من البارك إلى يمين البحيرة الوسطية في جوف غابة من الأشجار.

وجدت قميصي ملتصقاً بجلدي من غزارة العرق، وبالي مشوش يأخذني سؤال ويرجعني سؤال: هل تركت داود جثة على الرصيف أمام سينما انقلاب أم نقلوه إلى المستشفى وهو لا يزال حياً؟ اين ذهب الشخصان صديقا داود، هل هربا أم نقلاه إلى المستشفى؟ زين، اين أذهب أنا الخارج من فطر الأرض (الگاع) لا ماما ولا دادا؟ يتيم مطلق، يتيم بلا اب ولا أم لا اخوة ولا وطن ولا حتى منفى، اين اذهب؟

مفلس ولا امل ولا موعد في نقود تجيئني في الرسائل ولا عبر الحدود بل حتى اجرة النمنم ضاعت فوق جسد داود، اين اذهب؟

انحشر هذا السؤال (أين أذهب) في حنجرتي مثل عظم السمك القاتل الذي نسميه عظم (الريس)، تشكل من علامة الاستفهام (؟) في بلعومي وغصصت به لا يخرج ولا يدخل، وصاغ العراقيون حول هذا العظم الخطر امثالاً ونكات كثيرة تتعلق معظمها بان: العراق غص بعظم الريس.

لم أشعر بالجوع على الرغم من خواء معدتي ومصاريني التي تتعارك على لقمة دسمة بالوهم، فأنا لم آكل شيئاً منذ كسرة الخبز والشاي البائت. تذكرت التفاحة الخلابة والدودة تتمطى في قلبها. وندمت كثيراً لتركي القمصلة الثخينة فالجو بدأ يبرد والشمس على وشك الغروب وأنا اغص بعظم سؤال (أين اذهب). تحسرت على نقود النمنم التي كان سيد علي سيدفعها لي. . . انتفضت دامغاً جبيني براحة يدي:

ـ شلون نسيت سيد علي، شكراً ياالهي أنت ذكرتني، الهي أنت دليلي.

طبعاً كنت اتهرب وازوغ من تذكر داود واحداث معركة اليوم لاني اخاف ان ينفجر رأسي. نظرت حولي بافتعال التثاؤب واللامبالاة لأرى هل أنا مراقب.

نهضت خارجاً من (بارك لاله) واندسست بين الناس، الذين اتخيلهم مثل دخان يمشي في الشوارع حيث اضيع بهم ويضيعون هم في دخان اليأس، احمل جنين امل صوب بيت سيد علي، فهو الروزونة الوحيدة التي اطل منها لعلي اعثر واجد شبراً واحداً من كوكب الأرض أقف عليه وانطلق منه. كنت أرى الناس جروحاً مفتوحة على مصارعيها يتصاعد منها الدخان، وأنا جرح ملتهب انسل مع دخان قافلة البشرية وهي تنفث يأساً لا سبيل إلى اندمال الجرح وانقشاع الدخان. اتخيل منظراً بائساً وأنا بين حشود السابلة من الناس، نمشي برؤوس مشتعلة ويتصاعد منها دخان خابط يطم ثقوب الامل، ثقوب النجوم في خيمة السماء.

كنت أعي وأنا استجير بالخيال فزعاً من تذكر السكين النابتة في صدر داود وتحايلاً على نفسي المرتعبة، كما أشرد من توبيخ قلبي لي بترك صلاة الظهر والعصر وهاهي صلاة المغرب والعشاء قد فات موعدها، لكني اطمئن قلبي بتأدية ما فاتني من الصلاة حال وصولي بيت سيد علي في منطقة (كليزار).

تقطعت اقدامي وانفاسي من المشي السريع، وبدأت الشوارع تفرغ من الناس كلما تقدم الليل. اسمع لهاثي في صمت هذا الشارع القريب من بيت سيد علي، واسمع وقع خطواتي المترنحة من التعب والجوع والخوار، اسمعها ترن لا على اسفلت الشارع وحده بل على سطح الكرة الأرضية وكأنها خلت من انفاس وحركات كل حي فيها، صمت يشبه ما يسبق الكارثة أو الصمت بعد وقوع الكارثة. انعطفت من الشارع صوب

الدرابين الضيقة وإذا بشخص يرتدي ملابس مدنية وضع فوهة مسدسه في رقبتي تحت اذني اليمنى مباشرة، لمحت شخصاً آخر إلى جواره يحمل بندقية يقف أمام سيارة هامدة مطفأة. قال صاحب المسدس: افتح فمك. أنا أعرف كيفية التفاهم باللغة الفارسية بالعموميات وليس إلى حد بعيد. فتحت فمي بعدما سألته: ماذا، ما الذي حصل، هل هناك مشكلة؟ قرب وجهه مني وراح يتشمم فمي وهو يأمرني ان اطلق الهواء وانفخ. ثم قال: مشيتك وحالتك مثل السكران ولكن لا اثر لرائحة الخمر في حلقك. ماذا أرد عليه وكيف أبرر حالتي، هل أقول له: ان أحد أكبر السفلة قتلني، جعلني أقتله بسكينه، هو من اقترف جريمة القتل وأنا ضحيته الحية؟ قلت له: اليوم هو اصعب يوم في حياتي وأنا متعب لحد السكر. اعتذر مني وودعني بحفاوة من ارتكاب خطأ ولا يعرف كيف يتلافاه. لابد انهم من الحرس الثوري (السباه) أو من الـ (كوميته) أو من جماعة (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولكن فعلته حقيرة ولا مبرر لها فشارب الخمر ليس مجرماً خطيراً كي يشهر المسدس في وجهه ويضع الفوهة في رقبته. أنا أعرف ليل طهران المحذوف من الزمان، ما ان يحل الظلام حتى يتراكض الجميع إلى بيوتهم وينامون نوم الدجاج، في الأقل هذا ما يبدو حين تخلو الشوارع وتقفل المطاعم والمحال ابوابها برغم وجود بعض الشوارع نابضة بحياة الليل بفضل وجود دور السينما. والقانون الإيراني يحرم دخول البيوت والتفتيش عن الخمر واعتقال شاربيه، ولكن ياويل من يخرج من باب بيته سكران أو تفوح من فمه رائحة الخمر، هناك الكثير من البيوت تقفل ابوابها وتعربد بداخلها حفلات الشرب والرقص وتناول جميع انواع المخدرات، انهم يقومون بالتخمير وعمليات صناعة الشراب داخل سراديب البيوت. الحكومة اقفلت البارات وحرمت بيع المشروب الكحولي لكن البيوت تحولت إلى بارات والى معامل لصنع الخمر، وراجت في

طهران عمليات البيع السرية لكن المخدرات هي الأكثر انتشاراً ورواجاً بين الناس. انهم ينتقمون بردة فعل تعاند التحريم والممنوع، ويبتكروا حياة أخرى لليل طهران لتحدي سلطة الغاء الليل. الإنسان كائن عجيب غريب لا أحد توصل إلى معرفة وادراك ماذا يريد واي حياة يفضل، والنذل داود اغرب الناس جميعاً واصعب لغز مر على عمر وتاريخ البشرية. عنده بيت وزوجة ومال ومنصب، ماذا يريد أكثر من ذلك؟

(٣)

وصلت بيت (سيد علي) واستقبلني بدهشة وذهول، جلسنا في غرفته الخاصة بمشاريعه التجارية واحلامه الطموحة في ان يكون رب عمل مشهورا بعيداً عن زوجته واطفاله. سمع مني قضية داود منذ لقائي به أول مرة إلى معركة اليوم بكل تفاصيلها وملابساتها وكل تفاهات الغازها العصية على الفهم. وحين انتهيت قال:

ـ كنت في كوجه مروي وقت الغداء، وكما تعرف فإن الأخبار تصل إلى كوجه مروي قبل وكالات الأنباء العالمية، شممت الأخبار وهي تتصاعد مع ابخرة الشاي وابخرة (الكراعين) التي يسميها رواد (كوجه مروي) جواريب الخروف، اخبار تستنشقها مع دخان الكباب واللحم المشوي ودخان السجائر، اخبار بثلاث لغات وبلهجات كثيرة تذيعها افواه مشغولة بالمضغ وبالشاي والسجائر:

(كان داود مع اثنين من اصدقائه واقفين يتفرجون على صور فيلم في سينما انقلاب، وإذا بشخص اسمه (روضان) يحمل سكيناً هجم على داود، طعنه في قلبه وهرب راكضاً فمات داود تاركاً أرملة حاملا). (لا أعرف هذا المدعو (روضان) ولا أعرف كيف تجرأ على قتل داود الذي بموته انطفأ اكبر عقل صادفته وأكبر قلب ضم الكثير من اللاجئين والمسفرين، لو امسكت المدعو (روضان) لشربت دمه). (يقولون ان (روضان) اكتشف سر داود ونحن لا نعرف نوع هذا السر، اراد فضحه

لكل العالم كي يعرفوا داود على حقيقته ولكن أي سر لعين عفن ونحن نعرف داود مثلما نعرف القمر). (انا اشك في كون القتل جريمة عادية وشجار بين عراقيين، انه اغتيال لأن داود واسع العلاقات مع فئات كثيرة حتى مع خصومه). (القضية ان روضان وداود كانا صديقين حميمين صداقة يندر وجودها هذه الايام وكانا ينامان في غرفة واحدة ويأكلان في طبق واحد قبل ان يتزوج داود لكن زائراً غريباً اطلع روضان على سر خطير قلب الصداقة إلى عداوة برمشة عين وان داود هو الذي بدأ العراك واراد قتل روضان). (هكذا حال الدنيا دائماً النكرة تقتل النجم، وداود ليس خسارة عظيمة لنا وحدنا بل خسارة للعالم كله).

سمعت كل هذه الأخبار وأنا اتنقل من مطعم الفلافل إلى عربة (تشريب الكراعين) إلى عربة الشاي والى بائع السجائر، كل واحد يروي الحادثة حسب ميول ومزاج من رواها له، وهذا بدوره ايضاً يخضع لوجهة نظر من رواها له، وهكذا يصطف الرواة في طابور طويل من سينما انقلاب إلى (كوجه مروي)، كل واحد منهم يروي الحادثة على عهدة مزاجه ولون تفكيره فكم شكل للحادثة سيكون إذا امتد طابور الرواة من كوجه مروي إلى كوبنهاكن؟ ولكن اغرب جميع هذه الروايات رواية مجنونة تقول: ان داود لم ينزف دما بل دودا.

سمعت طرقات خجولة على باب غرفة المشاريع، نهض سيد علي ورجع بصينية طعام العشاء. لم تزعجني عادة سيد علي في الثرثرة فهو مولع برسم صورة كاملة لاي شيء وكل شيء لا يترك زاوية للصورة تفلت من لسانه، ولكن ما يزعجني هو الرذاذ المتطافر من لعاب فمه مالئاً وجهي، وكلما ابتعد من وجهه يقترب إليّ.

بعدما شبعت صليت كل الفروض التي فاتتني، وفي أثناء شرب الشاي

غمرني سيد علي بامطار ثرثرته المدارية وأنا أمسح وجهي وابعد استكان الشاي عن زخات فمه. قال انه على استعداد لتكذيب كل الروايات وتصديق روايتي للحادثة، وانه يثق بي لا ثقة عمياء ولا عوراء، بل ثقة يلبس عوينات فوق عينيها وهو حذر من شخصية داود فمن غير المعقول ان يحبه الجميع. وهذا الاجماع على محبته هو السبب في شكي منه وحذري في التعامل معه وذكرني بعدة مناسبات جمعتنا معاً. يقول الامام علي (عليه السلام): (لم يترك لي الحق من صديق). وداود يحظى بصداقة الجميع فكيف يكون على حق. ذكرني (سيد علي) بعدة مناسبات جمعتنا سوية وكيف كان يتعامل ببرود مع داود وانه حذرني منه بشكل مبطن وغير صريح لأنه غير مطمئن من حقيقة هذه الهالة الاسطورية التي تحيط بداود.

وقبل أن انام رسم لي خطة للخلاص وانهاء عملية مطاردتي فوجدتها مقنعة وهو يقول:

ـ بما انك لا تستطيع الهرب إلى باكستان ولا أفغانستان ولا تركيا لأنك تحتاج إلى فلوس كثيرة، وأعرف أنك لا تدبر حيل الهرب بالسفن من ميناء بندر عباس وهي خطرة وغير مضمونة وقد فشل الكثير وهلك بها الكثير من العراقيين. وبما أن القليل من العراقيين يعرفونك فأنت لم تبق في مخيم (كرج) سوى شهر، وفي عمارة المسفرين لم يعرفك سوى خمسة أو ستة لأنك منطو ولا تحب الاحتكاك والتعرف بالآخرين. اسمع روضان: تذهب إلى مدينة سنندج وعلى حدودها تسلم نفسك كلاجئ عراقي جديد وصل تواً كما فعلها البعض هنا، دخلوا إلى إيران ثلاث مرات وربما اربعا بأسماء جديدة ولم يكتشفوهم. تحلق لحيتك وشواربك وإذا اردت احلق حتى شعرك وغير ما تقدر عليه من شكلك، ادخل باسم مستعار (سيد علي لا يعرف أن اسمي الحقيقي جمعة وليس روضان) لك ولأبيك وجدك ولقبك. إذا دخلت سابقاً بصفة مدني فادخل هذه المرة بصفة عسكري أو

بالعكس، إذا دخلت بصفة مدني فقد ينفونك إلى مخيم (كرج) أو إلى مخيم (خرم آباد) وإذا عسكري فسينقلونك إلى مخيم (كهريزك). لا تهرب من المخيم الذي يضعونك فيه حتى تخبرني بوصولك ولنضع خطة أخرى. لا تخف من اكتشاف هويتك في المخيمات لأن وجود اللاجئين في تغير مستمر ودائم فالعراقيون لا يطيقون التفسخ على فراشهم في المخيمات. ولا تنسى فإن الله معك دائماً وابداً.

وضع قربي قمصلة زرقاء واخرج سيد علي من جيب سترته رزمة نقود وقال:

- هذه عشرة آلاف تومان اعتبرها أي شيء.

انطلقت بي من الغبشة سيارة النقل الكبيرة نوع (بيكان) إلى مدينة سنندج وكأني فعلاً ذاهب إلى العراق، كلما تقترب المسافة من الحدود كلما ينتفخ قلبي بكابوس صدام والبعث والجيش والحرب ومشاهد الإعدامات في الساحات والشوارع وماجدات اتحاد النساء يطلقن الهلاهل ويرتفع دوي الهتافات بعد الرصاص واندلاع نافورات الدم من ثقوب جسد المعدوم، هل اهرب من كابوس داود إلى كابوس صدام، أيهما اشد رعباً وفتكاً، وإذا ما خيروني فاي كابوس سأختار؟

داود كابوس شخصي وأقل خطراً من صدام، كذلك أنا لم أهرب من بلادي للحفاظ على حياتي فقط إنما لأن الله وضعني في مأزق امتحان وعليّ ان اختار ما يتفق عليه عقلي وقلبي وضميري واخلاقي ولو كان هناك مكاناً امناً غير إيران لذهبت ولكن كل الطرق تؤدي إلى الموت عدا طريق إيران الوعر بالشعور بالذنب. هربت لاني ميت في جميع الاحوال، ان لم يكن في جبهات القتال فبرصاص فرق الإعدام. حانت فرصة ذهبية عندما كلفوني باقتياد جندي مخفور اطلق رصاصة على ساقه ليعوق نفسه ويخلص

من الجيش والحرب، كان واجبي اخذه إلى مقر وحدتنا العسكرية ليسجنوه بانتظار محاكمته. وقبل الوصول إلى راوندوز فككت قيود الجندي المخفور وخيرته بين الهروب أو الرجوع والتسليم لوحدتنا ومن هذه المنطقة هممت على وجهي بين القرى. رأيت راعي غنم ضائعاً في شعاب الجبال واخبرته عن نيتي بالهرب وكان يعرف القليل من العربية. سلمني إلى مقر للبيشمركه ومنه قادوني برسائل غريبة:

ورقة يكتب فيها كل شيء فتطوى على شكل مربع صغير وتلف بشريط لاصق شفاف (تيب). ثلاث رسائل اوصلتني إلى مدينة (سنندج). هل اذهب إلى نفس الشخص الذي سلمني للقوات الإيرانية، الذي حسب ما اذكر اسمه (كاكا محمد) هو الذي نصحني بتغيير اسمي باسم وهمي مستعار ومن لحظة دخولي لإيران صار اسمي (روضان) فماذا اسمي نفسي هذه المرة، كم انقذتني نصيحة كاكا محمد الكردي فحتى داود لم اطلعه على اسمي الحقيقي (جمعة) وهذا ما جعل بيت اختي ينكرون وهم صادقون (انهم لا يعرفون احداً باسم روضان).

أنظر من نافذة السيارة وكأني أرى ذاك الراعي الذي أنقذني من الجيش ومن الحرب.

في السيطرات الإيرانية بين المدن لا يسألون عن الهويات لانهم لا يعبؤون بالهاربين من الجيش عكس السيطرات العراقية. يصعد شخص ينظر بعيون الركاب ويتفرس بوجوههم، ثم يطبطب على كتف الراكب المشبوه لينزل من السيارة وقد عرفت من الناس: ان السيطرات تفتش عن المدمنين على المخدرات التي تترك اثراً تحت العينين. انزلوا اربعة ركاب في السيطرة الاولى، يبدو اني سابقى وحدي عندما نصل سنندج إذا استمر التفتيش على هذا المنوال.

أحد الركاب الذين انزلوهم مس رأسي وأنا أعرف ان الإيرانيين يتشاءمون من حركة مس رأس الطفل بالكف، لأن ذلك يعني ان الطفل يتيم، وهذا مس رأسي بعفوية وبلا قصد لكنه وضع كفه على الجرح المخفي، لا يعرف انني يتيم ومن سلالة ايتام بلا أهل ولا عائلة ولا عشيرة، تبعثرنا وانقرضنا فلم يبق سوى اختي وانا. نحن فيلم هندي أصلي غارق في هنديته، ما كنت اصدق لو كان غيري بطل الفيلم الذي سقطت كل احداثه المأساوية على رأسي ورأس اختي. أمي كانت تغزل بخيوط دموعها لوحة سجادة مصيبتنا، تحكي لنا وهي تغص بعبرات الدمع، تقول: نحن ثلاث اخوات صبرية الكبيرة وأنا واختي الصغيرة نجمة كنا نعيش في منطقة (الدير) عندنا بقرة واحدة اسمها (الدبسه) اهل القرية يحسدوننا عليها، ذكية وحلوب وجميلة، تفتح قلب كل من يراها. مات أبونا في ليلة ماطرة حين فز في جوف الليل ينضح عرقاً ويرتجف من البرد، ودع أمي وايقظنا ليحضننا، فجأة نهض وخطا ثلاث خطوات أو أربعا فتقيأ دماً، ثم رجع لفراشه ونام حتى اشرقت الشمس ولم يستيقظ أبداً، ولما حلبنا البقرة صباحاً وجدنا آثار دموع على بوزها. ماتت امنا قبل أربعينية أبي عندما أرادت تعديل وتثبيت سقيفة البقرة بعدما وجدت الأرض مغمورة بالماء والبقرة المسكينة ظلت واقفة طوال الليل، هناك ثقوب في السقف يخر منها الماء فوق البقرة أثناء المطر، وكان السقف مثل مزبلة لكل ما نستغني عنه ادوات عتيقة لا تصلح سوى للتخلص منها بعيداً ولكن الفقر جعلنا نخاف ونحتفظ حتى بالزبالة، فسقط محراث عتيق مزنجر فوق رأس امي، سقطت مثل خرقة مبللة والدم يفور من رأسها وصدرها، ونحن نتصارخ مذعورين لا نعرف ماذا نفعل نمسح الدم ونصرخ، هرع إلينا الجيران وشاركونا الصراخ بعدما يئسوا من تضميدها برماد التنور ولف رأسها بخرق كثيرة فالدم ظل يتدفق حتى ماتت بين ايدي الجيران فلا يوجد

مستشفى ولا عيادة عندنا. كنا صغيرات أكبرنا أختي (صبرية) عمرها سبع سنوات. في صباح اليوم التالي جاء جارنا الشيخ (شيحان) ومعه ستة رجال ونحن لا ندري ما يجري حولنا وكنا نعرف اننا بلا اقارب ولم يزرنا لا عم ولا خال، وزعونا كل بنت منا إلى بيت بعيد في مناطق بعيدة ولم نلتق أبداً منذ ذاك اليوم الأسود. وكان نصيبي أنا هنا في البصرة بمنطقة الزبير، ولما كبرت زوجوني من رجل في منطقة (الومبي القديم) ثم انتقلنا هنا في مدينة (الجمهورية)، حبلت ب (مناهل) وأنا مازلت صغيرة (مسدت شعر اختي مناهل) وفي المخاض يئس المرحوم مني وايقن انني ميتة لكن روحي صلفة وعنودة، قاومت وقاومت حتى ولدتني بصراخ فزز الموتى (وهي ما تزال تمسد شعر مناهل)، مات أربعة أخوة لكم قبل (جمعة) و(اخذتني في حضنها)، كلما يموت ولد اتذكر كل موتانا، كانوا ثلاثة صبيان وبنتا واحدة، وتدحرجت من عينيها دموع كبيرة وتهدج صوتها فسكتت.

لم تترك لنا الحياة طير فرح أبداً. كل الطيور سقطت من شجرة الأمنيات على بيتنا ميتة وأنا الطير الجريح الأخير أبحث عن مخبأ أموت فيه. عمري سنة ونصف حين جلبوا أبي للبيت مدمى، سجوه على حصير، دهسته سيارة في (الشعيبة) على الشارع العام وحين جلبوه كان ميتاً. اصدقاؤه الجنود لم يصلوا به للمستشفى لأنه كان ميتاً والسائق فر بسيارته بدون ان يتوقف. واستمر العويل حتى بلغت سبع سنوات، كان بيتنا كله يبكي وكنت اتخيل ان السماء تبكي معنا وتخر الدموع من المزاريب في الشتاء ومن جلودنا تسيل الدموع الباردة في الصيف.

نشفت أمي من جميع السوائل وجفت مثل شجرة ميتة من كثرة البكاء وهي تتذكر أخواتها وأمها وأباها واخوتي الميتين الاربعة. غارت عيناها وتخسف وجهها فلم تستطع ذرف دمعة واحدة؛ بكاؤها ناشف وريقها يابس، صارت مجرد ثوب اسود، نعيش على الراتب التقاعدي لأبي

الميت، لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا يختارنا الموت في الشتاء وفي ليلة ماطرة، فقد ماتت أمي قبل الفجر بقليل مثل موت أبيها، ايقظتنا من الكوابيس واحتضنت اختي (مناهل) من جهتها اليسرى وأنا احتضنتني من جهتها اليمنى، ومنذ فترة طويلة لم نرَ الدمع في عينيها واعتقد ان آخر دمعتين في جسدها نزلتا الآن، أعتقد انها عصرت جسدها كله من قدميها إلى رأسها لتهبط هاتان الدمعتان. لم تتقيأ دماً مثل أبيها ولكن اخذتها رجفة راحت تختض مثل السعفة كأن تياراً كهربائياً عالي الفولتية نتل قلبها وتبللت ثيابها السود من زخات عرق بللتني مع اختي ونحن نرتجف ونختض معها، كنت انظر إلى وجهها من قريب وهو يتقلب ويرتعد ويومض كأنها غيمة سوداء تبددت وتتلاشيت حتى شهقت بزفرة أحرقت شعري وشعر أختي وفاضت حتى آخر قطرة من روحها بحيث تكاثف ضباب حليبي فتهنا وضعنا بعماء رطب. بقينا متحاضنين حتى تسلل ضوء النهار من بين ثنايا ستارة الشباك الوحيد في الغرفة. ماتت الشمس منذ تبخرت غيمة أمي والى اليوم.

شعرت برطوبة عرق تحت ملابسي واخذتني رعدة خفيفة فقلت جاءت منيتك ياخائب هل اصيح مثل الامام علي بن أبي طالب وهو يُضرب بالسيف على رأسه: فزت ورب الكعبة.

اخيراً تذكرك الموت بعد انتظار طويل ولكن أي فوز لي أنا الهارب وقد تركت خلفي جثة بالامس تطاردني من مكان إلى آخر. معقول أنا الآن قاتل وداود جثة، هل أحلم، إلهي ياإلهي متى أفز من هذا الحلم الدموي وأصحو في غرفتي في عمارة المسفرين، أو أصحو في بيت أختي في مدينة البصرة فلا أجد الريس صدام ولا الحرب ولا هم يحزنون. متى أفز؟ آخ متى متى أفز ميتاً؟

(٤)

دخلت مخيم (كرج) بعد مشاوير وتحقيقات عويصة وكأنني أسحب بكرة الزمن إلى الوراء وأعيش نفس الاحداث بزمانها ومكانها على الرغم من اختلاف بعض التفاصيل والإجراءات وفتور استقبال بالوافدين الجدد إلى إيران، الذين اخترقوا جهنم بالطول والعرض وذاقوا ألوان التعذيب والاهانة من قبل ضباط الجيش وضباط الصف والرفاق البعثيين، وابتلعوا الذل الروتيني ونزوات القائد المعظم صدام. كان الهاربون من الجبهات يراوغون الموت حد الاعياء والانهاك ثم الاستسلام الجنوني للخطر حيث اللامبالاة بالعيش والفوز بشهيق آخر فيتصرفون وكأنهم ابطال خارقون حين يمشون مثل المتنزهين بين اشجار الانفجارات والدخان وتحت شآبيب الرصاص المذنب والابتر، تنفلق القنابل من كل جانب وهم لا يرف لهم جفن ولا يفزون أو ينبطحون، كل من يراهم يحسبهم شجعانا فوق العادة ولا يخطر ببالهم ان هؤلاء مجانين موت يائسون لحد البطولة الاسطورية كما حدث مع الجندي أول مراد نعمة من اهالي المسيب في قاطع الشيب الذي اصيح عليه بأعلى صوتي ان يرجع في حين هو يمشي مثل السائر في نومه باتجاه القطعات الإيرانية في النهار مكشوفاً كهدف سهل القتل، ينهمر الرصاص من كل جانب وتهتز الأرض تحته بانفجارات القنابل والصواريخ والقاذفات، وتطن الشظايا؛ تشق الهواء مثل شفرات عملاقة تتضور جوعاً للجسد البشري.

الجميع يتطلعون إليه باهتين غير مصدقين مما جعل ملازم أول سمير يصدر امراً للجنود بإطلاق الرصاص عليه باعتباره خائن يسلم نفسه للعدو، لكن الجنود ترددوا بعضهمّ ينظر في وجه الآخر، وانتظروا متريثين ماذا سيفعل (مراد نعمة)، وفعلاً رآه العريف بواسطة الناظور ينحني على جندي جريح ويحمله على ظهره ويعود غير عابئ باندلاعات يوم القيامة وزئير الآلات الجهنمية. وصل إلينا وأنزل الجريح بدون أن ينطق حرفاً واحداً. استدار ثانية صوب القطعات الإيرانية وسحل جثة جندي وهو مثل المنوم مغناطيسياً. وعلى هذه الحال سحب أربعة جرحى وسحل سبع جثث. كنا نظن أن ملابسه تلوثت بدم الجنود الجرحى والقتلى إلى أن سقط على ركبتيه وهو يجر سابع جندي فتبين أن جسده معشوشب بالشظايا الصغيرة وبرصاصتين واحدة اخترقت فخذه الأيسر بدون تمس العظم والثانية فتحت جرحاً في رقبته. نقلوه للقطعات الخلفية لعلاجه. وخلال أسبوع حصل على ثلاثة أوسمة وألف دينار وإجازة لمدة أسبوعين، لكنه لم يلتحق بوحدتنا وظل هارباً حتى هروبي أنا إلى إيران.

وصلت مخيم (كرج) باسم جديد (ناظم حسين عبد الله) وبصفة مدني لا بصفة عسكري كما في المرة الأولى. صارت لي خبرة من خلال صديقي الكردي الذي فتح لي أبوابها حين اقترح علي بنصيحة ثمينة أن لا أدخل إيران باسمي الحقيقي فغالبية اللاجئين في المخيمات يكنون أنفسهم بـ (أبو فلان وأبو فلتان) خوفاً من المندسين في المخيمات من جهاز الأمن والمخابرات والاستخبارات، والعجيب والغريب أني وجدت لاجئاً مصرياً يتكلم مع الحرس الإيرانيين وموظفي الهلال الأحمر باللغة الفارسية ولكن باللهجة المصرية التي ينفجر لها العراقيون بضحك صاخب.

كنت ممداً على سريري العلوي ذي الطابقين حين دخل ثلاثة من الحرس مع اثنين من موظفي الهلال الاحمر ومترجم عراقي لا أعرف اسمه

وقفوا قرب سريري. قال أحد الحراس لي: انزل. والمترجم يقول لي: لديهم استفسارات روتينية فتعال معنا إلى غرفة المحقق (شهيدي) القضية واضحة (وقع الفأس بالرأس)، كشفوا أمري وانتهيت لا استفسارات ولا روتينية. العجيب لم اخف ولم اقلق، مشيت معهم مثل جندي أول مراد نعمة كالسائر في نومي.

اعترفت بأني دخلت إلى الحدود الإيرانية مرة ثانية وباسم (ناظم حسين عبدالله) لأن موظف الهلال الاحمر اكتشفني من خلال صوتي وابلغ المحقق فاخرجوا ملفي الأول باسم (روضان) وصورتي مكبوسة فوق (الفايل). قبل ان يحققوا معي ويدوخوني بالجر والعر وقبل ان اتعفن طويلاً في سجن المخيم ويأكلني القمل، فور ما لمحت ملفي القديم وصورتي القديمة أمام المحقق (شهيدي) اعترفت بأني ذهبت لمدينة (سنندج) وسلمت نفسي من جديد للقوات الإيرانية لكي اتخلص من صفتي العسكرية وادخل بصفة مدني. اعترفت بهذه الجريمة الصغيرة والتافهة لاخفي واموه على جريمتي الكبرى، فهل ينطلي عليهم هذا اللعب المكشوف؟

انزلوني إلى سرداب السجن وهناك رأيت محفل خليط عجيب من المساجين تجمعهم تهم مضحكة وبسيطة، واحد غائب عن المخيم تسعة ايام، والآخر سرق تكة سجائر بهمن من الحانوت، هذا خرج من الحمام إلى قاعته عارياً، وذاك تشاجر مع عمال المطعم، لكن اعجب كل هذه التهم وأغربها حين أشار السجين الذي ينام جنبي اسمه (هادي ابو عيون الخضر) إلى سجين منزوي برصانة وجد لا يطاق، كان ملتحياً وبشعر اشعث وجهه يحمل سيماء رجراجة بين الجنون المتعالي والابهة الرخيصة والحكمة الزائدة عن الحد إلى درجة الرعونة المطلقة، اشار إليه (هادي ابو عيون الخضر) وقال مبتسماً بخبث: ذاك المهدي، يدعي انه الامام

المهدي. . . وذاك الجالس قربه خادمه الذي يجلب الطعام والماء ويغسل ملابسه، نذر نفسه بحرية تامة لخدمة (المهدي).

لم اندهش كثيراً ولم افتح فمي فاغراً من الذهول لأن أدعياء الإمام المهدي(ع) كثيرون هذه الايام وخاصة في مثل هذه الاماكن التي تشرم القلب وتطيح بالعقل من علو شاهق إلى الوحل.

المخيمات لا يمكن أن يتخيلها البعيد عنها والذي لم يتمرغ بها.

وفجأة وبدون سابق إنذار، اندلع نقاش عويص حول قضية (التقليد) وكيف يدخل النار من لم يعرف أمام زمانه، فسمعت هادي ابو عيون الخضر يضحك ساخراً منهم وهو يقول:

ـ هل نحن قرود؟

صار السجن عليّ أثقل من عبء قتل داود، ثلاثة اسابيع وأنا أتقلى مثل سمكة حية في طاوة النقاش والجدل؛ طاوة يفرقع بها دهن المطاحنات السرمدية حيث لا أمل بانتهائها أبداً، لا دهن مواضيع النقاش ينشف ويتبخر ولا السمكة تموت وينتهي كل شيء. في يوم الخميس صباحاً فتح الحرس باب السجن بغير أوقات الطعام والذهاب للحمام والمراحيض. نادى الحرس باسمي القديم (روضان) وساقني إلى سيارة يقف أمامها أربعة شرطة وقادوني خارج مخيم كرج إلى مكان مجهول.

هامش دود رقم (٢)

الآن بدأنا ندخل في عصر الدود؛ فاليوم صباحا سقطت ثلاث قذائف هاون على الوزيرية، ليس بعيداً جدا عن (بيت الحجي) وكما أعرف ويعرف جميع العراقين ان إحداثيات تحديد الهدف لمدافع الهاون تتم بواسطة هاتف الموبايل حين يتصلون بالرامي بأن القذائف سقطت على ثلاثة بيوت على يمين الهدف فيصحح مداه ويرمي فتسقط على ثلاثة بيوت أخرى ويصحح له صاحب الموبايل مكان الهدف حتى يتم نسف أكثر من عشرة بيوت ليصلوا إلى تحديد الهدف، وعندها يكتشف (الهدف) ويعرف انه مستهدف يخلي المكان فوراً أو يغادر المنطقة إذا كان (الهدف) همرأو دبابة أميريكية لئلا يدمر الرامي صاحب مدفع الهاون المنطقة كلها لمجرد ان يعثر عليهم. كنت قد اتفقت مع (ولادة) على اللقاء مقابل أكاديمة الفنون الجميلة قرب نصب (المظلة المطوية) التي بقيت مجهولة طوال سنين تحت شمس حاقدة ومطر مخبول لا يعرف أحد ماهي وماذا تعني. تعمدت المرور بالقرب من تقاطع شارع المغرب حين رأيت سيارة شرطة وجمهرة ناس متفرقين هنا وهناك على جهتي الشارع. رأيت ثلاث جثث في سيارة الشرطة مغطاة بشرشف وسخ وقصير بحيث بانت أقدام الموتى ورأيت خيط دم يسيل من الجثث على أرضية السيارة ويهبط إلى الاسفل يقطر على الأرض. منذ دود جثة المجاهد في باب المعظم رحت أتفرس بكل نزيف واحدق حتى لا تفوتني رؤية حالة التدود. وها أنا أعثر على الدود في خيط الدم النازل إلى الأرض فساقني الفضول لمعرفة من هؤلاء

الموتى ومن قتلهم. خطوت نحو مجموعة عبر الشارع قرب البيت الثقافي السويسري الذي افتتح قبل يومين أو ثلاثة. جاءني الجواب على شكل أوصال متقطعة ونتف أسمعها من هذا وذاك ولما جمعتها كانت: قبل عدة أيام ارتعبت اشجار وانهار بغداد بجريمة شنعاء هزت كونكريت الشوارع ولم تهز البشر. وجدوا في شارع البساتين قرب ثانوية عمر بن عبد العزيز في الاعظمية جثة امرأة مع طفلها الرضيع الذي يلتصق على صدرها بواسطة برغي كبير وصامولة يخرج من ظهرالأم.

لم يفطن أي واحد من المتجمهرين إلى الدود السابح في دم القتلى المكومين في سيارة الشرطة فعرفت ان عيونهم لم تتجاوز بعد خط العادة في النظر والرؤية المسبقة، حيث العيون المسكينة ترى الصورة الموجودة في الدماغ وليست الصورة الموجودة الآن وهنا. يعني أنها لا ترى إلا ما يبثه الدماغ لها، فالعيون لم تتجاوز الدماغ بعد لهذا لم تر الدود لأنها لم تتحرر من العادة في النظر والسائد في الرؤية لم تتجاوز المألوف والطبيعي والمعقول. لهذا السبب وغيره من الاسباب لم يلاحظ الناس الدود على الرغم من أنه يشي بنفسه بطرق ووسائل لا تخطر على بال بشر من أجل فضح القتلة واظهار شذوذهم لكي يرى الناس دبيب الدود في نزيف دم المجرمين الملوث، لكنهم مع شديد الأسف لم يلاحظوه. لقد وضع الله معجزته أو وضعت الطبيعة سرها في هذه الدودة التي تحرض القاتل المجرم على فضح نفسه بعدما تتسلل إلى أستثارة الخلايا المسؤولة عن غريزة الانانية حيث التبجح وحب والظهور فالملثم الذي يشاهده الناس وهو يذبح أخاه الإنسان أو الملثم الذي يطلق قذيفة الـ (أر.بي.جي) أوالذي يطلق مدفع الهاون. كل هؤلاء المجاهدون الملثمون يسفون بالدود الذي يحرضهم على كشف وجوههم واستعراض بطولات جرائمهم أمام أصدقائهم واقربائهم من خلال غريزة الانانية المستثارة، إذ يثابر الدود على كشف هوية القتلة عندما يتفاخرون بشذوذ القتل. وهؤلاء القتلى الثلاثة في

سيارة الشرطة راحوا يتباهون أمام أصدقائهم قبل ليلة أمس بأنهم من قتل الأم مع طفلها الرضيع وخرقوهما ببرغي وصامولة. وهم يقولون: الكلبة تستحق أشنع من هذا القتل، فقد أخذت لعبة (دبدوب) من الاميركان لطفلها أثناء ما كانوا يوزعون لعب الاطفال لتحسين صورتهم بعيون الناس. بعد هذا الاعتراف بيوم واحد وجدوهم مقتولين بنفس المكان الذي وجدوا فيه الأم وطفلها. فرحت جدا لهذا التطور، فقد تحققت نبوءتي فعلاً عندما قلت في إحدى مقالاتي: الآن بدأت تتشكل مقاومة للمقاومة.

وجدت (ولادة) واقفة قرب نصب (المظلة المطوية) تتلفت بقلق إلى كل الجهات. انقذتها حين نظرت صوبي وأشرت لها بيدي أنني هنا فلا تخافي. كانت مذعورة وشعرت بقلبها ينبض خارجا من صدرها مثل أفلام كارتون. أول كلماتها توبيخ حاد: لماذا تركتني أموت هنا في كل لحظة.. لماذا تأخرت وجعلتني هدف وفريسة لكل أنواع القتلة والصيادين السفلة.. هذه آخر مرة أخرج فيها معك.. أتوبه أتوبه.

عضت يدها بعنف وانخرطت تبكي بمرارة تشتم وتسب نفسها لا تريد ان تسمع مني ولا كلمة. بكيت معها بصوت مسموع ودموع تتجارى كأننا نتسابق أيهما أثقل حزنا وكربا. صدمت وتفاجأت بدموعي وصوت بكائي فراحت تضحك شارقة بدموعها. حكيت لها قصة الأم ورضيعها الملتصقين ببرغي وصامولة، وجثث القتلة الثلاثة في سيارة الشرطة وكيف لم يلاحظ أحد الدود يجري مع نزيف دمهم النتن.

أخذتها نتمشى قرب كلية التربية الفنية وكان منظرنا نشازا نحن العشاق وحزب الحب لا يتأسف أحد على رجمنا وقتلنا لو وقعنا بين فكي المجاهدين والمقاومة الشريفة، لذلك اختلينا تحت شجرة تين عملاقة بعيداً عن الأنظار وخارج مرمى القناصة والصيادين السفلة. فعلاً كنا النشاز الأبهر في هذا الجو المشبع بالدم، في دوامة القتل وحدائق الجثث. كنا النشاز الأبهر مثل فراشة في حقل جماجم وعظام. نسبح ضد تيار نهر الدم

والرصاص والسيارات المفخخة والعبوات وقذائف الهاون. نسبح بعيداً عن زماننا وهذا المكان الموبوء بالحقد.

رحت أقترب من (ولادة) وهي تدنو وتلتز إليّ خوفاً ورعباً من محيطنا الغاشم بصمت قبيح وسكون مشوه، محيط مدجج بكل أنواع الاسلحة وعفاريت الدمار. ألوذ بها وتلوذ بي من زخات رصاص متوقعة في أية لحظة حسب الانواء الجوية لأعداء الحب. نهرب بوجودنا هلعا من أمواج العدم فنحن طارئين على الواقع، جئنا إلى هنا والآن بالخطأ لذلك نحاول تصحيح الخطأ بسرقة وجودنا من الـ (هنا)والـ (الان)، ننتزع لحظة حب من أنياب المكان ومخالب الزمان. دنوت من (ولادة) حد الالتصاق وغمرتني رائحتها فذبت مثل من يدخل في ضوع وردة لا يذوي عطرها أبدا. رحت أشمها واشرب من عطرها رشفة رشفة، وادركت أنها جفلت واقشعر جسدها من شراهتي إلى حد شم روحها وجسدها مسامة مسامة. فاضت (ولادة) علي وانسكبت وأنا سكران بدفء وجودها حتى تناثر شعرها على كتفي وصار وجهها قاب شفتين وأدنى من وجهي. استعرت حرارة جسدينا واحمر الجو من حولنا من شدة إشعاع الوجنات، انزلقت حبات عرق من فوق الحواجب. تكثفت نفسي كلها وتكومت في شفتي من أجل تقبيلها. (ولادة) ماعت روحها وتكدست بين شفتيها تريد ان أمتصها ونكون وجودا واحدا لا ينشطر. أنحنيت فوق وجهها لكن شيئاً سقط من الشجرة فوق رأسينا واستقر في حضني فنهضت مذعورا ونفضته... ما هذه: إنها رجل آدمية، رجل مبتورة لا يزال الحذاء الرجالي في قدمها مع الجوارب. رجل مسودة من حروق ومنخوبة من شظايا. انفجرت سيارة مفخخة هنا قبل أسبوع.

اصطحبت (ولادة) إلى بيتها ونحن في تيه نسير صامتين شاحبين ميتين من شدة الصدمة يخر من جسدينا تراب الحياة، الذي فشل توا في خلق الحب من أمواج العدم. رجعت خائبا إلى الوزيرية وأنا أفكر كيف استبدل لنا عصر الدود هذا: القبلة برجل مبتورة.

الفصل الرابع

داود



(١)

قبل أن ينتهي (اكسباير) الخدعة وتنقلب الدنيا بالبحث عني فينبشون طبقات الكرة الأرضية شبرا شبر حتى يجدوني، عندها يتبخر الوقت ويصير الزمن صفرا فلا وقت عندي للانتحار كي أتخلص من صنوف التعذيب التى أعرفها عن ظهر قلب. وها أنا أودع واخزن نعمة المدينة وصخب الحياة لأوفر أكبر ذخيرة لي هناك في عزلة جبال (تورا بورا) في أفغانستان، عزلة جبال أكلة لحوم البشر.

أمشي في شوارع طهران اتلفت خائفا متوجسا الانتقام بعد حرب التشهير التي شنها (روضان) علي بأني ألعب على طهران وموسكو وانني رأس كبير في المخابرات العراقية. لا يدري بأني ألعب على بغداد أيضاً. صحيح ان أحداً لا يصدقه لمتانة معدن سمعتي الناصعة البياض التي صنعتها خلال سنين طويلة ولكن المخابرات سوف تراجع دفتر حساباتها كم ربحوا مني وكم خسروا ماذا قدمت لهم وماذا أخفيت عنهم، وهل أنا مخلص ومنحاز لهم أم للطرف الآخر للعدو، سوف تنبش وتتحرى فلا دخان بدون نار، لكنني حتى هذه اللحظة لم اكتشف الشخص الغامض الذي فضح عملي السري ووضع كل هذه الشكوك في رأس (روضان). أنا لا أتوقع الأذى من الناس من العراقيين لأنهم يثقون بي ثقة عمياء، بل أتوقعه من رجال المخابرات.

لقد كبرت على اللعب مع الصغار. لقد فشلوا معي وصار اللعب مملا

وساذجا ومخزيا أيضا: الاتحاد السوفيتي بلا مستقبل والحزب الشيوعي فشل عندي في خلق التوازن النفسي والروحي ولم يقنعني بأنه يناضل من أجل الإنسانية، بل انه لا يختلف عن ابشع انواع الاستعمار خاصة في اوروبا الشرقية وفي افغانستان فهو السبب الرئيسي في خلق وتكوين المجاهدين الافغان وانطلاقهم إلى عولمة الجهاد باعتبار كوكب الأرض كله ساحة حرب وجهاد. لقد احترقت ورقة موسكو عندي، كما أحترقت ورقتا طهران وبغداد العدوتان المتحاربتان من شدة الشبه والتطابق وكأنهما توأم.

وها أنا أزج نفسي فوق كف العفريت مع المجاهدين الأفغان لإثارة اللاعبين الكبار ولفت انتباههم حتى أصل إلى جوبيتير كبير آلهة الشركات متعددة الجنسيات أو إلى زيوس المعاصر الذي يدير شؤون العالم الآن. لابد من الوصول إلى داخل قصر الاولمب ليتأكدوا بأنني لا أدعي النبوة بل ان هذا العصر هو الذي انتخبني واصطفاني نبياً له.

لا أترك اللعب تماما مع (موسكو وبغداد وطهران) بل سوف أعصر هذه الفواكه الثلاث حتى آخر قطرة رغم كونهم غدارين فأنا لا أجازف في أن أرمش بحضورهم فقد يطعونني بوقت الرمشة هذا ولكن لماذا العجب فهم مخابرات بلا شرف ولا أخلاق.

أدركت بشكل غريزي ان المستقبل ليس لهم. دائماً أجدهم من الماضي الذي لا غد له. فقد ضاقت علي ثياب موسكو وبغداد وطهران لأنها أنظمة آيلة للسقوط واحدة تلو الأخرى. كلما تسقط واحدة تعرض عورتها في الميادين والساحات العامة حيث تتطلع إليها عيون البشر من كل شعوب الأرض، فتلعن هذه الشعوب ذاك اليوم الاسود الذي صارت فيه هذه الآيدلوجيات سلطات وحكومات انحدر فيها الإنسان وتسافل إلى حد الانتحار بقتل غيره من البشر.

لقد خلعت هذه الثياب الايدلوجية الضيقة علي بدون ان يعلموا. خلعت ثوب موسكو الاحمر ورميته لأول عاهرة صادفتها لتفصل منه لباسا داخليا يستر عورة (بشت آشان) مجزرة الشيوعين المساكين في كردستان العراق. وخلعت شوارب البعث وصدام وفتلتها على شكل (قياطين) لحذائي الأسود. وخلعت حجاب طهران لأغطي عورة مجانين السياسة ومدمني المخدرات.

تدهورت ثقي بنفسي هذه الايام خاصة، بعدما خلعت الايدلوجيات الثلاثة، التي هي بجوهرها آيدلوجية واحدة بثلاثة زعانف. لا أجد فرقا حاسما بين لون ثياب موسكو وثياب طهران وثياب بغداد. دائماً أراها لونا واحدا لذلك لم أشعر بالنفاق ولا بالتناقض ولا بالازدواجية.

كلهم يطوفون حول آيدلوجية واحدة تسعى إلى كرسي الحكم وإبادة المعارضين والخصوم لحد اقتلاع جذورهم وأسلاف أسلافهم وصولاً إلى آدم. كلهم يقدسون الموت بعبادات مختلفة ويبنون مؤسساتهم على فكرة عيش الموت والصعود إلى الذرى بسلالم من الجثث، حيث دائماً هناك مشاريع موت لكل معارض ولكل من ليس معهم. لا تتنفس هذه الانظمة إلا من رئة الكوارث ومن أوكسجين الموت.

أشعر ان ثقتي بنفسي تتدهور وبدأ العالم يضيق علي وينكمش من حولي بعدما كان مباحا لي أسرح وأمرح فيه وكأنه ملكي، أتقافز من دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة بأنواع جوازات السفروتأشيرات الدخول فكل عاصمة حبلى بجنين مني. هل تدهورت ثقتي لأني مقدم على مغامرة أفغانستان، هل لأني ذاهب إلى عزلة الحجرالديني؟

شعور فقدان الثقة جعلني اتلفت مذعورا من كل الوجوه التي تصادفني. أهتز وأدير وجهي من اصطدام نظرات العيون مع المارة فأرتعد

تحت جلدي وكأن أسراري تتكشف عارية على مصاريعها فاتحة خفاياها لكل الناظرين. أرى كأن الناس يعرفون من أنا ومن أكون. يبتسمون بسخرية من براعتي في التمويه وإخفاء شخصيتي، يرمقونني كاشفين أمري كيف أتحايل عليهم في دفن مجازر ومذابح لا تزال سرية مجهولة الزمان والمكان طامسة في مؤسسات الغيب. كأن عيونهم تتصفح قوائم الجرائم المرئية واللامرئية.

وصلت إلى شارع (ولي عصر) بطهران وأنا امشي بخطوات منزلقة فوق رغوة من الضجيج الفوار. يندلع من تحت الأرض ومن أفواه المارة والمستطرقين. هذا الضجيج لا يصلني منه سوى نتف وأطراف من الصراخ الصياح والهتاف:

ـ هذا داود.. أشرس اللاعبين بشطرنج الدم.

ـ امسكوه ليعترف للعالم أجمع بخفايا الجريمة المنظمة التي تلعلع من أكف ساسة وحكام وعلماء دين ومفكرين وقادة أحزاب.. أكفهم ناطقة بقصص إعدامات جماعية ومدافن سرية وسجون ما رأتها عين بشر.

ـ اقطعوا الدرب عليه امسكوه.. داود يتخفى باسم جديد ووجه جديد وعنده مخطط قتل جديد. زوجته لو رأته لا تعرفه ولا حتى أقرب أصدقائه بهذا القناع العقائدي الجديد. القناع الجهادي.

ـ امسكوا هذا البارع في حياكة خدع الحب البهلوانية، لا يصادفه أحد من دون التعلق به ومدحه وحث الآخرين للثقة به كأنه يحمل خرزة المحبة أو (عرج السواحل).

ـ أمسكوه لئلا يفلت وتندلع حمامات دم جديدة في بلدان ربما تغفو الآن بحروب تقليدية منسية هادئة تبعث على النوم والتسرنم وعلى الشخير أثناء الهجمات وفي قلب المعارك.

ـ امسكوه فربما سيزفونه عريسا يفض بكارة حروب طائفية وأهلية فينجب أفتك المجرمين منذ قابيل والى ما بعد صدام، مجرمين يضعون كل اسلافهم القتلة تحت أبطهم ويسخرون من رخاوتهم ومن عاطفتهم الرقيقة.

هكذا كنت أسمع لغة العيون التي تقرأ وجهي وتصرخ بأذني. فعلاً أوشكت ان أفقد الثقة بنفسي بسبب هذه الهلوسة السمعية. استوقفني كشك لبيع الورد. لا أعرف بالضبط من سبق الآخر أنفي أم عيوني. سحرني منظر تنسيق أنواع ألوان الورود والأزهار (هنا اشتغلت عيوني).

اخترقتني أمواج الروائح والعطور الفاغمة من حشود الازهارو الورود، كأني محمول فوق غيوم ملونة تبرق عطرا وتمطر شذى بلا رعود توقظ أحلامي الوردية.

كم تمنيت ان أدخل في جوف وردة وأختفي إلى الأبد. (هنا اشتغل أنفي).

شعرت بالارهاق والتعب خاصة حين اكتشفت اني قد قطعت كل هذه المسافة الطويلة من شارع (ولي عصر) إلى (بارك لاله). اشتريت باقة ملونة من الورد أخفيتها في كيس ورقي ودخلت إلى (بارك لاله). خطوت إلى يمين البحيرة الوسطية متوغلا في جوف غابة الأشجار، جذبني أحد المقاعد تحت شجرة زعرور أحمر. جلست وبدأت أفكر: ماذا أفعل بما تبقى لي من أيام قصيرة أو طويلة لا أدري. هل أغادر الدنيا هكذا كأي بشر تافه وأمر على الأرض مرور الدابة أم أصنع من ذاتي نجما لامعا يبهر ويعمي العيون، أدوخ أدمغة كل من يعرفني فأكون السر الوحيد المغلق، سر لا يضاهيه سر؟

لابد ان أكون ذاك الحبيب الغائب الذي تنتظره الدنيا واقفة منذ أول يوم شرقت فيه الشمس على الأرض. لا بد أن تخضع لي السماء مطية

أركبها للسفر إلى السرمد حيث يلعلع اسمي في صالة مشاهير الخالدين فأكون حديثهم الاثير والموضوع رقم واحد للافواه والكتب ومعجزات الأرض. هذا أنا الذاهب إلى جبال الموت تحت رحمة (الغبار الاسود) في أفغانستان لكي أصير أشهر اسم يتردد طوال قرون.

إذا لم تستطع الذهاب إلى العالم يا داود إفعل شيئاً صارخا صادما وشاذا كي تستدرج العالم للمجيء اليك. إذا لم يأتي العالم اليك فأسحله من شعره ودعه يركع، يقبل قدمك فخورا لا مكرها. يا داود كن الخبر رقم واحد واسرق عيون البشر وزلزل أدمغتهم ليتساءلوا من يكون داود وهل هو شخص أم هو أمة؟

(٢)

قبل ان أخرج من متاهات أزقة مدينة (زاهدان) في طريقي إلى الحدود الباكستانية إلى مدينة (اسلام آباد) للانخراط مع المجاهدين الافغان. اضافة إلى تنفيذ مهمة عاجلة وسهلة كلفتني بها المخابرات العراقية (تصفية عنصر اسمه: فاخر). بعدها أسافر إلى السعودية للدخول في دورة فقهية حول المذهب الوهابي مدة سنة كاملة. قبل ان أخرج من تلك المتاهات صادفتني قطة بذاك الزقاق في (زاهدان) بعد خروجي من الحمام؛ قطة رمادية اللون مرت محاذاتي على الجانب الايسر من الزقاق. لم أر قطة بمثل هذا اللون الرمادي الحيادي الصافي، لون يقف في منتصف اللونين الأسود والأبيض بالضبط. مرت تمشي بهدوء ورزانة غامضة كأنها كانت ملكا عظيما في حياتها السابقة قبل حياة القطة الآن. اجتازتني والتفتت نحوي تحدق بوجهي كمن يريد إفشاء سر كبير. تنظر بعيني نظرة كائن عاقل له منزلة رفيعة، كانت نظرتها ذات مغزى لم أفهمها آنذاك. وحين عرفت القطة اني فشلت في ادراك مغزى النظرة أطلقت صوتها المحذر وهي تموء بإنذار لم أفك لغزه وقتها. ولما يئست القطة من عدم فهمي أطرقت برأسها نحو اسفلت الزقاق خائبة وهي تجر ذيلا رماديا يكنس الأرض.

اليوم وأنا في بيت رجل دين باكستاني (بيت الانصار)الذي حوله إلى مستشفى طوارئ للمجاهدين الافغان. سمعت مواء القطة الرمادية ذاته.

نفس المواء اسمعه وهم ينزعون عن ساقي الضماد القديم ويستبدلونه بآخر جديد، كان جرح الرصاصة قد اندمل والتحم الثقب. رصاصة أطلقها علي شرطي باكستاني في آخر عملية محو وتصفية (عميل)أو (جاسوس) كما يسمون الضحية. اكتشفت اليوم لغز المواء هناك في المتاهة الكونية الوعرة في جبال (تورا بورا) بافغانستان الواقعة خارج تفكير الجنس البشري. هناك في جبال الجن والمشعوذين والسحرة وكل الخارجين على ناموس العالم وأخلاقه مأخوذين بفلسفة تختصرها جملة: أنا ميت إذن أنا موجود. جبال ترجمت اسمها فكانت اسم على مسمى (الغبار الاسود) حيث يمتليء البشر هناك بالحب الاسود للعالم كله فلا يطيقون رؤية الأشجار والنساء بل وحتى اللون الاخضر. هناك يفرغون الرؤوس من العقول ويحشونها بالبارود الحنون المكرس للحب الالهي في تدمير البشر والشجر والحيوان والطير. بين شعاب الجبال هذه يولد الضياع والتيه والحقد على الحياة وتجريم كل المدن لأنها ضالعة في حب الدنيا وعناق الحضارة. المدن كلها جاحدة لأنها تستخف بعقيدة الموت. أنا هنا أعيش في جبال الموت. هنا أدرس القسوة بمراحلها كافة حتى أنال شهادة التصخر بعدما يغدو قلبي مثل فأس أكسر فيه روح الحجر والبشر.

في هذه اللحظة لمحت نملة تدب فانقطع سيل تفكيري في جبال افغانستان واهبة الموت والجنون. رأيت النملة تحمل قشة ناعمة كعادتها، فجأة سرت في جسدي رعدة اعتراف مجاني لأصغر وأضعف مخلوق. الانبياء وحدهم من يتكلمون مع الحيوانات والحشرات والنبات. الحياة دائماً تعانق من يخترقها حبا ويقودها إلى ضفاف أخرى. الحياة تتبنى اليتامى والغرباء واللامنتمين مثل النبي موسى، المسيح، محمد وأنا. نحن قادة الحياة وما بعدها. نحن نعيش بعد موتنا أكثر مما نعيش في حياتنا. وها أنا المعصوم برغم جرائمي التي لا تعد ولا تحصى. الاخطاء العظيمة

حين امسك بها بيدي اتفحصها بعمق؛ هي العصمة أيتها النملة المنفية مثلي، يا صديقتي أننا نعيش في عصر الدود.

كل جرائمي انطفأت في مصهر قلبي، وكل أخطائي ذابت وتلاشت في مرجل صدري، إلا ثلاثة بقيت عصية على الانطفاء والذوبان. ثلاث جرائم رأيتها في عيون القطة الرمادية، وسمعت صدى إزهاق ثلاثة أرواح فاضت بين طيات المواء الغامض للقطة.

الاولى تصفية لاجئ عراقي في مدينة (اسلام آباد). لا يزال اسمه ورسمه نابتا في صحراء قلبي. دخلت حين كان (فاخر) يسبح في حمام مبنى اللاجئين العراقيين التابع للامم المتحدة. صعقتني براءته الطفولية رغم انه شاب تجاوز عمره العشرين سنة. لم يخطر على باله وجود قاتل يتربص به أو وجود شخص يكرهه، لذلك استقبل هجومي بمرح وتصوره مزاح ثقيل من أحد أصدقائه اللاجئين. طعنته في بطنه ولم يصدق بل تعجب وفتح عينيه مذهولا من جديتي. بذات الوقت تزامنت ضحكته مع طعنتي فجفل وسقطت الضحكة من وجهه وحل محلها سيماء صدمة ودهشة. لحظتها مد يده وربت بكفه اليمنى ثلاث مرات على رأسي، لم أحزر معناها ومغزاها إلى هذه اللحظة. حيرتني هذه الدول والحكومات الغبية كيف تتوجس الخطر من ناس كهؤلاء لا يجازفون بقتل نملة. مثلت بجسده حسب الاوامر لأثارة أكبر عاصفة من الذعر: قطعت جسده إلى أشلاء صغيرة وعبأتها في كيس قمامة أسود ووضعت الرأس فوق كومة اللحم.

لم يمت هذا الشاب فنظراته لا تزال عالقة في دماغي معاندا المحو والموت. لا أدري ماذا يريد مني وجهه وهو يحتل رأسي مع وجه آخر يزاحمه في الجريمة الثانية التي أعقبها ذاك الدبيب الغريب تحت جلدي:

كلفوني بمهمة (رصاصة الرحمة) بعدما قصفوا قرية وسط غابة نخيل

في مدينة (الدجيل). أرادوا إبادتها بالكامل بحيث لا يخرج منها انسان ولا حيوان ولا شجرة. مهمتي في (رصاصة الرحمة) هي البحث عن الناجين أو الجرحى وقتلهم بلا تفريق بين ذكر وانثى ولا شيخ أو طفل.

رحت أقلب الجثث المتناثرة خارج البيوت المحترقة. يبدو ان القتل كان عشوائياً من خلال منظر الاموات الذين قتلوا بعقل أعمى مدفوعا بالحقد لا بالعمل الوظيفي المحايد.

لم أعثر على جسد حي بين الانقاض والبيوت المدخنة إنما سمعت نهنهة صوت بعيد متقطع. مشيت بهدوء أتعقبه خطوة خطوة حتى دخلت إلى بيت منكوب، انقلب كل شيء فيه، والدماء مرشوشة على الحيطان والأثاث. قلبت البيت المقلوب أبحث عن الصوت، الذي عرفت هويته توا: انه صوت طفل ينشج، أختنق وغص بدموعه وهو يبكي مدة طويلة. وها هو ينشج بلا دموع وبدون سيطرة على صدره وفمه وانفاسه، ولكن أين هو، لا أثر له في هذا الخراب؟ بعثرت أحشاء البيت كلها ولم أجد النشيج المتقطع في هذا الجو المسلوخ برائحة الدخان والدماء حيث يخيم هدوء بشع نتن. كل شيء هنا يدفع إلى وضع لمسة أخيرة للمذبحة.

هذا النشيج تسلل إلى قلبي ينهشه مثل كلب مسعور. نشيج هرس دماغي وفرث أعصابي حتى تلعثمت وسقط المسدس من يدي. انحنيت أتناوله فلمحت ثوباً نسائياً يرتعش تحت دولاب منكفئ. أقتربت من الثوب النسائي تقودني أذني. أقتربت جدا فسمعت النشيج: كان الطفل متدثرا ملتفا بثوب أمه كأنه يستغيث ويطلب الحماية والطمأنينة من الثوب بعدما فقد صاحبة الثوب. دفعت الدولاب ورفعت الثوب عنه. رأيته أسود الشعر والعينين. لا لا لالا لالا، لا توجد أي طاقة حنان في الأرض ولا أية معجزة سماوية تستطيع ان تهدئ من روعه وذعره. كان من شدة الرعب

صاكا أسنانه وصاما كفيه. يختض ويرتعد كأنه قلب حافي منبوذ عافه الجسد. قلب تخلى عنه وطنه وبات أعزل يحتمي بشغافه فقط. تركه الجسد ينبض وحده بلا طائل ولا جدوى في هذه الوحشة الصاخبة المدوية والسافلة. ازداد نشيجه رعبا وتلاحقت أنفاسه كأنه يريد الطيران فأسكته برصاصة رحيمة أنهت عذابه ونسفت الوحوش من حوله. لم تند عنه أي صرخة أو حركة بل انفرجت أسنانه من الاصطكاك وأرخى كفيه يتفتحان كوردة صباحية. وتدحرجت من عينيه دمعتان كبيرتان، كانت محبوسة فترة طويلة ربما منذ التفافه بثوب أمه. تدحرجت من عينيه إلى خديه إلى حنكه وهبطت حارة لاسعة فوق كفي والمسدس.

بعد ستة أيام من مهمة (رصاصة الرحمة) شعرت بدبيب صاخب تحت جلدي.

أما جريمتي الثالثة فهي حين جعلت من حياة المسكين (روضان) مجزرة حية ترتكب يومياً كأي عرض مسرحي يزدحم بمتفرجين لا يملون من مشاهدته. صارت سنين عمره مثل رؤوس يتامى تتصارخ بوجه العالم الاحمق، الذي يدير راسه لا مباليا وبدون ان يسمع صراخه ولا يفهم كلمة واحدة من شكواه.

كل هذه الجرائم والاخطاء إلتصقت بي متهافتة علي، تركض ورائي من شارع لشارع ومن مدينة لمدينة ومن بلاد لبلاد، تتشبث بملابسي لتعيش بداخلي مع دمي ولحمي. كم حاولت ابعادها وطردها من غير جدوى، بل أصرت هذه الجرائم على المثول لي وخدمتي في نيل السطوة والمال.

آه كم هي ثمينة حياة هذه النملة هنا في موت جبال (الغبار الاسود) حيث شبح القطة الرمادية يجوب في أروقة قلبي المقفر، يصاحبه صدى

المواء الغامض فاضطر إلى الخروج ليلا في ظلام جبال (تورا بورا) الموحشة وأعوي، أعوي كذئب أدرك توا انه وحده يعيش على كوكب الأرض.

(٣)

يقولون لي: ان جبال (تورا بورا) مثل الحصبة والجدري لا بد للمجاهد ان يمر بها. ويزيدون في القول: هنا في العزلة تنفتح الروح وترمي أسمال الدنيا البالية. تعيش هنا بلا شهوات ولا مطامع زاهدا في الطعام والشرب حتى تصير قليل الأكل مثل الحية والعقرب. تتفرغ هنا للصلاة والصوم والمناجاة. هنا تذوب الأنا فتصير خلية في جسد الأمة بل ربما تصير أنت أمة كنبي الله ابراهيم عيه السلام. هنا تبقى روحك في تقشر مستمر حتى تدخل في نور الله وتكتشف في نزع آخر قشرة: ان الدين خراب للدنيا وتعمير للآخرة.

أنا أكبر نغل كما يصف العراقيون الحذق الداهية الذي لا تنطلي عليه أكوام الثرثرة والهراء فيكون شهيداً للهباء. أنا أكبر نغل: رضعت مع شياطين الشيوعيين وأبالسة البعثيين وعفاريت ومردة المجاهدين. كيف تنطلي علي هذه الخزعبلات الروحية خاصة وأنا أرى عكس ما يقولون ويعظون وينصحون في خطبهم ومحاضراتهم. فقد وجدتهم استهلاكيين أكثر من سكنة المدن وشرهين في أقبالهم على الدنيا ويغرقون حتى الخشم بملذات الجسد ومتع الشهوات، فهم يفرطون في تناول أنواع المخدرات التي وجددت مثيلها في أيران وباكستان. ويمارسون الشذوذ واللواط بشكل طبيعي وكأن الأمر مشروع ومباح هنا في حياة الكهوف وعزلة الجبال العارية، لكني اصطدمت بصنف غريب ومحير من المجاهدين. صنف

يحمل رؤوسا مدججة بأسلحة العمى. عمى يلف المجاهد فلا يرى كيف يقتل أمه بدون وعي وكيف يذبح أباه من الوريد للوريد بدون ان يراه. لذلك هو لا يفرق بين طفل وامراة حامل وبين الجندي والشرطي، حيث الجميع عنده سواء في دين سيفه وعقل بندقيته. مدججون بالعمى لا يرون أي شيء سوى الفوز بالشهادة حين يتكدس ويتراكم السائل المنوي في الدماغ فهو من يعمي العيون ويسد أبواب العقول فلا يستطيع المجاهد التفريق بين عنق الواقع من عنق الوهم أثناء الذبح. سائل المني ينزل إلى الخصيتين مما يجعل المجاهد مدمنا على أحلام الجنة، فالمجاهدون لا يرون الجنة إلا عبارة عن (كس) ضخم كبير يدخلون فيه بعد الشهادة وهم يتحولون مباشرة بعد الموت إلى عير مجرد عير أعمى. أما التحول الأول فيكون هنا في جبال (تورا بورا)، تحول بطيء وعميق وصاعق حين تتخذ رؤوس المجاهدين شكل فؤوس حادة وقاطعة لا تفرق بين الحجر والبشر.

هؤلاء المجاهدون حمقى وأكبر (ازواج)، سوف أجد لذة في اللعب بهم تفوق لذة اللعب بموسكو وبغداد وطهران. إذا كنت أتخيل نفسي بثلاثة رؤوس: الأول يعمل مع الشيوعيين والثاني مع الإيرانيين والثالث مع البعثيين. فأنا اليوم بصدد مزج وتوحيد الرؤوس الثلاثة برأس واحد: هو رأس المجاهد الكوني الاسطوري الذي لو تكلم ترتعد القارات وتهتاج وتنتفض البحار والمحيطات بأمواج أعلى من ناطحات السحاب. سوف يكون الازدحام على أشده في السماوات السبع بعد كل عملية أقوم بها. لا وقت للكسل وحياة البطالة للملائكة والجن والشياطين بعد اليوم، سوف أجعلهم مشغولين منهمكين ليل نهار لا يستطيع الواحد منهم حك خشمه بعدما أملأ الكون جهادا مغموسا بالشظايا والدم.

أنا لا تعبرعلي ولا تنطلي كل هذه الترهات، فكل أديان وعقائد وأحزاب الشرق الأوسط من طينة واحدة ومن معدن واحد، لذلك تتشابه

جميعها مثل التوائم. هي عقائد مصيرها الخنق والدفن كما خنقت ودفنت شعوبها. أراها اليوم تنقرض وتندثر وهي حية.

(ثبروني) وقتلوني من تكرار مفردة (السلف): لا نرتدي إلا ما لبسه السلف. وجوهنا سيماؤنا شعرنا لحيتنا كما كان السلف، بل كل مفاصل واجزاء اجسادنا يجب أن لا تنمو وتتشكل إلا كما عليه السلف. كل تفكير مفسدة وزندقة وعقم إلا تفكير السلف، فلا عقل قويم راجح ومتزن إلا عقل السلف. لذا يجب أن نأكل ونشرب ونلبس ونتزوج ونتناسل على ناموس السلف، وحتى حين نموت فسوف نموت كموت السلف.

شقوا طيزي بالسلف وأنا أردد بيني وبين نفسي: راح انعل سلفه سلفاكم يا خوات الكحبه. (على حد قول العراقيين).

الأغبياء الطناطلة السفلة يقسمون كل شيء إلى قسمين بحد السيف: ضلالة وايمان. شر وخير. مؤمنون وكفار. كل شيء اما اسود أو أبيض لا توجد درجات ألوان بين الاثنين وهكذا يدخلون في نفق الثنائيات حتى يزجوا جميع البشر في النار وهم وحدهم يفوزون بالجنة.

لكنني مضطر ان أقتنع وأومن بكل هذه السخافات والخرافات، بل يجب علي ان أزيد وأبالغ في الايمان بها والترويج لها، وقد أموت في سبيلها ويحشرونني مع طابور الشهداء الابرار. فأنا بدون الايمان بها لا أستطيع ان أنوش هدفي. وما دمت أعرف ان كل العقائد هي ضحك على ذقون البشر فماذا يهم لو جعلتها مطية لي أركبها إلى أن أصل إلى عاصمة المال والنفوذ وحكم العالم. لذلك سوف أخرج النبي المقموع والمختبئ بداخلي. فليخرج من الكهف ويعلن دعوته على الناس المنفيين هنا، لكنني أتساءل: هل سيكونون خير الاتباع لكي أغزو بهم العالم؟؟؟

أول شيء نط من رأسي هنا في عزلة جبال أكلة لحوم البشر هي عزلة

(القشلة) في بناية البريد المهجورة الواقعة وراء كواليس سوق هرج في الميدان في بغداد بمدخل شارع الرشيد بعد وزارة الدفاع. بناية البريد ضخمة فارغة لا يسكنها أحد سوى عائلة الحارس البائسة، الذين يطبخون ويعدون اشهى أنواع الكبة في غرفتهم ليبيعوها في ساحة الميدان. ثم سكنا فيها أنا وخالي الذي يعمل منظفا في مخابرات (الحاكمية)، ربما اسمها مشتق من شعار الخوارج (لا حكم إلا لله) لا أعتقد أنهم يعرفون ذلك، ولكن هل هم يعرفون حكم الله؟.

خالي (محمود) دائماً يجلب معه الكتب الممنوعة من دخول العراق ومخطوطات ممنوعة من الطبع. هذه البناية باردة ورطبة صيفاً وشتاءاً تعط بعفونة التاريخ، يهب في أروقتها وغرفها نسيم الخوف مثل القصور في أفلام الرعب. فيها غرف لا يمكن عدها وأحصاؤها لكونها متداخلة في متاهات لا أول لها ولا آخر، لكنني عثرت على غرفتين سحريتين. واحدة في الطابق الأول قرب المراحيض، اكتشفتها حين لمحت كتابا يخرج نصفه من الفجوة ما بين أسفل الباب والأرضية. حالما فتحت الباب انهالت علي أكداس كتب كادت تقتلني واموت ميتة الجاحظ لولا فزعي وارتدادي إلى الوراء من صدمة المفاجأة. صارت غرفة الكتب لي مثل منجم سحري أغوص في انفاقها كل يوم خاصة أثناء دراستي المتوسطة والثانوية، ثم في المخابرات وكلية التربية. لأن خالي (محمود) حدس موهبتي السرية فأخذني إلى مخابرات (الحاكمية)، حيث بدأ مشوار اللعب بشطرنج الدم.

الغرفة الثانية كانت في الطابق الأرضي آخر غرفة في الرواق الأخير. وجدت الباب مفتوحا تندلق منه مئات آلاف الرسائل، التي لم تصل إلى أصحابها. فكنت أتلذذ بالسطو على أسرارها، أحياناً أبكي على براءة أسلوبها وسذاجة كاتبها وهو لا يدري أي مصير غاشم ينتظره. أبلل ورق ومظاريف الرسائل بدموعي متخيلا مصائر أصحابها.

في بناية البريد المهجورة ظللت تنهشني وتتجاذبني حقيقة غموض ولادتي، وكنت حائرا مرتبكا من أين تبدأ الوقائع الحقيقة المدعومة بالارقام والتواريخ ومن أين يبدأ الوهم. كنت أتنقل غير متيقن بين الحلم والرؤياوالذاكرة. لم يسعفني خالي (محمود) لا بتعزيز الحقيقة ولا بطرد الوهم، إذ كان يتندر ويسخر فلم أحصل منه على يقين شاف كأنه يتهرب من أخباري عن أصلي وفصلي ومن أكون، مرة يقول وهو يضحك: وجدناك في الزبالة مع قشور (الرقي والبطيخ). ومرة أخرى يقول: هبت عاصفة قوية فاقتلعت نخلة كبيرة معمرة حيث وجدناك عاريا ملتصقا بجذورها. وأحيانا يقول كأنه جاد: ألم يهاجر العرب المسلمون هجرتين واحدة إلى الحبشة والأخرى إلى يثرب، فنحن في القرن العشرين وبعد (١٤) قرنا اختتمنا لعبة التاريخ وقمنا بالهجرة الثالثة إلى بغداد.

أنا لا أتذكر أي شيء عن أبي ولا عن أمي. أتخيل صورة امرأة حلمية بعيدة مغوشة تظهر وتختفي في بحيرة ذاكرتي المالحة. كأنني فعلاً خرجت من فطر الأرض فلم أعثرعلى أي قريب لي سوى خالي الذي أحسبه أمي وأبي معا، لكنني أشعر اني تنقلت بين أحضان أمهات كثيرات. طفولتي قذرة بائسة؛ قضيتها أتحسر على حذاء أذهب به إلى المدرسة وعلى أم تمشط لي شعري وتقبلني وتضع في حقيبتي نصف رغيف خبز وخيارة. دائماً كنت ألبس ثياب وأحذية أبناء خالتي. يقولون لي خالتي لكنها غريبة لأن أسم أبيها ليس (ياسين الكحلاني) أبو أمي وخالي. وعائلة خالتي المزعومة هم أيضاً فقراء معدمون يعيشون في بيت مساحته (٥٠) مترا في دور الشؤون الخاصة بالفلسطينيين في منطقة باتا (الاولى) في مدينة الحرية، حيث أنهيت دراستي الابتدائية في مدرسة (التفاني) ثم في مدرسة (الخلود)؛ مدرستين لا أتذكر منهما إلا الذل والبؤس والجوع والبرد وشوارب المعلمين السوداء كأمنية المجاهدين هنا. تعلمت السرقة مع أبناء

خالتي حين كنا نذهب إلى ساحة كرة القدم في دور نواب الضباط. هناك وبينما الجمهور مشدود إلى دراما المباريات كنا نفتح حقائب اللاعبين ونفتش ملابسهم فنسرق ما في جيوب القدر وما تجود به المصادفات. هم يشترون الكعك والبقصم والآيس كريم وأنا أشتري دفاتر للمدرسة وأقلاما.

أخذني خالي لمنطقة (القشلة) حيث بناية البريد المهجورة التي بقيت مع بعض البنايات المهجورة هناك تنتظر سنين طويلة واحدا من مصيرين، فلم يتحقق أي منهما لا رمموها واعادوها للخدمة ولا هدموها وبنوا على أنقاضها دائرة جديدة للبريد. هناك غرقت في أحلام السيطرة على العالم وأنا أغوص بين خبايا وخفايا غرفة الكتب من جهة وغرفة مقبرة الرسائل من جهة. وأعتقد ان مادة أحلامي هي من الكبة وحشوتها فقد كانت هي الطعام المفضل لي في جميع الوجبات وفي كل الاوقات. الكبة التي تعدها عائلة الحارس الفقيرة الساكنة معنا صارت لحمي وعظمي ودمي بل حتى أحلامي.

عرفت ان للعرب سطوة وحظوة بين أصناف المجاهدين الافغان وان أغلب قادتهم من السعودية استنادا إلى تاريخ الخلافة الذي استفردت بها قريش، وراحت تتشكل تسمية جديدة لنا (العرب الافغان). هنا كشفت عن إحدى روايات خالي الكثيرة عن أصلي وفصلي، التي تبدو أكثرها معقولية واقناعا لي، فأعلنت أني سعودي الجنسية: أبي (عبدالله سكران نواف) تاجر جلود كثير السفر يطوي الشرق مع الغرب والشمال مع الجنوب صادف امرأة فلسطينية في عمان اسمها (خالدة ياسين الكحلاني) فتزوجها لكنه بعد سبعة أشهر طلقها وسفرها من مكة إلى عمان وكانت حاملا بي. يقول خالي: جاءتني مطرودة مهانة وحاملا لكن ماذا أفعل أنا المشرد من بلدي والمعتدى عليه والذليل في ظل هذه الحكومات القذرة التي هاجرنا اليها. لذلك قررت الهجرة إلى العراق مع مجموعة كبيرة من الفسلطينيين.

أمك ماتت بعد ولادتك في مدينة (الرطبة) ودفناها هناك. في العراق لدي ابن عم يعمل سائقا خاصا لرجل ثري في مدينة (الاعظمية).

خالي (محمود) يوحي لي في سياق كلامه عن ولادتي وكأنني: مزقت بطن أمي وخرجت للحياة أزحف كالوحوش بعيون تبرق وتضيء في الظلام، عيون فسفورية تخترق المكان والزمان. خرجت بعدما سمعت النداء السماوي وأنا برحم أمي حين كنا نعبر تلك الصحراء المقفرة، أرض خلاء شاسعة بين الاردن والعراق. تتراءى لي هجرة أجدادي وراياتهم الخافقة بسموم الرياح اللاهبة كأنها حسرات وآهات الشمس. أسمع ضجيج وصخب الحملة على أرض السواد (بستان قريش) حيث الجميع متلهف للسطوة والثراء وشهوة للدم والاغتصاب. كل هذه الحملة بخيولها وراياتها ورسالتها أضعها الآن تحت إبطي وأنا أسمع النداء السماوي:

ـ أدخلها يا داود.. ادخلها... لك وحدك البلاد والعباد.. تحت قدميك ينبع عصر جديد.. امامك فقط تتفتح مصاريع باب العصر الجديد.. أنت آخر أبناء السماوات والأرض.

ودعت خالي (محمود) قبل التوجه لإيران ثم باكستان في رحلة ربما تكون الأخيرة فقد لا استطيع رؤيته أبدا. لم اترك لديه انطباع حول فراق طويل حتى لا يلح بأسئلته واستفساراته ويصر على معرفة وجهتي. تركت عنده شيئاً مني لكي يطمئن على رجوعي لأخذها. تركت صرة ملابس قديمة و(جنطة دبلوماسية) تحتوي على اوراق كتبتها في بناية البريد المهجورة ومسدس ابو البكرة مع اشياء للاستعمال اليومي.

وداعا يا خالي فأنا ذاهب لفض بكارة دنيا جديدة.

هامش دود رقم (٣)

اليوم فاجأتني عقرب سوداء فوق رسائل (روضان). لم يخطر في بالي قط وجود عقارب في الوزيرية. كنت دائماً أرى الانتحاري يشبه هذه العقرب شكلا وروحا، هو ينتحر حينما تطوق روحه حلقة النار مثل العقرب بالضبط حين تلدغ نفسها بعدما تيأس من الخروج من حلقة النار، ولكن العقرب أشرف وأنبل من المجاهد والانتحاري، فهي لا تؤذي إلا من يمسها أو يتحارش بها، وحين تنتحر لا تقتل سوى نفسها. لماذا توقفت العقرب على رسائل (روضان) وأي شيء أرادت ان تقوله لي؟

ثامر يرى ان الانتحاري لا يتطوع للموت إلا حين يتعانق اليأس مع الفقر في نفسه.

ولكن ماذا عن الانتحاري الثري غير المحتاج مثل السعوديين والاردينين ومن دول الخليج الذين يلعبون بالنقود لعب الزعاطيط. ماذا يقول (ثامر) عن هؤلاء وكيف يمكن تصنيفهم وفي أي خانة. وكنت قد سألته عن ظاهرة الانتحاري الثري فأجاب بدون تفكير: هؤلاء عندهم شذوذ ديني. فأنا لا استطيع ان أجد لهم عذرا أخلاقيا أو روحيا أو أجتماعيا، فالانتحاري من هذا النوع لا يستطيع التخلص من الشذوذ الديني إلا بالانتحار، ويكون قد أكد شذوذه وكرس مرضه فيبقى مدموغا بعار الشذوذ الديني إلى يوم القيامة.

بحثت عن نعل متين أضرب به العقرب، وجدته فسحقتها قبل الهروب، سحقتها حالما تذكرت الانتحاري والمجاهدين السفلة. جلست أنظر إلى أشلائها وذيلها الذي لا تزال نتف من الحياة تدب فيه، رحت أندب حظها الاسود مثلها فأي قدر مسخم أخرجك أيتها العقرب وأتورط بقتلك واتحمل تبعية إثم موتك، من أخرجك من الحفرة الغائصة في طبقات الأرض وتدبين خطوة خطوة إلى حد التوقف فوق رسائل (روضان)، هل حدث شيء له بعدما شنقته عدالة القضاء الإيراني، ماذا تقول لي العقرب برسالتها اليوم وهي تقف فوق آثار (روضان)، هل تقول انه تحول إلى شبح بعد الشنق وراح يبحث عن (داود) ليقتله مرة ثانية ولكن هذه المرة لن يترك جثته حتى يدفنها بيديه ويضع فوق القبر شاهدة من النمنم الملون لكي يراه (سيد علي) ويوقن من موته إلى الأبد؟

العالم خربان يا (روضان) وأهل الشهامة بلعتهم الأرض وانقرضوا. كنت تقول ذلك برسائلك لـ (جمال) ابن أختك في باكستان حينما وصفت صديقك (ثامر) وكأنك تراه كائنا منقرضا خرج من متاحف الشهامة والغيرة وتقول:

ـ (ثامر) يرى العالم خربان، يتدهور ويسرع في سقوطه، يرى العالم كأنه يعيش آخر أيام الشيخوخة والخرف. ثامر بعد كل ما رآه وسمعه صار لا يؤمن بأحد غير نفسه، فهو وحده، وحده من ينقذ العالم ويصلح خرابه. لا يعرف أحداً غيره يتحمل هذه المسؤولية. هو وحده، القادر على إصلاح العالم بكل رعونة الشهامة. لا أحد غيره يفعل فعله ويفكر مثله فهو وحده بمواجهة الخراب. ربما يكون حالماً كبيراً أو مشعوذاً أسطورياً أو دجالاً. لكنه فعلاً يمتلك هذه الطاقة لإنقاذ العالم ويملك الاندفاع والتهور للإصلاح والتغيير. ثم أراه يتوقف ويتراجع وهو يهمس لنفسه ويقول: قد أكون أنا خربان أيضاً مثل العالم، فكيف الخربان يصلح الخراب، ومن ينقذ العالم وينقذني؟

يستدرك (روضان) ويقول: لم أصادف شهما مثل (ثامر) الذي دلني بدون ان ينصحني بكلمة واحدة وقادني إلى الصلاة الكونية التي أذوب فيها الآن. أقول الصلاة وأعني صلاتي أنا لا صلاة الإيرانيين السياسية. فأنا أحتقر السياسة وأكرهها. السياسة عندي نجاسة، لذلك لا يمكن الجمع بين الصلاة (القداسة) مع السياسة (النجاسة). وأنا أستغرب كيف فات هذا العيب القاتل وانطلى على الإيرانيين. ثم ان صلاتي الكونية الجديدة بلا ضجيج ولا شعارات وبلا رياء ونفاق. أصلي وحدي مع نفسي وربي فقط، أتحاشى أن يراني أحد وأحاول جاهداً أن أجعل صلاتي قطعة صافية من الحب والدعوة للغفران والتسامح والمودة والإخاء، تماما عكس الصلاة السياسية التي ليس فيها ذرة حب واحدة وتدعو للكراهية والثأر والانتقام. ففي كل صلاة جمعة تنطلق أصوات جموع المصلين على مرأى ومسمع جميع البشر يهتفون: الموت لاميركا، الموت لشوروي (الاتحاد السوفيتي). الموت لإسرائيل. الموت لبريطانيا. الموت لفرنسا. الموت لالمانيا. الموت لضد ولاية الفقيه.... وهكذا يضيفون في كل أسبوع دول جديدة لقائمة الموت. كبرت القائمة وكبر الموت على مدى سنين طويلة يلعلع فوق سجادات الصلاة هتاف الموت. حتى ان الكثير من العراقيين يسخرون منهم ويقولون:

ـ ليش ما تفضونها وتهتفون: الموت لكل العالم، بدل تعداد دول العالم واحدة واحدة.

ثم انهم لا يقولون الموت لحكومة فرنسا أو لنظام فرنسا بل الموت لفرنسا، وهذا يعني شعبها.

غريبة علي هذه الصلاة واحتقرها وأنفر منها: كيف أصلي وقلبي مليء بالكراهية والانتقام. سابقا كانت الشعارات كلها تقول (يسقط فلان..

تسقط فلتانه) لكن الصلاة السياسية أدخلت شعارات (الموت) بدل (السقوط) فصارت كلها الموت الموت الموت. فهل يدعو الدين للموت وقتل البشر؟

انسقت مع هذا الكلام بسبب العقرب السوداء فهي التي جعلتني أنبش رسائل (روضان) واعثر على هذه السطور رغم اني قد أهملت بعضها وحذفت البعض الآخر.

سمعت طرقا على الباب، لا أحد يأتي بمثل هذا الوقت غير أخي (قيصر) فهذا موعده دائما.

كم أعجبتني فكرة الصلاة الكونية.

الفصل الخامس

خيال اسكندر

(١)

لا فرق عندي بين أن أكون إنساناً أو جنا أو ملاكاً أو شيطاناً، ولا أعتقد بعبقرية أحد في تحديد الفروق الاكيدة بين هذه المخلوقات. يجوز، انها تجتمع في، أنا كلها مع إضافة الحيوان والنبات وما يسمونه خطأ الجماد. أعتقد أنني أكثر من تلك العناصر الاربعة: الهواء والماء والنار والتراب. وأحب ان أكون بلا اسم فجميع الاسماء مزورة خاصة اسماء اهل جنوب العراق المذعورين دوماً من وجود القوى الخفية الكثيرة وتدخلها في حياتهم اليومية وليس اخرها (الطنطل). كانوا وما زالوا يرتعبون من كثرة موت الصبيان ويتوجسون شراً فور مولد صبي، لذلك يسمونهم بأحط وأرذل الاسماء مثل: واوي، جليب، جرو، وزبالة، عفريت، وعربيد. ولكن اشد هذه الاسماء قسوة وشذوذاً هي المتعلقة بالشرف مثل تلك الام المسكينة بعدما مات لها اربعة اولاد واحداً تلو الآخر. ما ان يولد صبي ويكبر قليلاً بالادعية والحرز والتعاويذ وبشفاعة ووصاية جميع الانبياء والأئمة حتى يحبو أو يمشي ثم بأول خطواته يموت.

حبلت ونذرت نكاية بعزرائيل والأقدار الشيطانية ومن شدة سخطها وغضبها على الموت، وبدفع من جبروت اليأس ان تسمي الوليد إذا كان صبياً باسم (منيوك)، وكأنها تشتم بهذا الاسم عزرائيل والشيطان أو من يخطف حياة أولادها منهما. شاءت الاقدار وانجبت ولد راح يكبر ولم يقترب منه ملك الموت، ربما كان يشمئز من اسمه أو انه لاً يستطيع ان

يخبر الخالق باسم الميت الذي قبض روحه. صار الولد شاباً ونبت شاربه وشعرته لكن اسمه ظل يطارده مثل لعنة ماكرة وساخرة. (منيوك) اسم حال سماعه من أحد ينفجر بضحكة فاجرة، اسمه له وقع نكتة انتقامية. وما يغيظ أكثر ان معظم اصدقائه مولعين بالسخرية والافتراء، فما ان ياتي (منيوك) إلى المقهى ويلقي التحية ينب واحد من شلة اصدقائه المشاكسين بوقاحة وهو يرد التحية: عليكم السلام هلو عيني ابو العيورة.

لهذا السبب وأسباب أخرى كثيرة فضلت ان أبقى بلا اسم، كما انني لم أجد حتى هذه اللحظة وجود اسم على مسمى، فمن كان اسمه (جميل) يظهر قبيح الوجه يزوع كل من يراه، دميم مثل شكل ضفدع. واسمه (كريم) وهو بخيل، يضع في جيبه عقرب الصحراء لكي لا يمد يده ويخرج النقود. واسم نافع وهو ضار أكثر من الاحزاب، اسمه صادق وهو اكذب الاولين والآخرين. وهكذا معظم بقية الاسماء.

الافضل أن أبقى هكذا بلا اسم يعني (بلاسم) وليس بمعنى البلسم أي العلاج والدواء، ولا معناه بدون سم زعاف، (بلاسم) لا يعني خلوه من السم.

وكذلك أنا لست شبحاً ولست بشراً ايضاً؛ أنا مثل الفواصل والفوارق الخفية بين تدرج المخلوقات في سلم التطور، أنا المسافة العضوئية اللامنظورة بين الصخرة والحشرة، بين النبات والحيوان، بين الحيوان والإنسان وبين هذا الإنسان والجن أو الملاك أو الشيطان إلى اعلى مرتبة في سلم الخلق وفوق قمة سلاسل جبال الكائنات. أنا شيء لا اقوله وأعلن عنه أو اصرح به، بل هو شيء يكتشفونه ويعرفونه من خلال حضوره على شكل سلوك وقول وموقف. أنا سر يتفتح مثل زهرة في الفجر وكذلك مثل صرة مريبة يحوص بداخلها مسخ يتحرك حال غروب الشمس.

نسيت ان أقول لنفسي قبل غيري: أنا لست عراقياً ولا إيرانياً ولا افغانياً ولا باكستانياً، ولا أي هوية وجنسية، لا أنتمي لقوم أو ملة. أتقزز من الهويات كلها وخاصة الهوية النكتة التي تدعي الهوية الخالصة النقية وكأنها فحصت مختبرياً كل المني المقذوف في الأرحام منذ اسلافهم العظام الذين لم يتبق منهم حتى رائحة العظام وحتى آخر جيل. هذه الهوية نكتة بجلاجل وهي أشد خرافة وأعظم وهماً من جميع اساطير الهويات.

صادف مروري اليوم صباحاً من أمام سينما انقلاب القريبة من ميدان فردوسي، وسمعت همساً نباتياً بين الأشجار، وبالضبط سمعت ما يدور بين شجرة صفاف يسمونها (تاليتا) مع جارتها. لاحظتها ترتجف كأن ريحاً غامضة تسربت وسرت في جذورها واغصانها واوراقها وهي تشير إلى ثلاث اشخاص قريبين منها. همست (تاليتا) لجارتها: ان جريمة ستقع. انظري إلى هؤلاء الثلاثة يتوسطهم ذاك أبو قميص الاصفر، وجهه وسيم بقبح غريب، تتلمظ ملامحه مثل لسان الحية على الرغم من جموده، بياض عينيه محمر وجنب أرنبة أنفه ثؤلول وردي، انظري إلى شعره الاسود المائل للحمرة، سمعتهم يسمونه (داود) وهم يثرثرون، يتصنعون الهدوء واللامبالاة حين يتطلعون إلى بوستر الفيلم الملصوق على واجهة السينما ـ وكان اسم الفيلم (العقرب) ـ بينما ترتعش قمصانهم من نفخات الدم الهائج المائج هل ترين؟ واشارت (تاليتا) إلى الشخص المسمى (داود) وهمست بخوف: انه يحمل سكينا مخفية الشفرة.

صحيح، فعلاً هذا يحمل تلك السكين وقد حدست الشجرة (تاليتا) نوع السكين لانها تحمل إرث ذاكرة ترتجف من أي شيء حاد. رأيت (تاليتا) كيف تشنف أوراقها لتلتقط ما يدور من كلام بين الثلاثة على الرغم من السخام المتراكم فوق الأوراق من كثرة فسو السيارات وهباب المصانع. جميع الأشجار هنا في وسط طهران وجنوبها تنتظر بفارغ الصبر

أول زخة للمطر لتستحم وتنظف جميع حواسها ولكي تبدو جميلة ندية لامعة تستدرج العيون بالنظر اليها.

هززت رأسي ويدي معاً على عبقرية العناد الحر لدى الشجرة (تاليتا) فعلى الرغم من بداية فصل الخريف وكثافة السخام والهباب الذي يطم اوراقها واغصانها، فإنها أخرجت مجسات احتياطية من بين شقوق لحاء الجذع وزوايا الاغصان، حيث أطلت براعم وردية، براعم لاقطات ترصد حركات الاشخاص الثلاثة. ثم بثت مرسلات اغصانها خبر خطورة هؤلاء إلى جميع الأشجار المحيطة بها فتسلمت الأشجار هذه الشيفرة. وفعلاً حدث ما كانت تخشاه شجرة الصفاف (تاليتا) وانتهى كل شيء بسرعة آثمة على شكل سكين مكشرة بصدر (داود).

مع الأسف، هذا الشخص الذي يسمونه (روضان) فاتته جميع الشيفرات والرموز والاشارات. لم يكن فطناً واجهزة استقباله معطلة، أهمل ذكاء جسده تاركاً غبار العادات اليومية تتراكم فوق حواسه المعروفة وغير المعروفة. فكل مخلوق في هذا الكون مجهز بمغناطيس وجوده الخاص، يتكيف مع محيطه ويدافع عن حياته، يبث ويلتقط من خلاله كيف يواصل وجوده ويطوره إلى رتبة وجودية اعلى وارفع. لكن مغناطيس روضان أعمى ومزنجر، صديء من عدم استعماله فلم يجذب الأسرار المحيطة به: تعامل بسذاجة مع اشارة التفاحة الخلابة التي تتمطى في قلبها دودة. لم ينتبه لشيفرة البنت وضرسها المقلوع. فرط بكل اشارات الطيور ورسالة هلعها وهياجها، ولماذا حاولت بكل ما لديها من طاقة في لفت انتباه روضان وما يجري حوله لكي يتوقف عن المشي ويقرر العودة فلا يتشاجر وتتلوث يديه بقتل هو ضحيته؛ لا المقتول.

حاولت الطيور أن يستوعب روضان دلالات الخطر من خلال هذا

الصخب وتطاير الريش. وحين يئست انقض الغراب الذي يسمونه (سيمو) على روضان لتمزيق قميصه فيرجع من حيث اتى، يرجع إلى غرفته ويستبدل القميص، لكن قصف الغراب (سيمو) ضاع، المسكين نقر كتف روضان بدون ان يتمزق القميص، إنما شعر بأن غراباً مجنوناً مس كتفه ولم يسأل نفسه: لماذا فعل الغراب هذا الفعل مجازفاً بحياته لهذا التهور؟

لا فائدة من الندم والاسف، انتهى كل شيء بسبب الجهل الساطع عند روضان ورأسه المدجج بالغباء فكيف يفوته تساقط وابل من اوراق الشجر وريش الطيور بدون ان يتوقف، ويتطلع في الجو وهذا المحيط الصاخب المنذر، بدون ان يتساءل عن أمر الطبيعة وما سر هياجها في هذا الصباح المفخخ؟

لو كانت الأشجار أكثر حرية في سلم الخلق لاستطالت اغصانها وهجمت على روضان تسحبه إلى أعلى قمة بين اغصانها فتكون قد منعت وقوع الجريمة.

لو ان الطيور باستطاعتها ترجمة صياحها ونعيقها وصداحها لحذرت روضان بلغته وتفادى نشوب تلك المعركة.

(٢)

حتى الآن كل شيء عادي، جريمة قتل عادية تحدث كل يوم. فكل ما حدث في جانب وقضية الدود الملتبسة والعويصة في جانب آخر. أنا سمعت ولم ارَ.

شجرة الصفاف (تاليتا) حكيمة ومصدر ثقة لاسيما ما رايته منها صباح اليوم، فكيف تخرف وتتوهم بأنها رأت الدود من تحت قبضة السكين النابتة في صدر داود، رأته يدب مع خيط الدم. وكذلك الأمر مع الغراب (سيمو) فهو قائد سرب وخبير بجغرافيا السماء، كيف يهذر وينحدر إلى مجرد غراب مراهق له خيال مشتط ويدعي بانه: لمح الدود ينز مع الدم من جرح صدر داود. الشجرة والغراب تتفق روايتهما ودقة الوصف: خيط دم رفيع نز من تحت قبضة السكين وسال على قميص داود الاصفر. لكن قبضة السكين تحركت بعنف تتمايل من جهة إلى جهة وكأن القلب انتفض وتحرك يحاول التخلص من نصل السكين بدفعها إلى الاعلى.

وفجأة طلع الدود متمرغاً بلون الدم. دود أحمر يلصف ويدب على صدر الجثة، يحاول النزول إلى الأرض لكنه اختفى على شكل فقاعات تتفجر، فقاعات دم انفجرت متناثرة ترقش القميص الأصفر.

هل أصدق هذا الهراء النباتي وهذيان غراب؟ لم أسمع قصة الدود من مصدر غيرهما، صحيح أني رأيت الغرائب وشهدت العجائب ولكن لغز

انسان مدود شيء يفرم العقول ويربك النفوس. لو افترضت حقيقة قصة الدود هذا يعني ان جريمة القتل هي الأخرى لغز، وتجر وراءها ذيلا طويلاً من الأسرار وتتخفى وراءها كومة أحاجي، وربما هي جريمة متاهة.

دوخني موضوع الدود واستحوذ على عقلي، لا بل الاصح استحوذ علي وركبني شيطانه ـ حتى شيطاني خطأ ـ ماذا اقول، اللعنة على اللغة كلها مشاكل، وأعوص مشكلة هي استحالة التخلي عنها ورفضها، فهل هي العدو الذي ما من صداقته بد؟

يمعود، استعملها مثلما يقولون: على عواهنها و(خلي شيصير خلي يصير قابل راح اكفر).

اذا عرفت من يكون داود وما وراءه سوف أعرف لغز الدود. عندي مصادر كثيرة ومتوفرة، كيفما أغرف سوف أعرف من بحر المعلومات المتلاطم هذا. انطلق في زورقك الشبحي يا أنا فالعالم في خطر.

(٣)

في البدء تتبعت خطى الأشجار اللامرئية ومسرى الطيور التي حلقت خلف روضان الراكض بين ازدحام المارة، المشتعلة رؤوسهم بهموم العيش ومحنة البقاء، المساكين يمشون بأرواح منطفئة غير مبالين لما يحاك لهم من دسائس ومخططات. كل واحد فيهم غاطس في جيب نفسه ناسياً انه حي يرزق، فلا يرى ويلتقط الجمال المبذول في شوارع طهران وأسرار أشجارها وطيورها وبقية مخلوقاتها، مشلول بالعادات اليومية ورتابة الواقع فلا يعرف كيفية التمتع بجو طهران، الذي يرفل باربعة فصول شبعانة ومكتفية بما لديها فلا يسرق الشتاء أيام الربيع ولا يطمع الصيف بايام الخريف. عجيب أمر هؤلاء المارة لا يبالون ولا يتلفتون لاشعاعات جمال النساء الإيرانيات ورشاقة خطاهن، المرأة الإيرانية فتنة تمشي بقدمين يتدفق منهما كنز الحياة، هي نبع عطش للعين مهما ارتوت لا تشبع ولا تقنع. نساء طهران يتنافسن جمالاً، كل واحدة تقول أنا الاجمل وحسب تعبير العراقيين (يشكّن الطيز شكّ)، بينما المارة المساكين غائصين في دوامة العيش، عجولين مسرعين وقد اضاعوا انفسهم بمتاهة الواقع، يائسين من العثور على ذاتهم، التي ربما ضاعت إلى الأبد، فهل يأتي يوم تجد فيه الذات الإيرانية نفسها وتثأر من هذا العدم العقائدي؟

اكتشفت ان الطيور واكبت روضان من سينما انقلاب وحتى جلوسه تحت شجرة الزعرور الاحمر، التي انتقلت إليها اخبار حادثة مقتل داود.

لأني سمعت جميع الأشجار والطيور تتراطن من مكان الجريمة وحتى متنزه (بارك لاله)، جميعهم يتساءلون بعطف غريزي: هل ضرب روضان عش الوحش وهيج لعاب الانتقام، والى اين يهرب هذا القاتل الغشيم، هذا الوحيد الغريب الساذج؟

انا أقول ان روضان ليس قاتلاً بريئاً تماماً كما تراه الأشجار والطيور فقانون الحياة يدين الجهلة والأغبياء ولا يغمض أو يتساهل مع كل أرعن أو ساذج.

طبعاً، وهذا أمر مفروغ منه وعادي ان لا يسمع روضان نحيب شجرة الزعرور الأحمر، ولم يلاحظ دموعها وهي تسيل على الاغصان، تبكي لأنها عاجزة عن مساعدته ولا تستطيع ضمه وإيواءه، غير قادرة على حمايته واحتضانه، فبقيت تختض وترتعد حتى أجهشت بالزعرور الأحمر.

بسرعة غير متوقعة عرفت كل شيء من خلال صيادي الأخبار عن الجريمة وداود الذي لم يبت أحد بموته لا من البشر الذين صادف مرورهم أثناء المعركة باستثناء الشخصين اللذين كانا مع داود. كل شهود العيان من البشر والأشجار والطيور وغيرهم لاحظوا داود يتحرك حين وضعوه في سيارة (بيكَان) صغيرة لونها برتقالي، جاءت مسرعة فور هروب روضان. فهل من المعقول ان داود ما يزال حياً على الرغم من خروج ثلاثة توابيت لتشييعه، في بغداد وطهران وموسكو حسب ما وردني من اخبار مؤكدة. ولم تحسم عندي حتى الآن قضية موته وقضية لغز الدود.

قضية الدود لا تزال عويصة وغامضة وقد تحمل الكثير من المفاجآت، إذ لم يتم اثباتها بالادلة الدامغة وكذلك مستحيل نفيها نفياً قاطعاً، وكعادة البشر دائماً حين يتصاعد دخان الاشاعات عن الدود فيعمي العيون ويشتد السعال، حيث يكثر الهمس والهلع بين الناس عن وجود اصابات بهذا

المرض الجديد وعن رؤية الدود بالعين المجردة من قبل شهود حياديين لا يضخمون الحبة إلى قبة ولا يصغرون البحر إلى بركة. ويتفاقم الأمر إلى حد ان يراجع بعض الناس عيادات الاطباء ويقوموا بتحليل دمهم وتصوير أعضائهم بالأشعة في المستشفيات خوفاً من احتمالات الاصابة بمرض الدود على غفلة منهم. وفي أحيان أخرى يتلاشى الهمس المذعور وتخفت حدة القيل والقال حول وباء الدود، ثم تدفن ذكراه فلا يلهج به لسان وكأنه جريمة سجلت ضد مجهول، يوارى بالتراب وتغلق القضية حتى تتحول الشائعات إلى مجرد رماد مبعثر يلعب به الاطفال الزعاطيط.

غرفة معلوماتي تقول بأن الجهات الرسمية لم تسجل اصابة واحدة بمرض الدود على الرغم وكما هو معروف أن السلطات تحاول إخفاء وجود الوباء وعدم إثارة الهلع بين الناس كما حدث مع أمراض وأوبئة خلفت المئات وآلالاف من الضحايا.

ربما تكون ضجة الدود إحدى هذيانات حمى الحرب الطاحنة على جبهات القتال على طول الشريط الحدودي بين العراق وإيران، أو ربما تكون ضجة الدود مؤامرة امبريالية ودعاية صهيونية كما يسميها الكثير ممن يريد طمس جبل فضيحة بملاءة طفل.

ويقول اخرون ان القضية برمتها نكتة سوداء؛ نتاج خيال مريض وربما هي قصيدة شاعر.

ان مجرد اثنين أو ثلاثة شاهدوا دبيب الدود مع خيط الدم من جرح داود لا يعني إطلاقاً أن مرضاً فتاكاً قد انتشر تواً. قد يكون هؤلاء الشهود مربكين أذهلهم منظر المعركة فخدعتهم عيونهم برؤية خروج الدود.

صحيح انهم وصفوا شكل الدود بوضوح ودقة لا يقبلان الشك والطعن، لكن ربما هي هلوسة العين من شدة الخوف والذعر قد رسمت لهم هذا الوهم بعدما صورت لهم ادمغتهم المصدومة منظر الدود.

وهناك من يشتط بخياله ويبالغ حول استشراء وباء الدود وكيف ان شكل وحجم الدود يختلف من شخص إلى آخر ومن بلد إلى بلد، فيصفون الدود الافغاني كيف يختلف عن الدود الإيراني وعن العراقي والباكستاني، وهم يعترفون بعدم معرفة لون وشكل وحجم الدود في بقية بلدان العالم لانهم لم يذهبوا هناك، وهم غير واثقين من أن بقية دول العالم تعاني الوباء أم لا ولو بشكل سري؟

والأعوص من ذلك كله يؤكد هؤلاء وجود منظمات سرية جندت نفسها للدفاع عن الطبيعة والصحة العالمية ومصير البشرية، تعمل ليل نهار على جمع الادلة والعينات ورصد حالات الاصابة بمرض الدود لسكان الأرض بواسطة شبكات خفية تضم فلاسفة ومفكرين وادباء وعلماء وفنانين بمختلف الاختصاصات، يتبادلون الأخبار والمعلومات والاراء حول كارثة بشرية هي أخطر من السلاح النووي، لأن مرض الدود وباء ذكي وسريع التطور، مجهز بطاقة غريزة تفوق أعظم العقول البشرية. وان هذه الكارثة قد بدأت بالفعل من دون ضجيج وبلا ضحايا كثيرة تلفت النظر، هي كارثة تدب كالنملة وتصفي حساباتها مع المصابين بهدوء وخلسة، تنتقم منهم ببراءة مقدسة لا يشك بها أعظم المرتابين.

في جوف الليل توالى الطرق والدق المجنون على باب رأسي. ايقظني مفزوعاً وأنا غارق في صفنة دسمة من التفكير. فتحت الباب فكان أحد صيادي الأخبار اسمه (فهد السماك) وهو شبح عراقي تعتعه السكر والثمل وانسرد يقول بلا تحية ولا سلام:

(٤)

كان ياما كان لا في قديم الزمان ولا في مستقبل يأتي بعد فوات الأوان، بل كان الآن شاب لا قبيح ولا مليح اسمه روضان، هذا المسكين الحزنان (ما يندل كسه من اللحاف)، و(لا يعرف الجك من البك). روضان يعيش في لب طهران يدير وجهه وقلبه للفتيات الحسان، طهران الجميلة الشوارع والأشجار والجو والنساء خيمت عليها حكومة خنفساء، سخمت كل جميل حتى الثلج في الشوارع وعلى الأشجار والبيوت الجبال صار اسود ذليل. روضان شاب تقي نقي منقطع للصلاة يقوم قبل الاذان يتوضأ ويقرأ القرآن، لكن بلايا الدنيا كثيرة ورزاياها مريرة وهي ميدان امتحان حيث يكرم المرء أو يهان. فكان امتحانه في لغز داود، الذي هو شخص وعر تفر خطر يحمل في قلبه وباء الدود. وما ادراك ما الدود، انه العدو الحميم والصديق اللدود، مرض يفتك بكل مجرم حقود. روضان ابو صوت الموت الوجعان روضان ابو النمنم المتسرنم (كاتله الحرمس نايم ورجليه بالشمس) يقدس داود مثل اليمشي بدرب مسدود يغسل جواربه وينظف مزاربه لا يدري كسكران في درب الجلجلة ولا يعرف انه يعيش داخل قنبلة. روضان القاتل المكّرود هو الوحيد الذي نجا من علة الدود، فكل القتلة السفلة مصابون بوباء الدود. ومثلما بدأ البحر بقطرة كذلك يبدأ المجرم بدودة واحدة حرة، ثم يتكاثر ويتناثر مع كل جريمة جديدة وضحية طريدة حتى يصير قلب المجرم الجلمود مضخة لانتاج

وتفقيس الدود. صدام مثلاً أعظم المدودين طراً إذ لم تبق فيه خلية سالمة أبداً، صار الرئيس الخسيس مرتعاً للدود الولود عاصمته القلب ورايته جمجمة الحرب، كأن صدام لوحده فقط مفاعل دودي ووكر نووي هذا الكلب ابن الكلب. وراح يبث العدوى وانتشرت البلوى وعم الوباء وانتقل، إلى كل من يحيط بهذا الرئيس النغل، استشرى بسرعة مذهلة في مديريات الأمن وبسهولة مقبلة غير مدبرة في مديريات الأمن واجهزة الفتن: مخابرات استخبارات ورفاق حزب البعث في المقرات، فوصل المرض إلى حد التقليد والتقريد لشخصية القائد المدود الصنديد، صار الوباء تقليعة و(مودة) يقلدون شواربه ولون جواربه واعوجاج فمه وسمعته السودة يتشبهون بحركاته و(فيكاته وبوزاته) المعهودة. تفشى وباء الدود بروح التقليد والتمجيد وصار تقليداً عاماً وشاملاً لا يفلت منه الا الحر العنيد، انقلب الشذوذ إلى قاعدة كانقلاب الخنزير إلى أمة واحدة، ومدعاة للفخر والظفر واسطورة للعز والنطز والتباهي بأمجاد هامدة.

اووه.. كفى هذراً وحماقة فلقد صرت سجاع بني صفاقة. اخذني (الواهس) واغراني السجع بينما نحن الآن في عصر (الهجع).

(٥)

انهالت عليّ سياط أخبار الدود تجلدني بلا رحمة وتختار أرق المواضع في جسدي واكثرها حساسية حتى انتفخ قلبي بزفير الرعب، إذ دخل بعد (فهد السماك) صياد اخبار افغاني يقول انه شاعر وكاتب معروف في قندهار، هذه المدينة صارت رهينة بيد المجاهدين الافغان الذين سجنوا عامة الناس داخل قضبان دين متوحش، ليس الدين الاسلامي الذي نعرفه إنما دين قبيح ودموي لا يتفاهم مثل وجه رجل الدين السعودي الذي يقود هؤلاء المجاهدين ولا نعرف اسمه. يقول الشاعر القندهاري: عندما بدأت السلطة السوفيتية في افغانستان تضعف وتنحل ازدادت قوة وهيمنة المجاهدين فاجبروا الرجال إلى قص ثيابهم لحد الركبة رغم ان القماش كثير ورخيص، وأرغموا النساء على لبس القناع وتطويل ثيابهن لحد الأرض، حرموا علينا تناول الطرشي وصناعته بحجة ان عصر الرسول لا يوجد فيه طرشي، وألبسوا المعزات لباسا داخليا لأن عورتها مفضوحة، ومنعوا الاطفال من التعلم في المدارس لأن التعليم يزعزع الايمان. المهم انقلبت حياتنا إلى خوف من كل شيء وأي شيء لأن بورصة الحلال والحرام في ارتفاع وانخفاض وتغير مستمر. وكنا نُصلب أحياناً خمس مرات في اليوم ونحن نصلي في مقابر جماعية بعد نفير الاذان المرعب فالذبح وإقامة الحد احلى لعبة عند المجاهدين، يتسلون بها من الضجر وتصحر الحياة الخالية من السلوى. قلت لنفسي انني احمل امانة إلهية

للشهادة على عصري، وبما انني كاتب فعلي الإدلاء بشهادتي عما اراه واسمعه واعيشه، اخذت جميع الاحتياطات والحذر من إقفال الباب الخارجي وباب غرفتي والدخول إلى سردابي السري لابدأ بالكتابة. أحضرت الاوراق والدفاتر وكل ما عندي من أقلام حبر وجاف ورصاص مختلفة الالوان والحجوم. فتحت الدفتر الكبير الابيض وتناولت افضل اقلامي وكتبت:

هذه وثيقة سرية لفضح....

توقف القلم وسكت، قلت ربما نفد الحبر منه ووشل. ملأته من المحبرة الصينية وبدأت أكمل العبارة لكنه لم يستجب واضرب عن الكتابة برغم كل محاولات التوسل والتصليح وتفريغه وملئه مرات ومرات لكنه حرن ومات.

تناولت قلم الحبر الثاني وتكرر رفضه للكتابة صامتاً بخرس غير معقول.

جربت قلم الحبر الثالث فانضم إلى اخوته في الإضراب عن الكتابة. حاولت مع أقلام الجاف واحداً بعد الآخر، أشخط على راحة يدي فيكتب وعلى الورق يرفض، أشخط على اذيال قميصي يكتب بسلاسة مثل أي قلم حي معافى وعلى الورق ينقطع نفسه ويموت مختنقاً. اخرجت كل ذخيرتي من أقلام الرصاص والغريب ان سلاة القلم تنكسر حال مسها الورقة فأبريه وأقطه وأشذبه بالمقطاطة والموس لكنه ينكسر وينكسر حتى صار بحجم نواة التمر. وتكررت الحالة مع جميع أقلام الرصاص التي تناثرت على الأرض كأنها جثث اطفال. اشتعلت بغضب أحرق دمي من طلسم هذا الخرس العجيب، وتصاعد الغيظ إلى صدغي وشعرت بدخان يتسلل من عيوني واذني وانفي وفمي، امسكت المحبرة الصينية وهجمت على الاقلام

أهشمها إلى أشلاء صغيرة، ثم التفت إلى الورق الشامت بي ببياضه الساطع الذي يسخر مني ويستشيط في أحشائي. بصقت عليه ومزقته إلى وذر مطعجة ومكموشة. سمعت طرقاً على الباب، ضربات ونغمات الدق ليست لصديق. خرجت من السرداب واخفيته بصندوق ملابسي الكبير في غرفتي. فتحت الباب كان جاري المجاهد (عبدالرحمن برادرخان)، دخل بدون استئذان مني، وهو يتطلع إلى غرفتي، جلس واضعاً بندقيته (الكلاشنكوف) امامه وراح يستجوبني باسئلة ملتوية خبيثة وأنا أعد الشاي، وكان اخرها:

ـ هل تأتي معنا غداً بعد صلاة الفجر نرجم (هند) الفاجرة التي وجدنا عندها (عيوره) اصطناعية من البلاستيك.. اعترفت انها اشترتها من السعودية في أثناء أدائها فريضة الحج.

وعدته خيراً وانني سوف أترك كل اشغالي واحضر حفلة الرجم. شرب الشاي ونهض حاملاً رشاشته. فتح باب الدار وخطا نصف خطوة في الشارع فدوى صوت إطلاق رصاصة وسقط إلى الوراء فوقي داخل بيتي. رأيت انبجاس دم في صدره، ازحت ثيابه عن الصدر، وهنا المصيبة الشمطاء التي جعلتني احضر إلى هنا قربك. رأيت دوداً أحمر يلصف يدب مع نزيف الدم من ثقب في صدره. دود، دود طير عقلي وجئت أركض من قندهار إلى طهران، هل رأيت أو سمعت عن دود في دم البشر؟

ربت على كتف الشاعر القندهاري وطمأنته ذاهباً به إلى لغز رفض الاقلام للكتابة وقلت له:

ـ إن أقلامك أذكى منك في قراءة الواقع، هي قد حفرت طبقات الرعب واكتشفت معنى جهنم التي صنعها المجاهدون الافغان، فالاقلام لا تريد توريطك مع تلك الذئاب المسعورة. خرست من الرعب اللامرئي

الذي شلها وجف الحبر في عروقها خشية على مصيرك من القصاص وإقامة الحد عليك بتهمة الكفر. انقذك حدس اقلامك العبقرية.

اجابني متلعثماً حانقاً:

ـ لم اتصور ان عقيدتهم قد تدودت إلى هذه الدرجة. وراح يسألني:

ـ هل يأتي الدود من الخارج ويتغلغل إلى داخل الجسد، أم هو ينبع من احشاء الجسد نفسه؟ هل تنتقل بيوض الدود كعدوى مثل دود الامعاء والمستقيم ودودة الوحيدة أثناء خروجها مع الغائط والفضلات؟ هل هي عدوى انتقالية تصيب الضالعين في النذالة مثل هذا المجاهد؟ ثم راح يقول:

ـ لا ازال غير مصدق عيني ويذبحني الشك فكيف يصدقني الناس وأنت؟

أثار الشاعر بأسئلته المدوخة مخيلتي ونبتت فوقها اسئلة مثل التماسيح:

ـ هل الدود هو نفسه الدم لكنه تدود، وهل هو تحت الجلد أم داخل اللحم والعظم، هل توجد علامة أو أعراض على الشخص المصاب غير انبثاق الدود، هل يوجد اثر أو شيء يفضح هوية الدوديين مثل لون السحنة وبشرة الوجه أو اشارة في العيون والشفاه أو أطراف الأصابع أو رائحة خاصة يفرزها الجسم للتخلص من نتانة صاحبه وتفسخ روحه؟ من هم هؤلاء المتدودون أو حملة الدود وكيف يمكن تمييزهم؟

وهل الدود مرض أم علاج؟

(٦)

يبدو ان هذه الليلة لا تنقضي بسلام، إذ ازدحمت غرفتي بصيادي الأخبار من جنسيات مختلفة. تورطت ورطة مخيفة بإعلان حاجتي لمعرفة قضية الدود، داعياً كل من رأى الدود بالعين المجردة لا تشبه دعوة من يرى هلال العيد في آخر يوم من رمضان. أطلقت بث الاعلان إلى جميع مصادري من النبات والحشرات والحيوان والإنسان وكائنات أخرى لم نتوصل إلى تسميتهم بشكل واضح ومقنع حتى الآن. وأعطيتهم عنواني.

الاستنتاج المفرح والسار بعد فحص وتنقية وتشذيب الأخبار كلها: ان مرض الدود يصيب القتلة المجرمين فقط. وكان آخر من طرق باب رأسي موظف إيراني يعمل في مخيم (كرج) للاجئين العراقيين قال: هناك شخص يريد الاعتراف قبل الانتحار وارسلني لتسمعه أنت ومن تختاره للمجيء معك. هيا بنا أدلك على مكانه وأذهب أنا في حال سبيلي. يقول ان اعترافه خطير ومدوي. هل تأتي أم لا فأنا مستعجل وعندي ألف قضية؟

اخذت معي كل الحشود في غرفتي من صيادي الأخبار لحضور زفاف المنتحر. تجاوزنا منطقة (شاه عبدالعظيم) ومقبرة (بهشتي زهراء) حتى وصلنا إلى بيت منعزل في البرية ينوس بضوء ضعيف على وشك الانطفاء. اشار لنا الموظف الإيراني: ذاك البيت ستجدون المنتحر في انتظاركم. انتهى عملي وسأرجع (خدا حافيز) واختفى مثل شمعة سوداء انطفأت وذابت في الظلام. رفعت يدي في الهواء لأطرق الباب، لكن الباب انفتح

وظهر شخص يرتدي دشداشة بيضاء، وسيم الوجه بلحية سوداء مشذبة كأنه أرنست همنغواي في شبابه، وبقيت يدي معلقة في الهواء. ابتسم وقال: تفضلوا. بفرمه اغاي. ويل كم.

حاولت قراءة هذا الشخص من الغلاف إلى الغلاف فلم أفهم منه شيئاً، شخص وعر مدرب على اخفاء هويته ومشاعره، لم يكن وسيماً بل وجه مشفر ملغز حاد الملامح، كأنها سكاكين، لا يزال يحتفظ بآثار وسامة كانت له في الطفولة. هو الآن يرزح تحت ثقل جبل من الندم يحاول إخفاءه. قادنا إلى غرفة كبيرة فيها صور الامام الخميني ومنتظري وعلي خامنئي وبهشتي واردبيلي ومشكيني. جلسنا على قنفات وعلى أرض مفروشة بالسجاد في وسطها سماور شاي يغلي ويتصاعد منه البخار. قال: من يريد الشاي يصب ويشرب، ثم نظر باتجاهي وقال بلا مقدمات ولا تمهيد:

ـ أنا من حملة الدود، أشعر ان دمي يتدود. ارجوكم حافظوا على هدوئكم وامسكوا اعصابكم بلا خوف ولا ذعر. أنا على حافة الموت، ربما أكون النشاز الأول والاستثناء الوحيد بين حملة الدود، يجوز ان ضميري لم يتأكل نهائياً مثلهم ولم تتعفن اخلاقي كلياً. وقد تكون هي صحوة موت دفعتني إلى أن أرسل بطلبكم لابوح بأخطر الأسرار هولاً؛ لا أريد الدخول في التفاصيل العويصة جداً والمكشوفة جداً، كما ان وقتي ضيق لوضع حد لخلاصي ووقتكم أضيق لسماعي. وهذه البداية: كنت صبياً بهي الجمال فاتن الطلعة، أرى الاعجاب والترحاب في عيون الناس. الجميع يسعون للتقرب مني حتى ان اهلي يفرقون ما بيني وبين اخوتي وحدثت مشاكل كثيرة. هكذا سطع نجمي فوق اخوتي وربعي وصار اسمي فوق كل لسان (وين راح سمير وين صار سمير). يتنافسون ويتسارعون في تلبية مطالبي النزقة والكثيرة. أنا عكس قصة النبي يوسف بالضبط. أنا

مدلل يخافون عليّ من الأرض، دائماً مرفوع فوق الرؤوس. فتناوشتني الايدي القذرة ولحستني شوارب ذئب أمعط. في واحدة من تجوالاتي النزقية حينما ذهبنا في سفرة إلى بيت خالي في (اليوسفية) جنوب بغداد وانفردت عن بقية اخوتي، دخلت مزرعة تشبه الجنة لكن فاجأني خروج مسلحين اقتادوني إلى قصر حجري أصفر وسط المزرعة.

ادخلوني إلى غرفة سمعت المسلحين يسمونها (غرفة السجود). رأيت رجلا يتلامظ منتوف الوجه أحلس أملص ما عدا شوارب سودا فاحمة وشعرا أسود مثلها. عمره تجاوز الخمسين، عرفت في ما بعد انه يصبغ شعره وشواربه. كما قلت لكم لا أريد الدخول في التفاصيل المشينة، فقد اغتصبني وبدأ خرابي من تلك الغرفة وأنا فعلاً خرمشت السجاد اصرخ واستنجد بلا مجيب. انخرطت في جهاز المخابرات لانتقم من تلك الشوارب المصبوغة. ورحت اشق طريقي المأبون، تتساقط من حولي الضحايا وخاصة النساء إذ سرعان ما يقعن في فخ جمالي.

ارجوكم أتوسل اليكم ان تحتقروني وأتمنى ان تملؤوا وجهي بالبصاق فقد اغتصبت بنت خالي في اليوسفية عمرها ثلاث عشر سنة. قتلها أخوتها وخالي غسلاً للعار ولم تنطق بأسمي، لا تزال صورتها معلقة باربعة مسامير على جدار قلبي. صورة نقية العفة وساطعة أطهر من أي مخلوق صادفته. نسيت الانتقام لنفسي من الشوارب المصبوغة لكثرة ما رأيت من فظاعات في دهاليز المخابرات، ولشدة نذالتي وما اقترفت يداي. والمفارقة الساخرة التي أضحكت نفسي علي: ان صاحب الشوارب الفاحمة (مغتصبي) هو من أشرف على تدريبي وجعلني من جلاوزته المخلصين. أنهيت دورة تدريبية في الحفر على الجسد البشري وكيفية انتزاع الاعترافات من أصلب المعتقلين. ذاع صيتي بين رفاقي بسرعة، وراح أي معتقل يهددونه بي يرتجف ويسبح بالعرق واحياناً يغمى عليه حين يقولون له: أنت لا يفيد

معك الا النباش. يقصدونني انا. وكنت أهين براعتي وقدرتي إذا استخدمت الوسائل التقليدية في الاستجواب مثل اللجوء إلى عائلة المعتقل وتعذيبهم أمامه كي يعترف. فهذه الوسائل تقلل من شأني وتحط من سطوتي كمحترف من أشهر المنقبين عن كنوز الاعترافات في الجسد البشري. كما استخف واستنكف من ممارسة أعتق وأشهر أساليب التعذيب التقليدية مثل الجلوس فوق قناني ال (بيسي كولا) التي راح الشعب يتدرب عليها، لأن المواطن على يقين من اعتقاله ان لم يكن اليوم فغد، وهكذا توسع (طيز) الشعب لدرجة استخدامه كمخبأ للممنوعات وتخلص الناس نهائياً من مرض البواسير وصارت أزمة في الحصول على (بطل) البيسي كولا. اما قلع الاظافر فتلك طريقة بدائية حتى ان بعض الاباء والمعلمين راحوا يستعملونها مع الاطفال المشاكسين، ثم ان معظم الناس قد اختفت اظافرهم حينما راحوا يقرضونها باسنانهم من شدة القلق. ثم ان التعذيب بالكهرباء وصعق الدم ودس سلك الكهرباء في جرح حساس للمعتقل أو في فتحة عضوه التناسلي، ذلك تعذيب يستعمله المحقق الفاشل واليائس لأنه يؤدي في معظم الحالات إلى خسارة الاعترافات بموت المعتقل. وكذلك ثبت فشل التعذيب بواسطة الافاعي والعقارب لأن الشعب راح يشتريها كحشرات داجنة وأدمن الناس على سمومها. هكذا دخل التعذيب في عصب الحياة اليومية مع الهواء والماء والطعام، فمن لا يتعذب غريب عن الشعب و(لا هو منا ولا شرب من دجلة وفرات). وهذا بالضبط ما جعل مهنتي عسيرة في انتزاع الاعتراف واستنطاق المتهم، ولكي استدرك الفشل كنت أغوص في جسد المعتقل، أتلمس أكثر المناطق وجعاً وايلاماً واثارة للهلع. في البدء أقرأ المتهم من تحت جلده واكتشف من أي شيء يخاف ويرتعب، أقرأ كابوسه الشخصي في دهاليز لحمه ودمه وعظمه، ابدأ بفحصه مثل الطبيب الخبير، وهنا أمارس الضغط على مكمن الضعف.

أقشر خثرة جرح غافي لا يخطر على باله، فاذا صرخ أحلل وأفكك نغمة الصرخة ورنينها وأرجعها إلى البواعث الاولية: هل هي صرخة كذب يحاول المتهم فيها خداعي ومنعي كي لا أغوص أكثر واتوقف عن النبش، وهذه لا تنطلي عليّ، أم هي صرخة استغاثة مني إليّ لمنعي من التمادي الجسور والفذ في استلال هواء الروح، أم هي صرخة أصدق من كل هذيانات الجسد ومن جميع ما نطق به. بعدما أفهم غاية الصرخة يبدأ المعتقل بالتخلي عن نفسه، حيث تندلع هزات وزلازل في جسده، تفسخه إلى اجزاء منفصلة مستقلة، كل جزء يحاول الخلاص وانهاء عذابه قبل الآخر، ونهاية العذاب هي الاعتراف، فلماذا لا يعترف ويفلت من هول الالم؟. وهكذا تبدأ أعضاء الجسد بالاعتراف وهي ترغم اللسان على النطق بكل ما يرغب فيه الجلاد المحقق خارج سيطرة العقل. ويستمر انثيال الاعترافات ويكاد عملي يكتمل على أحسن وجه لكن قلبي يضرب على صدري خائفاً متوجساً من توقف قلب المعتقل عن النبض وتضيع حفرياتي وتحرياتي، وأخرج من موقع التنقيب بجثة تسخر من موهبتي وبراعتي، جثة المعتقل تشمت بصيتي وخبرتي.

فهل تدود دمي من حفلات التعذيب هذه؟ ان كل جسد جرحته يترك ندبة متقيحة في روحي. كل صرخة متهم تقفز وتخترق صدري مثل رصاصة يتيمة يدوي صداها من ضلع إلى ضلع لا تخبو هذه الصرخة أبداً. كم كنت غبياً صلفاً وأخرقَ حين ايقنت ان الميت قد مات وتلاشى إلى الأبد. لم أتخيل قط ان الموتى على يدي وبسببي يعيشون داخلي، يبنون أعشاش موتهم في خفايا جسدي ونفسي وروحي.

هل ان الدود في جسدي خلقته وجوه ضحاياي، هل دمهم الذي يطالب بالثأر والانتقام تحول إلى دود في جسدي ودمي؟

كم كنت أحمقَ وأرعن، آه آه، ما كنت أعرف ان الميت لا يموت.

(٧)

سكت (سمير) وصب له كوب شاي من (القوري) الذي فوق السماور. شربه وأخرج سيجارة (بهمن) اشعلها وسرف منها الدخان مع نفس عميق عميق حتى خيّل إليّ أن الدخان قد وصل اظافر قدميه، إذ لم يخرج لا من فمه ولا من منخريه.

نظر إليّ وقال:

ـ أنا لا أعرف اسمك ياجامع الأخبار ولكن ما قيمة وأهمية الأسماء... انظر إلى وجهي وتمعن وفكر، انظر ماذا فعلت بي وسامتي، حدق بجمالي كيف تدود وصار الأقبح منذ فجر الخليقة وحتى الان؟ انظر كيف قسا عليّ الجميع وخاصة أهلي بدلالهم لي، انظر كيف افسدتني الاحضان المحبة، أفسدتني وهي تطأطيء لي رؤوسها وتحني لي ظهورها. صاروا مطية نزقي وشهوتي وجرائمي وفظاعاتي، واخيراً مطية للدود. حبهم الذليل الخانع هو حب العبيد الذي دهور عقلي. هم من أعطى جسدي وجبة دسمة للدود، فأنا الآن قبطان سفينة الانانية، احب شم خرائي وأتقزز من شم عنبر وقداح غيري.

الكلام يرهقني ويوجعني لكنه ينظفني من وسخ وقذارة حياتي كلها.. هذا الاعتراف والبوح يخفف عني عبء نفسي على الرغم من ان احشائي تتآكل وتنصهر، واشعر بأني أركس وأطمس في بئر جسدي. الدود المجيد

المنتقم يلتهمني بوصة بوصة، يقرض حياتي ببطء مع حركة دبيبه. الدود يشرب روحي قطرة بعد قطرة، وكلما أفضي وأعترف بأسراري يكف عن الأكل والنهش.

استيقظت عندي مشاعر الانتقام من مغتصبي ومن شواربه المصبوغة أثناء صفقة الجرذان الهندية في دلهي، إذ كان يترأس الوفد الذي استورد (٥٠٠) الف جرذ هندي سيتم إطلاقها في مدينة الثورة بواسطة سيارات خاصة أثناء الليل. قال لنا رئيس الوفد (مغتصبي) انها جرذان خاصة بالمجاري تعمل بنشاط غريزي على عدم انسداد المجاري وهي موجودة في أغلب مدن العالم استوردوها من الهند. فقلت له في عبي (سولفهه على الدبه)، لو كان هذا الأمر صحيحا لأرسلوا وفداً من مديرية الماء والمجاري لا وفدا من المخابرات.

دخلت إلى غرفته في الفندق الذي لا اتذكر اسمه وسط دلهي. قيدته على سريره وهو نائم لكنه فز مرتعباً وراح يجعر فحشرت فمه بالمنشفة بالخاولي، وبسرعة قطعت ذكره مع خصيتيه. فاذهلني منظر الدود مع نزيف الدم أكثر مما اذهلني اندلاق عينيه وخروجهما من موقيهما. أدركت آنذاك انني مثله متدود. وقبل ان يفطس ويموت بلحظات أخرجت الخاولي من فمه ودحست ذكره مع خصيتيه في حلقه المفتوح.

اتهموا منظفاً مسكيناً بالجريمة لأن القتيل تحرش به قبل ليلة واشتكى هذا المسكين منه، لكن بقية الوفد شكوا بي، ولهذا السبب عاقبوني بنقلي للعمل في طهران بحجة قدرتي ومهارة خداع العدو واتقان اللغة الفارسية وإلا فهم لا يستغنون عني في حلبات التعذيب والاستجواب كنباش ملأ صيته دهاليز جهاز المخابرات.

أول أعمالي هنا في طهران هي المحاولة في استدراج موظفين يعملون

في مخيمات اللاجئين العراقيين، نعطيهم اسماء من نحتاج إليهم لنقص في تحقيق يجري في المعتقلات في بغداد أو من نريدهم أمواتا لا احياء وما شابه من الحاجات. كنا نعقد صفقات بيع وشراء اللاجئين. ثم عملت مع شخص نادر الذكاء وعبقري في الجرائم السرية والتصفيات والاغتيالات. يشتغل في إحدى دوائر (البسيج) الخاصة بالتطوع للحرب. وكذلك هو رفيق من أعظم الكوادر في الحزب الشيوعي العراقي إذ يزودنا بكل ما نحتاج إليه عن تحركاتهم ونواياهم. لكنني سمعت البارحة انه قتل في شجار عرضي، وأنا أشك بلعبة موته مقتولاً بهذه الطريقة الفجة، فإن شخصاً مثل هذا لا يموت...

هنا قاطعته مضطراً لأنني أعرف الشخص الذي يتحدث عنه وقلت:

ـ هل تعرف اسم هذا الشخص وهل هو من حملة الدود أيضاً؟

اجاب بامتعاض بعدما نظر إلى ساعة الجدار الكبيرة وقال:

ـ انه أكثر تدود مني بكثير، جسده مصنع لإنتاج الدود وأعترف أنه أعظم براعة مني ويتجاوزني بمسافات شاسعة، لديه عقل انشتاين في علم الجريمة. معروف في طهران وعندنا باسم داود. والآن انتهى وقت الاعتراف وحانت ساعة العرض، الآن لا ينفعني الندم، فهو أعلى طابق في جحيم جسدي لا استطيع الوصول إليه وبلوغه، الندم نار بيضاء يلوثها جسدي. لا أمل لي في حياتي وفي موتي، ولكن عندي أمنية واحدة فقط: ان تسامحني ابنة خالي بانتحاري هذا. والآن بدأ عرض الدود.....

لا أعرف من اين امتشق حربة بندقية وغمدها في صدره وكانت الساعة الجدارية تشير إلى الخامسة صباحاً حين بدأت أشعة ضوء تتسلل إلى الغرفة. سقط على ظهره بدون صرخة مدوية تلعلع في الافاق، إنما تأوه بزفرة ارتياح كمن ازاح ثقل جبال عن نفسه وانبثق الدم يتحرك بدبيب دود

يتلاصف، دود ينتفخ إلى فقاعات تتفجر فور ملامسة الضوء حتى امتلأت دشداشته البيضاء برذاذ الدم.

خرجنا متبعثرين من البيت المنعزل، نهرول مسرعين؛ كل واحد اختار له وجهة ودربا. أمشي بغير رأس ولا قدمين، أصيح في البراري مشدوهاً: هل الدود أكثر حقيقة مني أنا، أنا الخيال.

هامش دود رقم (٤)

قضيت ليلة البارحة مع أهلي في مدينة (الحرية) فقد اشتقت لأمي كثيراً ولأطفال أخي (قيصر) الذي لمحت شحوبا في وجهه وانخطافا كأنه رأى عفاريت وجن فسألته هل هددكم أحد من المجاهدين؟ أجابني بالنفي وازدادت هوة العذاب في عينيه، وتلون وجهه بصفحات ألوان سريعة ومتنوعة كمن لا يستطيع احتمال عبء السكوت فقال:

ـ منذ مدة وأنا محتار وقلق مما يتراءى لي لكن أمس انحسمت القضية وتأكد الأمر وصار يقينا. منذ فترة وأنا أرى وافرك عيني من غشاوة الوهم لكنني أرى فعلا: جماعات.. جماعات من القتلى في السيارات المفخخة والعبوات الناسفة وضحايا الاغتيالات والخطف والذبح على الهوية. أرى جماعات.. جماعات تجوب شوارع بغداد وساحاتها وأزقة أحيائها في الليل والنهار، جماعات من الشباب والكهول والنساء شابات وعجائز، وأرى الاطفال من كل الاعمار مع ذويهم القتلى أو بمفردهم تائهين. اكتشفت ان كل جماعة تبحث عن شيء دمر حياتهم هو سبب وغاية تجولاتهم وعلة وجودهم الآن وهنا.. لا، لا بل هو أهم من سبب وجودهم. كانت أشكالهم غريبة صادمة تؤذي العين. كل واحد منهم يسير بجسد مرقع ملصوق كيفما أتفق بعدما تعرضوا لانفجار وطارت أشلاؤهم في الفضاء. بعد موتهم نهضوا يجمعون قطع وأوصال أجسادهم المبعثرة فيلصقونها بدون عناية بلا خياطة ولا تجميل. ثم ان الكثير منهم ظل ناقصا

يبحث عن رجل أو يداً أو عين وأنف وأذن وأسنان فقد كنت أرى أفواههم على شكل هوة فراغ لا قرار لها. يظلون يبحثون ويبحثون بلا جدوى من العثور عليها فيتركونها فارغة مبتورة، لذلك تبدو أشكالهم مريعة فظيعة يستحيل النظر لها مرتين. اسكندر.. أنا لم ارتعب وأتألم يوما بعاطفة مزدوجة كما في منظر هؤلاء المساكين الذي يثيرون الهلع أينما ذهبوا، لكنهم مسالمون لا يؤذون أحداً ولا يمسون شيئاً بسوء أثناء تجوالهم في شوارع وأزقة بغداد هائمين في تيه عظيم، يبحثون ويبحثون عن شيء له قيمة باهظة عندهم يساوي حياتهم وموتهم لكننا لا نعرفه.

المجير والمخيف: انهم ينزفون دما من جميع الفجوات والفتحات المرقعة والملصوقة، فمن فقد عينه يظل الدم يسيل من حفرتها الفارغة، ومن لصق نصف رأسه مع النصف المتبقي يظل الدم يجري من مكان الشق في هامته. جميعهم هكذا ينزفون حتى المضروب برصاصة في جبينه ينزف من ثقبها.

هل تعرف يا اسكندر كيف رأيت هؤلاء وهذا المنظر وكيف تكشف لي؟ أنت تعرف صديقي الرسام (رعد هاشم)، الرسام الذي قتلوه في مدينة (الضلوعية) مع ثلاثة من أبناء عمه حين ذهبوا إلى منطقة (التاجي) لتسلم أجرة عمل نقوش مغربية لثلاثة بيوت.

البارحة في الليل أستيقظت للتبول. رأيت ملابس منشورة مبعثرة ومرمية على الأرض، رفعتها ونفضتها فشعرت بوجود شيء ورائي ولمحت أطيافا خطفت بسرعة مذهلة من بين شجرتي التوت والنبق. انسلت عظامي ونشف دمي حين رأيت شخصا يجلس في زاوية الحديقة تحت شجرة الرمان. شخص يتكوم على نفسه تعب ومنهك وثيابه ملطخة بالدماء. رأيت حزا دائريا حول رقبته ينز منه الدم. رفع رأسه نحوي ونطق بصوت ذابل وقال:

ـ هل عرفتني؟

يبس بلعومي وبلعت لساني من الصدمة فلم يخرج من فمي حرف واحد. نطق مرة أخرى بارهاق من عانى فترة احتضار سرمدية وقال:

ـ هل تتذكر صديقك (رعد هاشم)الرسام في وحدة الهندسة الآلية في معسكر (جلولاء).. زرت بيتكم هذا كثيراً بعد تسريحي من الجيش وأهلك يعرفونني.. لا تخف مني ولا منهم ـ مشيرا إلى بقية الاشباح، الاطياف، لا أعرف ماذا اسميهم ـ فنحن لا نؤذي. ها هل عرفتني؟

اقتربت منه. فعلاً هو (رعد هاشم) لكن رعد مات، قتله المجاهدون في الضلوعية قبل أربعة أشهر وذهبت إلى مجلس العزاء في (الغزالية) وجلست في (الجادر) المأتم. فمن يكون هذا الشخص إذا كان (رعد هاشم) ميتاً منذ شهور؟ تجاسرت وتجرأت على سؤاله: هل أنت حي أم ميت؟ أجابني رعد:

ـ لا حي ولا ميت.. أنا في طريقي إلى الموت. مضت علي أربعة أشهر وأنا أبحث عن القاتل الذي ذبحني في الضلوعية. أعرف وجهه كما أعرف وجهي لكني لم أعثر عليه إلى هذه اللحظة. بحثت في الضلوعية والطارمية وعبرت إلى الراشدية فالاعظمية والقاهرة والصليخ ثم انحدرت إلى الدورة والمحمودية واللطيفية مثلث الموت، وها أنا في بغداد في مدينة الحرية أبحث عنه.

ـ ولكن لماذا تبحث عن الذباح؟ سألت (رعد هاشم) فاجاب:

ـ لكي أقتله وأموت.

سألته: كيف تموت وانت ميت أصلا؟ فأجابني:

ـ لا.. أنا الآن نصف ميت وأنزف، لكنني حالما أجد القاتل أرتاح وحين أقتله يتوقف النزيف ثم أذهب مباشرة أدخل في قبري وأنام. فأنا منذ

لحظة ذبحي وحتى الآن لم تغمض عيني ولم أنم دقيقة واحدة. لا تغمض عيني أبدا حتى أعثر على قاتلي، وإذا عثر عليه وأحد مثلي من ضحاياه المذبوحين وقتله فسوف أعرف لأن نزيفي يتوقف وأبدأ أشعر بالنعاس فأذهب إلى قبري وأنام. رأيت الكثير من المساكين وقد مضى عليهم سنين طويلة بلا نوم وبلا توقف للنزيف لأن القاتل ما يزال حياً.

سألته: أين يذهب القاتل بعدما تقتله الضحية؟ فأجاب الرسام رعد:

ـ نسلمه إلى حديقة الموت حيث يتكفل الفلاحون بزرعه مثل هذه الأشجار في حديقتكم. لكن زرعه يتم بعكس الشجرة التي تبقى خضراء نضرة وجميلة حية. الفلاحون يزرعون القاتل في حديقة الموت لكي يعيش أبدا ولا يموت أبدا. يدفنون رأسه في التراب ويظل يرفس برجليه مختنقا إلى الأبد. كما أنهم يسقونه بالدم بدل الماء. يجرب عليه الفلاحون آلاف الميتات، بكل أشكال وانواع الموت التي لا تخطر على بال مخلوق، ولا أدري بعدها ماذا يحصل. هناك ضحايا مقتولون يكتفون بقتل المجرم القاتل ولا يسلمونه إلى حديقة الموت.

سألته: لماذا لا نراكم وانتم تجوبون الشوارع والأزقة من مدينة إلى أخرى. فأجاب رعد الرسام:

ـ أنا تعمدت ان أظهر وجعلتك تراني. في أحيان كثيرة نتعمد الظهور فنخطف ونمرق من أمام أعينكم وتشعرون بنا تتلمسون وجوهنا بدون ان ترونا علانية كما الآن. لكن بعضنا يجازف لاسباب كثيرة، كل واحد لديه سببه الخاص، فيصعد في سيارات الـ (كيا) والـ (كوستر)، أو يمشي معكم في الشوارع ويجلس في المقاهي والمطاعم والاسواق. لكنه لا يجازف إلا بعد أن يرمم وجهه وجسده يصبح مقبولا للعين، كما أنه يحول نزيفه الظاهري إلى نزيف داخلي فيصير شكله عاديا كأنه واحد منكم. اما أنا

والبقية فنحن لا نهتم بمنظر شكلنا الخارجي طالما انكم لا تروننا ولا داعي لظهورنا. فجميعنا نكره عالمكم ولا نريد ان نكون معكم ومثلكم. نحن هنا في حيادية مطلقة بلا عواطف ولا غرائز ولا صراع على سلطة ومال، لذلك عالمنا هنا بلا جرائم، ولولا النزيف والأرق لما أرهقت نفسي في البحث عن قاتلي الذباح. كم توسلت به ان لا يذبحني فقد تركت أطفالي الاربعة جياعا لا أحد لهم غيري، وزوجتي مريضة بسرطان الثدي. توسلت كثيراً مع اني أحتقر التوسل فأنا قضيت عمري لا أعرف من الشيعي ومن السني واحتقر من يفكر بخبث بأن هذا مسلم وذاك مسيحي وصابئي وأزيدي، هذا عربي وذاك كردي وتركماني. أنا بعيد عن هذه السخافات واحتقر عقلي لو فكرت بالطوائف والاديان والقوميات بخبث وعنصرية. أنا من أجيال تربت على الحب وعافية العقل فنجونا من كل هذه الأمراض الخبيثة. لكن الذباح صرخ بوجهي: عملاء عراقيين سفلة. وضربني بمقبض سيفه على فمي فاسقط خمس أسنان بصقتها مع الدم وتفلتها على الأرض، حتى اني بحثت عنها بعد ذبحي فلم أجدها. لولا توسلاتي هذه التي تفت الصخر لتركته بدون تسليمه إلى حديقة الموت.

العجيب انكم دائماً تفسرون حوادث قتل المجرمين والمجاهدين القتلة، وتعرضهم لحوادث مختلفة بأنها قدر وانتقام رباني في حين نحن من دبر هذا القتل وتلك الحوادث لنوقف النزيف ونذهب للنوم في المقابر.

سمعت من فوقي حفيف أجنحة طيور فتركت (رعد هاشم) ورفعت عيني إلى الاعلى. رجعت إليه لكنه اختفى بسرعة مثلما ظهر، ورأيت الملابس التي التقطتها من الأرض مرمية من جديد مع جميع الملابس المنشورة على الحبل. تأسفت كثيراً على اختفاء صديقي الرسام (رعد هاشم) بهذه السرعة فعندي كومة أسئلة ستبقى بلا جواب.

نظر (قيصر) في عيني مباشرة وسألني:

ـ اسكندر، هل تصدق ما رأيته وما سمعته من البرزخي (رعد هاشم)؟

فقلت لأخي قيصر:

ـ كل الذي أعرفه ان الجريمة لا تموت مهما تراكم عليها الزمن. اما كيف لا تموت ومن سينبش سرها ولماذا تعيش كل هذه الفترة فذلك ما لم أعرفه حتى هذه اللحظة.

دائما كنت أرى خيالات تخطف من جانبي بدون أن أتبين واعرف ما هي. تعودت على اللامبالاة وإهمال الظواهر التي لا تعد ولا تحصى، فقد اختلط الواقع مع الوهم.. الحقيقة بالخيال في تشابك مستمر لا فكاك منه. أعتقد ان الكون يمتليء بأشياء لا تراها العين أكثر من الاشياء التي نراها.

صار لدينا علاج آخر غير سلاح الدود، عندنا الآن (البرزخيون) هذه الجموع الحاشدة من الضحايا، فهم يبحثون ليلا ونهارا عن المجاهدين السفلة.

الفصل السادس

ثامر

(١)

آخر محطة لقطار السجون هو (زندان قصر). انطلق القطار من محطة توقيف مطار (مهراباد) حين كشفوا جواز سفري المزور. وكالعادة كان معي حشد من الركاب المعتقلين يثرثرون بأمور كثيرة لاسيما التهم والجرائم المنسوبة اليهم، لديهم خبرة في سير وحركة القطار وعدد المحطات. انشرحت صدورهم ضاحكين يدغ بعضهم البعض حين نزلنا في سجن (زندان قصر) هاتفين بهمس جذل كمن يدرك بأن إطلاق سراحه بات وشيكاً. اندهش هؤلاء حين تم عزلي في قسم الجرائم الثقيلة وتفرق البقية يوزعونهم على أقسام الاحكام الخفيفة. التفتوا وراحوا ينظرون إليّ بمهابة الخوف واحترام عفن لسطوة القاتل. في حين لم تكن تهمتي سوى التزوير وشجار مع موظف في المطار. ادخلوني إلى قسم الجرائم الثقيلة وصدمتني وجوه السجناء الصفراء المتورمة بجثث المقتولين.

اعطوني بطانيتين واحدة تحتي والأخرى غطاء ودلوني على مكان اقامتي في زنزانة الافغانيين. عرفوا اني عراقي من أول لحظة في الزنزانة فنهض أحد السجناء مبتسماً بعيونه الخضراء وبشرته البيضاء وراح يكلمني بلهجة عراقية مكسرة، أعطاني قميصاً ازرق ولباسا داخليا ودلني على الحمامات وكأنه يقدر وزن الوسخ وينابيع القمل في جسدي. سألته من اين تعلم التكلم بالعربية قال انه كان يعمل في الكويت.

أعمتني كثافة البخار داخل الحمامات وشدة سخونتها. كنت مشدوهاً

بهذا الجحر المنسي من العالم، وها أنا أدخل الآن في كابوس جديد مربك ملتبس الحواس، منشطراً إلى نصف واعي ونصف حالم، هل أنا حقاً أعيش الصحو أم في جحر خيالي يهزأ مني. خلعت ملابسي القذرة والثقيلة بفعل (٣٥) يوماً وليلة مسافراً بقطار السجون. ملابسي تحمل ذكريات جدران وبلاطات الزنازين والدسم البشري ورائحة عفن تفسخ الاحياء واصناف القمل وموديلات وأزياء الجراثم.

رأيت وأنا بهذه الحال الخائرة والمضطربة، رأيت شبح وجه يبتسم من بين فجوات البخار المتلاطم، وجه يعرفني بدون ان أتذكر متى وأين التقيته: وجه حليق الشعر كأنني أعرفه بواحد من أحلام ما قبل التاريخ. اقترب مني وصافحني بحرارة وهو يقبلني يمنة ويسرة ويقول: شنو نسيتني؟

فور ما رن صوته بأذني تعرفت عليه: روضان أبو النمنم.

تفاجأ بوجودي في السجن مثلما تفاجأت أنا بوجوده في السجن. زودني بما ينفعني من ملابس وفراش ونصحني بعدم الاختلاط العميق مع الافغان في زنزانتي. وفعلاً كان أول سؤال وفي ليلتي الاولى، وجهه لي سجين أفغاني يتوسط حلقة تثرثر بما يحدث في أفغانستان وإيران والعراق، صاحب السؤال تبدو عليه الكهولة والشيخوخة وهو في سن الثلاثين، مزج سؤاله بخيط من المزاح وقال:

ـ أهل تسنن يا شيعى؟

عرفت انه سألني (هل أنت سني أم شيعي) لكنني تملصت من الجواب بمزاح أيضاً وتهربت بحيلة أني لا اجيد اللغة الفارسية.

روضان دليلي السياحي في (زندان قصر) يقودني إلى آثار ومعالم الجريمة في وجوه القتلة:

هل ترى ذاك الافغاني الطويل ولحيته الطويلة المنفوشة مثل الجلافة،

يضع على رقبته لفافا أصفر. روضان يشير إليه بطرف عينه حتى لا يثير انتباهه أو انتباه أحد، هذا الافغاني الذي يشبه خصيان جنكيز خان ناك اباه بالقوة، اغتصبه، وحين أراد الأب فضحه بين الناس قتله. المشتكي عليه أمه وهي تطالب بإعدامه اليوم قبل غداً.

هذا الرجل الإيراني في زنزانتي، هذا الجالس قرب شبكة كرة الطائرة، ألا يشبه الممثل (كيريك دوغلاس)، انه رجل صموت كلامه بالمثاقيل عكس بقية الإيرانيين. بالمناسبة (ترى) الشعب الإيراني بسيطا ساذجا ومسالما، هل رأيت خلال سنوات وجودك في طهران (عركة) شجاراً باللكمات والرفس أو بالسكاكين و(التواثي) مثل العراقيين؟

أجبته بين السخرية والجد:

ـ لا، عراك الإيرانيين باللسان فقط. لأنهم يحسبون للضرب ألف حساب: سعر كسر الضرس بسبعة آلاف تومان وسعر كسر اليد بـ (٢٥) الف تومان، كل شيء له سعر والبادي أظلم. ولكن نساءهم يستحق جمالهن حروبا عالمية.

ايه.. أكمل ما جريمة (كيريك دوغلاس) هذا؟

ـ هذا شخص ثري لديه أملاك في طهران، قتل شريكه في تجارة الفستق لخيانته إذ كان يهرب مسحوق الهيروين بواسطة الفستق، لديه عمال يفتحون قشرة حبة الفستق، يعزلون الثمرة ويملؤون قشرتها بالهيروئين ثم يلصقونها. أحد العمال ابلغ الحرس الثوري واعتقلوه مع شريكه، وحينما اكتشف خيانة هذا الشريك خنقه حتى الموت.

هل ترى ذاك الشاب الذي يلعب كرة الطائرة، اللابس (تراك سوت) أحمر، هذا لا قاتل ولا هم يحزنون، مسكين تزوج حديثاً بفتاة يحبها. أغراهما الشيطان في تدخين الحشيشة، وبعد السكر والعربدة والمزاح تعب ونام فوق وجه زوجته فوجدها في الصباح ميتة.

أما ذاك الملعون صاحب اللحية الحمراء، الذي يضع مسبحة في رقبته مثل القلادة، فهو رئيس عصابة في تهريب المخدرات. سرقوا طفلاً رضيعاً من أحد المستشفيات. قتلوه وأخرجوا أحشاءه كلها ودحسوا بمكانها الهيروئين، عبؤوه تحت الجلد بالمخدرات. كشفت الجريمة امرأة عجوزا في حافلة باص نقل الركاب، كانت تجلس جنب امرأة تحتضن طفلاً نائماً مغطى بعباءتها. تعرف أنت فضول الإيرانيين وكيف يحشرون أنوفهم في كل شيء. لكن الفضول له فوائد أيضاً مثل سم الحية. المرأة العجوز حاولت كثيراً رؤية الطفل النائم بعد مجاملات طويلة مع المرأة (أم الطفل)، مرة تقول لها: لماذا طفلك لا يحوص ولا يتحرك؟ لماذا لا يبكي ويتململ بهذا الازدحام والضوضاء؟ هل هو جائع أم أرضعتيه؟

وظلت هكذا تنقنق يخزها الفضول بدبابيسه الكثيرة وتخوض مع المرأة بأتفه التفاصيل حول الطفل. وأخيراً بلغ منسوب الفضول إلى حنجرتها ولم تعد تحتمل فمدت يدها وازاحت عباءة المرأة وكشفت وجه الطفل، رأته أخضر على أصفر على أزرق. إنه ميت. صرخت العجوز باعلى صوتها:

طفل ميت.. طفل ميت.

وهكذا انكشفت الجريمة التي دوت لها طهران وأفزعت أهلها. ذاك الملعون صاحب اللحية الحمراء هو من قتل الطفل الرضيع وحشاه بالمخدرات.

انظر.. انظر إلى هذا العجوز الاعمى الذي يتوكأ على شخص سمين، ارتكب هذا الاعمى جريمة أضحك بها الدنيا كلها: انه شيخ جامع تابع لاملاك الدولة، باع الشيخ مسجده إلى تاجر عقارات. والشخص السمين الذي يتوكأ عليه هو نفسه تاجر العقارات.

ضحكنا وقلت لروضان: هنا في زندان قصر يختبيء الوجه الخفي لطهران.

نهض روضان وقال: أصلي صلاة الظهر وأرجع اليك لنتغدى.

(٢)

وقفت قرب شجرة خروع ملساء لا تحمل ورقة واحدة، ينشر السجناء فوق أغصانها ملابسهم المغسولة، رأيت شيئاً أسود يدب على جذعها وأغصانها، اقتربت وإذا بها تسفي بالقمل. أي قدر أعور أنبت هذه الشجرة المسكينة هنا، اخواتها تمرع بعافية الفراشات والنحل وهي تختنق بالقمل ورائحة ملابس نتنة؟

هناك علامات واشارات يصعب تفسيرها وتظل معلقة لا تشير إلى هدف أو غاية: معظم العراقيين سافروا بجوازات سفر مزورة وأنا يشك بي موظف غبي تنضح من وجهه سيول الرعونة والصفاقة والحمق. يقلب أوراق الجواز المتقن التزوير، طبعاً هو لا يعرف بأنني وحدي أنجزت تزوير عشرات الجوازات وتأشيرات الدخول (فيزا). طار من بين يدي عشرات العراقيين وحطوا في عواصم اوروبا، وأكثرهم حتى لم يدفع ثمن أتعابي؛ إما لشدة افلاسهم أو بالتحايل على عواطفي، انقطعت رسائلهم عني تدريجاً من حرارة الشكر والامتنان وانهم سوف يرسلون إليّ نقود الأجنحة متقنة الصنع التي حلقوا بها إلى مطارات العالم، ثم خفتت أصوات رسائلهم إلى بطاقات بريدية، إلى أن تلاشوا في غابات النسيان وانمحت حتى أسماؤهم. ثم يأتي موظف أحمق (لا يعرف كسه من اللحاف) ويكشف أسرار التزوير. اتهمني زوراً لأنه لا يفرق بين الأصلي والمزيف، ربما كره وجهي واغاضه شكلي وملابسي، حرن معي وراح

يشتم العراقيين من كَلكَامش واتونابشتم إلى صاحب الجواز وصورته التي بين يديه، وراح يعيرني بالجبن والتطفل ويصفنا على أننا مجرد حشرات تمتص الدم من جسد إيران، وحالما قال: أنت عار عل. . . لم ادعه يكمل الجملة، لطمته على انفه بـ (بوكس) بغدادي وعبرت الحاجز الخشبي وأشبعته (كلات) ورفسا، فانهالت عليّ جماهير المطار بكل ما لذ وطاب من الضرب حتى اغمي عليّ ولا تزال أضلعي تضج وجعاً كلما مستها لفحة برد ولا يزال وجهي يحمل بقايا آثار الواقعة المهرابادية.

كيف أفسر هذه الاشارة؟ وإشارة لقائي بروضان التي من المستحيل التفكير بها وتخيلها ومصادفتها والتعرف على لغز داود؟ إذ راح روضان يستفرد بي يومياً ويطلعني خبايا صداقته بداود متقياً أيام وليالي سنتين من العيش معه. لماذا أنا بالذات تكشف لي الحياة هنا عن عورتها؟ مع مصادفات كثيرة مثل رائحة عفونة سجن (زندان قصر) التي تشبه عفونة الحجابات في الخطوط الأمامية مع القوات الإيرانية، ومصادفة وجود كتابة انكليزية بخط كبير وبلون أحمر على جدار في باحة زندان قصر: pink floud. الفرقة الموسيقية التي تعزف من داخل النزيف الإنساني والتي احبها واسمع جميع اشرطتها.

فكرت كثيراً بقضية داود وتوصلت إلى نتائج صادمة أقرب إلى الخيال والقصص البوليسية وأفلام الرعب. جلست مع روضان أفككها له وأفاجئه بما لا يخطر على بال شيطان: واحد مثل داود يلعب بالجميع بمهارة خبير، لعب بالحزب الشيوعي والمخابرات السوفيتية بانتماء خادع يوحي بأن لديهم الحل لمشكلات العالم، واعتبره الحزب الشيوعي وموسكو بأنه واحداً من الأوائل من حملة مشعل البلوريتاريا والماركسية العالمية.

ولعب بطهران في دائرة (البسيج) حين وصفوه بالمجاهد من الطراز

الاول. ولعب ببغداد والمخابرات العراقية بأنه أحد المناضلين المتميزين الذي لا يشق لهم غبار (حسب تعبيرهم البعثي).

زوجته كادت تموت عليه حزناً، وأصدقاؤه في (كوجه مروي) وطهران، انطلت عليهم كذبة إخلاصه وشهامته، وأنهم فقدوا عقلاً وروحاً لا مثيل لهما حين مات. شخص كهذا أقنع الجميع ولعب على حبال طهران الجهادية وبغداد القومية البعثية وموسكو الشيوعية كيف يموت غبياً ساذجاً على الرصيف؟

عقل داود مكنه من اللعب بأمهر اللاعبين ولم يفتضح أمره والدليل موكب التشييع.

أخوي روضان إنك إرتكبت جريمة خُلب، ألبسوك إياها واقتنعت بتلبسها عن طيب خاطر. إنك لست بقاتل وداود حي لم يمت.

المشاجرة أمام سينما انقلاب مخطط لها ومحبوكة بدقة، وكونك غشيما وعلى نياتك فلم تفكر بأبعد من وراء الحادثة والعداء بينك وبينه بعد فضحه ومحاولة إسكاتك. لقد خططوا لهذه المشاجرة بكل تفاصيلها لكي يبدو موت داود استعراضياً: في الصباح أمام الناس، قريباً من عمارة المسفرين العراقيين ليسهل نقل الخبر وتفاصيله إلى كل العراقيين وكل من يعرف داود. من أجل إغلاق ملف داود إلى الأبد بموته. فأنا أعتقد أن داود في أثناء التدحرج معك قد اكمل وضع السكين في صدره ولصقها مع بعض نزيف الدم، أو استبدل السكين بسكين أخرى جاهزة في الصدر، حيث يبدو الموت حقيقياً ويصدقه حتى (القاتل). وربما طعن داود صدره خطأً أو عمداً لأن دماً حقيقياً نز من تحت السكين ويقول بعض الشهود: وجود دود احمر يلصف مع الدم.

ولكني أتساءل بدون الوصول إلى إجابات مقنعة: ما الغاية من هذا كله

وتوريطك في جريمة قتل، لماذا يموت داود بمشاجرة عراقية بكل مواصفاتها، ألا يمكن فعل أي شيء لا يخطر على بال في اخفاء شخصية داود، وأن هناك ألف طريقة وطريقة لمحو سجله ووجوده من على سطح الأرض؟ لمصلحة من ضموا داود إلى قائمة الأموات ولماذا اختاروا هذه المشاجرة العراقية بالذات دون غيرها؟

ذلك هو الأمر المحير واللغز العويص.

لكنني فوجئت بردة فعل روضان الهادئة والباردة، فوجئت بعدم مفاجأته.

إندلعت مشاجرة طاحنة بين سجينين أضاعت علينا فرصة حمى النبش في لغز داود، وفورة التقصي وتعقب خيوط الجريمة الخُلب. ترك حرس السجن هذين السجينين يتمالخان واغلقوا زنازين القسم. ثم سمعنا صدى الهروات فوق جسدي المتشاجرين وعياطا مجروحا بعد كل ضربة هراوة.

(٣)

في الصباح، بعد طعام الريوق، جاء روضان وأخذني إلى زنزانته وجلسنا فوق سريره، كان لا يزال متشبعاً بهلوسات لغز داود؛ تنط من وجهه رؤوس أوجاع غائرة في صدره. سال صوته المفجوع يقطر لوعة ومرارة أربك الهواء الجامد الراكد في فضاء الزنزانة وهو يقول:

ـ وصلتني رسائل من ابن اختي (جمال) بعدما دخل الحدود الباكستانية، وهو الآن في مدينة (اسلام آباد)، تصلني رسائله عن طريق صديقي (سيد علي) صاحب مشروع النمنم إذا كنت تتذكره، كما تصلني بعض النقود منه داخل الرسائل. وقبل ثلاثة أيام وصلتني آخر رسالة منه يقول فيها: ربما لا تصدقني ياخالي إذا قلت لك انني رأيت داود بزي أفغاني أمام بناية العراقيين التي أسكن فيها. في البدء لم أصدق عيني: كان وجهه مغموراً بلحية طويلة فيها شيب أبيض كثير. داود لم يمت ياخالي ولم تقتله أنت. فقد حدثت جريمة مروعة أذهلت العراقيين والباكستانيين. وجدنا كيس زبالة أسود أمام البناية التي يسكن فيها اللاجئون العراقيون بانتظار ما في جعبة الامم المتحدة حول قبولنا لاجئين في اوروبا. رأيت كيس الزبالة الاسود مركوناً على السياج، يسيل من تحته دم غزير فأبلغنا الشرطة الباكستانية التي وجدت اللاجئ العراقي (فاخر) مقطعاً إلى أشلاء صغيرة فوقها رأسه. أخبرت الشرطة بأن شخصاً بزي أفغاني، أعطيتهم كل أوصاف داود، الذي كان هنا أمام الباب قبل يومين من وقوع الجريمة.

انخمش قلبي وكأن عقرباً سوداء لدغتني حين نطق روضان باسم (فاخر)، أخي الصغير أيضاً اسمه فاخر، لا، من المستحيل ان يهرب اخي من بغداد إلى طهران ثم يجتاز الحدود الباكستانية ويسكن في (اسلام آباد) وأنا لا ادري، لا، ذلك مستحيل.

واكمل روضان بنزيف صوته الخارج من فجائع الدنيا السبع:

- اسأل نفسي دوما،" قبل رسالة جمال ابن اختي: لماذا لم تهتم السلطات الإيرانية ودائرة (البسيج) بهوية الشخص الذي قتل داود؟ ها أنا الآن مثل جميع المتهمين بالقتل العادي غير السياسي. لم يتم عزلي عن البقية في سجن انفرادي، ولم يعاملني حرس السجن معاملة خاصة توحي بالقتل السياسي. كما أني لم اتعرض لأي محاولة اغتيال لا من المخابرات العراقية الشهيرة بالتغليف والطرد البريدي في جميع انحاء العالم. ولا المخابرات السوفيتية صاحبة اليد الخفية الطولى ثأرت للرفيق الشيوعي داود.

لو رأيت يا ثامر مهزلة الجلسة الاولى للمحكمة حول قضيتي لتبولت على بنطلونك من شدة الضحك. القاضي شيخ بعمامة بيضاء لا يصغي إليّ أبداً فهو يثرثر مع مساعديه الأيمن والأيسر، ويرن قربه تلفون، يرفع السماعة ويغيب في حوار طويل، يجلبون له قدح شاي ويشرب، يأتيه خطار (ضيف عزيز)، يجلسه بقربه ويدخلان في نقاش لا ينتهي. كل هذا وأنا أتكلم وأخوض بوحل محنتي، والمحامي يتكلم، فلم ينظر القاضي مرة واحدة صوبي أو إلى المحامي.

ادركت حينها ان الاهمال واللامبالاة تجري على قدم وساق وأن قضيتي عندهم تقليدية لا تختلف عن ملايين القضايا.

يبدو ان معركتي مع داود ومسرحية قتله كانت لعبة مخابراتية، وإلا؛

كيف ولماذا يجيء داود وينتظر أمام سينما انقلاب حيث الشارع يغص بالمارة ويزدحم بالسيارات؟ وإذا كانت الغاية هي قتلي فهناك ألف طريقة يتخلصون فيها مني ببساطة وبدون ترك مخلفات أو أثر. وأنا مثلك دخلت في متاهة الأسئلة وأقول: ما الهدف الأخير من كل هذه اللعبة؟ ان عقلي ليس كبيراً وليس بحجم هذه اللعبة. عقلي لا يجيد التخطيط ولا التدبير مثل عقل داود لكي أدرك أسرارها وما وراءها. هم عباقرة في البطش ويمكنهم فعل أي شيء بدون اللجوء إلى هذه المهزلة. وهم ليسوا أغبياء لدرجة ان يتركوني أفلت واهرب. لا، لا هذا غير صحيح: انهم يلعبون الشطرنج بحياتي، أين الله اذن؟ استغفر الله استغفر الله، سبحانك ياإلهي لا تتركني ريشة في عاصفة النار هذه، لا تتركني ياإلهي لا تتركني.

وصل منسوب الحزن والكرب في صوته إلى قمة تلال الفجيعة حتى اني توقعت ان تتفطر جدران السجن الكونكريتية من شدة التأثر والتعاطف مع حريقه الداخلي الذي شب من فداحة البلوى في صوته وكأنه أجراس نكبة لا ينقطع صليلها.

(٤)

(زندان قصر) أفضل وأصلح مكان لشغلة النمنم، ولكن من أين نأتي بخيال تجاري مثل خيال (سيد علي) هنا. اردت تلطيف الجو بهذه الكلمات مع روضان من أجل إسكات رنين اجراس النكبة. نظر إليّ مبتسماً فقلت مستزيداً لتخفيف ثقل المأساة المطبوعة على وجوهنا وتهشيمها بواسطة الضحك حتى وان كان ضحكاً أسود:

ـ يجب أن تكون الجرائم على غرار جريمة الشيخ الأعمى الذي باع المسجد.

خشيت أن أضيف قول: وقريباً سنسمع أن أحدهم قد باع الكعبة. لكنني خشيت أن يزعل مني. مع الأسف لم يستمر طويلاً تلطيف الجو إذ سرعان ما سألني عن الدود:

ـ هل تصدق بسوالف الدود؟ فسيد علي قال شيئاً من هذا القبيل حسب ما أتذكر؟

حكيت له كل ما أعرف عن قضية الدود وهي معلومات فقيرة وغير مدعومة بالأدلة والإثبات.. ولكي نبسط عقدة قضية الدود يا (روضان) نبدأ من انعكاس الحالات النفسية على الجسد مثل الإصابة بالقرحة والجلطة الدماغية والسكتة القلبية. سمعت كثيراً منك ومن غيرك عن ذكاء داود الخيالي وعقله العبقري الأسطوري، إلا أنني أجده أغبى المخلوقات

طراً، هو ومن معه من القتلة، فهؤلاء يجهلون تمام الجهل ما يتركه المقتول من آثار في نفس المجرم. القاتل مثل داود ومن على شاكلته يصابون بمرض الدود. وأرى السؤال ينط من عينيك: كيف؟

تبدأ الاصابة بمرض الدود حينما تتسلل دماء الضحية إلى حواس القاتل، رائحة الدم وأبخرته، لونه وصوته مع أشياء أخرى كثيرة يحملها الدم. يدخل دم القتيل إلى عين القاتل وبقية حواسه خلسة، ويخترقه عبر مساماته أيضاً. كما ان آخر أنفاس الضحية تدخل عبر شهيق القاتل أثناء التنفس، وتنمو هناك في غابة رئتيه. وتدخل أصوات الضحية من استغاثات وتأوهات وشخير نفاد الهواء أثناء الاحتضار مع بعض الجمل الممزقة وأصوات الالم الفظيعة، كلها تدخل إلى اذن القاتل وتتسلل إلى رأسه مع ما تسرب في عينيه وبقية حواسه ومساماته حيث تتجمع كلها في الرأس. هنا تحدث انقلابات في كيمياء دماغ القاتل، إذ تنتقل كل صفات موت الضحية إلى المجرم وتسري في دمه. يعني انه يحمل الجثة قبل وبعد موتها، يحملها داخل الدماغ، فتتفسخ صور الجثة مع عناصر كيمياء الدماغ وينتج بمرور الايام هذا الدود. تبيض الدودة الاولى دودة أخرى بالتزامن مع قتل ضحية جديدة، فيتكاثر ويجري في الدم. الدود هو انتقام جسد المجرم من نفسه، يثأر لأخيه جسد القتيل.

هز روضان رأسه كأنه يخرج من كومة قش فارغ اليدين من دون العثور على الإبرة، وقال بصوته الموغل بالفجيعة:

ـ لا، هذا الكلام غامض وملتبس ومعقد، ينقصه الكثير من التفسير، لماذا لا نقول ان الطبيعة التي منحها الله غريزة البقاء، تتفانى في الدفاع عن نفسها ضد عبث الإنسان ولا أباليته في تهديم بيته، البيت الذي يأكل منه ويشرب ويتنفس.

صبرت الطبيعة كثيراً على جرائم الإنسان والآن بدأت تتخذ وسائل دفاعية انتقامية لأجل البقاء. فاحترامها يعني احترام الله، واحتقارها يعني احتقار الله جل شأنه. وان وسائل الدفاع الانتقامية التي تشنها الطبيعة على شكل زلازل وهزات ارضية وبراكين وفيضانات وأمراض لا تخطر على بال مخلوق، هي من أجل لفت الانتباه والتحذير وإيقاظ الإنسان من سكرة العلم المنحرف وعقله المنتشي بالتطور ضد قوانين وشروط الحياة والطبيعة. الكوارث رموز تنذر بخطر الدمار الكوني الأخير، هذه الرموز لا يعبأ بها سوى القلة من العلماء ورجال دين وكتاب وفنانين، وربما هي إشارات ومقدمات لقرب ظهور الامام المهدي (عجل الله فرجه القريب)، ان افظع شيء عند الله هو قتل البريء، إذ يهتز عرشه مع كل جريمة قتل لذلك يقول سبحانه: (من قتل نفساً بغير حق كأنما قتل الناس جميعاً). وان ابشع شيء يلوث غريزة الطبيعة هو القتل، وما الدود الا وسيلة جديدة للدفاع عن نفسها ضد المجرمين. والدود رمز جديد انتجته الطبيعة، لكننا لم نعرفه ولم نفككه حتى الآن.

اقترب منا السجين ذو العيون الخضر وقال بلهجته العراقية المكسرة: الحرب خلص ما كو بعد حرب.

لم يفرح أغلب السجناء بنهاية الحرب. كانوا يعولون عليها في أن تسقط الحكومة، ويخرجوا من السجن. لم نعرف كيف استقبل الإيرانيون نهاية ثماني سنوات من النزيف اليومي على طول الحدود مع العراق، حيث امتلأت المقابر وغصت الشوارع بالأرامل والأيتام. ربما هم يتساءلون الآن: أين ثمن الدم وثمن كل هذا الخراب ما دام كل شيء بقي في مكانه وعلى أية حال فقد انتهت الحرب من حيث بدأت وكأن شيئاً لم يكن كما

في أيامها الاولى. انتهت من حيث اندلعت وكأنها حرب زعاطيط. ولا ندري ماذا فعل العراقيون حال سماعهم آخر بيان لنهاية الحرب، هل فرحوا بما تبقى لديهم من الشباب والاولاد وحزنوا بذات الوقت لأن الحرب لم تقتلع صدام والبعث، وهل هذا يعني انتظار حروب جديدة؟

كم شخصاً عاث ونخر فيه الدود أثناء الحرب؟

(٥)

بعد أسبوع من نهاية الحرب كنت أجلس مع روضان فوق سريره داخل زنزانته بعد العشاء، وهو يأمل ان تتحسن وضعية المحاكم ويلتفتوا إلى قضيته ويصغون اليه: ويتوسل إلى الله ان يزل قدم داود ويرتكب خطأ ويلقون القبض عليه. لكنني صدمته حين قلت:

ـ هل تتوقع أين داود الان؟ داود لديه بوصلة شيطان عصري. ما دام قد لمع نجم المجاهدين الافغان اليوم واحتلوا الخبر الأول في وكالات الأخبار العالمية فهو هناك في الجبال المنعزلة والحصينة وسوف يكون زعيماً لامعاً أو مقرباً من زعماء المجاهدين. اما لمن يعمل ولأي مخابرات فذلك...

سمعت اسمي الثلاثي يذاع من مكبرات صوت السجن وكلمة (ازادي). تنصتنا مرة ثانية وهم يكررون: ثامر حبيب علوان الحضور صباح غد الساعة الثامنة لإطلاق سراحك.

نهضت واقفاً وسط دهشة الجميع وأنا أشدهم دهشة. خرجت مذهولاً ولحق بي روضان يشدني من الكتفين يهزني وهو (طاير من الفرح) ويقول: هاه تصدكَ هسه لولا.. يمعود، الله سبحانه وتعالى ما ينسى المظلوم.

وفعلاً صار واقعا ما حسبته حلماً، أركبوني في سيارة صغيرة تابعة لوزارة الداخلية وانطلقت بي خارج السجن بعدما ودعت روضان والشخص الذي يتكلم عربية مكسرة صاحب العيون الخضر، قلت لروضان:

- قلبي معك، أنت آخر من ييأس كما عرفتك، خاصة وانت متهم بقتل شخص حي يتجول طليقاً بين باكستان وافغانستان؛ يزرع الرعب في كل مكان يقف عليه، وكما تقول وتؤمن إن الله لا ينسى البريء المدان.

لكن السيارة اتجهت إلى مخيم (كرج) بدل مخيم (خرم آباد). وجدت اللاجئين مضربين عن الطعام لمنع الاجازة عنهم والخروج من المخيم. وأنا تسلمني المحقق العسكري (رستاخيس) قائلاً لي: ان الحكومة عطفت عليك وعفت عنك، لكننا هنا نحاسبك على الهروب من مخيم (خرم آباد) وأنت ممنوع عليك الاجازة ستة أشهر. فلا تلعب بذيلك وتسبب لنفسك مشاكل عويصة.

مخيم (اوردهاه كرج) أشهر مخيمات اللاجئين في إيران وأكثرها مشاكل. هذا المخيم ضخ آلاف اللاجئين إلى دول العالم، فلا تخلو مدينة اوروبية من لاجئ كان يوماً في (اوردگاه كرج). سافروا بمختلف الطرق التي لا تخطر على بال جن وشيطان وبحيل جنونية حتى وصلوا إلى آخر شبر على سطح الكرة الأرضية لكي لا تصلهم رائحة البعث وأذرع صدام الاخطبوطية.

تعرفت على (كريم الصيني) واستغربت من اللقب لأنه لا يشبه الصينيين لا من قريب ولا من بعيد. (كريم) هرب وبنفس واحد طويل من وحدته العسكرية في قاطع (سربيل زهاب) إلى إيران، ولم يسترد أنفاسه ولا شرب الماء بل عبر الحدود الإيرانية إلى باكستان وانطلق راكضاً إلى الهند تدفعه عواصف من البهارات وامطار من الفلفل الحار حتى دخل الصين فاذهله تشابه النسخ البشرية وكان (كريم) مثل ديك بين ملايين البطاريق. اصطدم بسور الصين العظيم وألقوا القبض عليه متلبساً ببشرة سمراء وسحنة سومرية. أرجعوه من حيث أتى وايضاً بنفس طويل واحد

من خلال تداوله بين شرطة الحدود انطلاقاً من الصين إلى الهند إلى باكستان وحتى مخيم كرج في ضواحي طهران. سأله المحقق العسكري (رستاخيس):

ـ لماذا هربت إلى الصين؟ أجابه كريم بتلقائية ايمان ديني سطع في قلبه فجأة وبدون سابق إنذار:

ـ يقول رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): (اطلب الحرية ولو كانت في الصين).

صحح له المحقق رستاخيس: رسول الله قال: اطلب العلم؟

رد عليه كريم بذات الصوت الذي يحمل نفحة الايمان المباغتة:

ـ لا الحرية لأن العلم ابن الحرية.

وقال لي كريم أثناء الإضراب الأخير في مخيم كرج:

ـ لو لم اصطدم بسور الصين لوصلت الواق واق حتى لا اسمع اسم صدام والرفاق.

وجدت نفسي مندفعاً في قلب الإضراب وكأني المخطط والمدبر والأب الروحي له على الرغم من سخريتي واستهجاني للعواطف الثورية الفضفاضة، وحمى الجماهير التي تعمي العيون بشعاراتها الساخنة المدوية. استحوذت على قلبي نغمة ووقع كلمة (الإضراب) ورحت أغير وأبدل طاقم ملابسي كلما أخرج وأوزع كنوز الوصايا والنصائح إلى هذا وذاك: لا تنطق بأي كلمة سياسية. لا ترفعوا المصاحف فوق الرؤوس كي لا يتذكروا حيلة الخوارج. اجلسوا على الأرض بصمت ومسالمة ولا تتحرشوا بالحرس. لا تردوا على أي استفزاز. مطلبنا تغيير ادارة المخيم.

ولم تنفع احتياطاتي بتغيير ملابسي ولا الحذر في اخفاء وجهي إذ أشار نحوي اثنان من المخابرات الإيرانية (اطلاعات) وهما يراقبان طبخة

الإضراب عن كثب. كذلك لم تنفع كنوز الوصايا والنصائح فقد اشتبك بعض اللاجئين مع أحد الحرس واخذوا منه بندقيته لكننا أرجعناها لهم مباشرة. طبعاً لم نكن نعرف ان سيارات مصفحة مع مسلحين كانت تطوق المخيم من الخارج وأهل المنطقة خائفون من اندلاع كارثة مواجهات ورصاص.

في هذا الجو المكهرب بشحنات فوضى لا يعرف أحد عن أي شيء ستسفر. أعلن صدام عن عفو عام وشامل لكل الهاربين داخل العراق وخارجه. بثته اذاعات وتلفزيونات العالم. وانحرفت زاوية مطالب الإضراب (١٨٠) درجة، حيث خمد التوتر وتلاشت الصواعق الكهربائية من الاجواء التي كانت تنذر بزخات من الرصاص، انقلبت مطاليب الإضراب إلى الرغبة بالعودة إلى الوطن.

بقيت شهرين ونصف أتصارع مع نفسي في حلبة القلق المدمر: بين البقاء في مخيم كرج حيث الموت البطيء مشنوقاً بحبل قطن لا مرئي، وبين الانتحار بموت سريع في الرجوع إلى العراق لعلني أفوز بقبر أليف في بلادي. أخيراً قررت الانتحار بفخ العفو.

(٦)

من كثرة معاشرتي للمجانين الذين أصطدم بهم أينما أذهب في الشارع في السوق في السجون في المخيمات، صارت لدي خبرة في فرز أنواع وألوان الجنون. منها جنون غريزة البقاء حين يغلف المجنون نفسه بدرع لحماية جسده من خلال التضحية بعقله، حيث يتحايل العقل على نفسه من شدة العذاب وتدهور وتلف الجسد، أو من ضراوة التهديد بالموت دائماً وأبداً لفترات طويلة. وهناك الجنون الحيادي والجنون الانتهازي الذي يصطف مع القوي من خلال انقلاب العقل على نفسه ونكران شرعية وجوده الضعيف أمام سطوة القوة. إلا أن أغلب أنواع الجنون هو الجنون المعارض، الذي يفشل فيه العقل من إزاحة عبء ضخم هائل الضغط، فيستسلم للحصار الخارجي ويتنازل عن عرشه بعدما تنهار لديه المقاومة ويترك الضغوط تحطم قلعته وتقتحم غرفه الداخلية والسرية.

لكن جنون (برخو) يبقى مفتوح الأبواب لكل التفسيرات والاسباب. (برخو) جلبوه إلى مخيم كرج قبل ثلاثة أيام بعد سجن دام ست سنوات في سجن (ايفين).

وصلت درجة غليان القلق في مخيم كرج إلى إنفلات في العقول وانصعاق في القلوب. أرى آثار الشده والانخطاف على وجوه اللاجئين مع شحوب خابط عكر يشع سخونة في البشرة. العيون زائغة وقد احمر بياضها. حدث انفصام داخل كل لاجيء، وتوسع شرخ كبير شق الواحد

منا إلى نصفين، كل نصف له اتجاه معاكس للنصف الآخر، نصف يريد الرجوع للعراق والنصف الثاني يريد البقاء على الرغم من الوضع الحقير والمتردي في المخيم. لأول مرة تنشب معركة واحدة متشابهة داخل كل لاجئ رغم اختلاف الوعي والمزاج والاسباب. كان الجميع منشطرين يقاتلون داخل ميدان أجسادهم، حيث المنتصر والمهزوم واحد. صادفت العشرات من اللاجئين تتلبسهم شياطين القلق، تثرمهم وتخردلهم الحيرة. بين ساعة وساعة يتغير قرارهم، مرة يقولون نرجع ويتخيلون ما ينتظرهم من مصير أسود ومن هول عذاب فيقولون: لا.. لا، نبقى هنا أحسن. لكنهم ينظرون إلى حالهم في المخيم حيث البؤس والذل والانتظار العقيم فيتغير قرارهم مرة أخرى ويقولون: لا.. لا، نرجع نرجع حتى لو رمونا بأحواض التيزاب.

وهكذا يتجرعون مرارة الحنظل في كلا القرارين لا يعرفون أي الحالين أرحم رعباً من الآخر.

استغربت، عندما كنت أتمشى قرب ملعب السلة، من سماع ضحك جماعي متهتك داعر وهستيري مزق فضاء الوجوم والقلق في المخيم. ألتفت إلى مصدره فرأيت جماعة تتماوج ضاحكة حول شخص في الوسط ولمحت (كريم الصيني) معهم، فجأة ركض إليهم لاعب كرة قدم صغير السن أسمر البشرة ملامحه توحي بأنه زنجي، راح يصيح عليهم يوبخهم ويحقرهم: ـ ما شايفين مخبل... المخيم متروس مخابيل، يمعودين خطية عوفوه، هسه طلع من سجن ايفين... كافي اتركوه ليش اتضحكون على عذابه... والله العظيم انتم المخابيل مو هو.

تدافع نحو لاعب كرة القدم بعض المتجمهرين وعرفت أن معركة ستنشب لا محالة، فأسرعت إلى اللاعب الذي يحمل كرة القدم، أخذته بعيداً وهو يسب ويشتم تلك الجماعة. أسكته وأنا اسأله:

ـ شبيك شنو القضية؟

وراح اللاعب الذي يسمونه في المخيم (سعد استقلال) لأنه لعب مع الفريق الإيراني (استقلال) وأحرز لهم ثلاثة أهداف في لعبة واحدة، وكان يلعب حافي القدمين وان مدرب الفريق قد تعاقد معه ان يعطيه عشرة آلاف تومان على كل هدف.

راح (سعد استقلال) يسرد قصة المجنون (برخو) المسيحي الذي كان وسط تلك الجماعة المتهتكة ضحكاً. برخو أطلقوا سراحه قبل أيام من سجن (ايفين) وجاؤوا به هنا للمخيم. خطية، المسكين اتخبل في السجن وركب لسانه جن الشتائم والسباب و(الفشار) بين كلمة وكلمة يفلت لسانه بالفشار: اخ الكَحبة انعل ابوك يابو الـ (٧٩).. خوات التنيج كلهم أمراض. وهكذا لا يمل ولا يكل من إطلاق جمل (الفشار). قبل ان يعبر برخو الحدود العراقية، سبقه تقرير كيدي إلى إيران، كتبه أحد السفلة فألقي القبض عليه وهو يعبر الحدود وأخذوه مباشرة إلى سجن ايفين. وما زاد الطين سرجين ان برخو مسيحي وكان مع فصائل الحزب الشيوعي في كردستان. وضعه محرج وكل شيء ضده خاصة التقرير القاتل. خطيه تعفن في سجن ايفين ست سنوات متنقلاً من زنزانة انفرادية إلى جماعية إلى انفرادية مرة أخرى. نفض المحققون أيديهم من (برخو) بعدما ملوا من نبش رأسه دون العثور على أية صلة تربطه بالمخابرات العراقية ولا أية جهة أخرى. وجدوه نظيفاً من أي جريمة، لكنه صار مجنوناً رسمياً، جنونه صاف نقي من كل شائبة. حالما تراه ينطبع في الذهن كأجمل مجنون تراه العين.

خطية (برخو) نسي حياته ونفسه وصار لا يعبأ أين هو الآن ولا يهمه مصيره، كأنه ولد في رحم زنزانة، رضع منها وفطم عليها، شب وترعرع وشيب داخل زنزانة.

جسمه ضعيف مثل غاندي وصدره مكشر الاضلاع، شاحب الوجه بملامح خربة مدمرة كجبهة قتال في الفاو. برخو لا يعرف إيذاء الآخرين أبداً ولا يعرف كيف يمنع الآخرين عن ايذائه. وديع بشكل لا يطاق وبراءته لا تحتمل، ما عدا لسانه المنفلت بأمطار شتائم وسباب وافشار؛ تذوب ضباب القلق في المخيم، لذلك يتكوم عليه اللاجئون. كما ان المخيم قد ازدحم عندما نقلوا مخيم (خرم آباد) ومخيم (كهريزك) إلى هنا. وبرخو لم يتعلم من اللغة الفارسية شيئاً سوى كلمة (زندان) وكلمة (آزادي) لا يعرف إلا السجن والحرية وهو في (ايفين). ولكن الـ (٧٩)، هذا الرقم الذي ينطنط على لسانه أثناء هذياناته التي لا تنقطع حتى وهو نائم. رقم الـ (٧٩) بقي سرا مغلقا لا أحد يعرف مغزاه حتى الآن. والعجيب الغريب ان برخو مصر على الرجوع للعراق عكس جميع اللاجئين الغاطسين في وحل الحيرة والقلق والتردد. في كل ساعة لهم رأي وقرار.

اقتربت المنية وانشق القمر فجميع رسائل أصدقائي في الخارج تحذرني من الرجوع، حتى ان رسالة صديقي (حقي) الأخيرة هددني فيها بقطع علاقته معي إذا رجعت للعراق، ثم استدرك قائلاً بحزن وحشي (ولكن ما فائدة ان اقطع علاقتي مع ميت). وراح يصرخ في نهاية رسالته: أنت مجنون مجنون أكبر مجنون في العالم ولا أريد ان أسمع عنك أية أخبار، روح ارجع هل تظن ان بغداد الثكلى بحاجة إلى جثة جديدة؟ وإذا صرت بين أسنان صدام حتى الله يتبرأ منك. روح أرجع فحتى القبر الذي تحلم به لن تحصل عليه، القبر في العراق أمنية مستحيلة لا ينالها إلا السفلة أو صاحب الحظ العظيم.

ختم الرسالة بتقريع شاهق الحزن قائلاً: روح ارجع.. طيح الله حظك وحظي وياك.

أنا ركبت رأسي مذهولاً، فكل طرق العالم انسدت بوجهي ما عدا طريق الانتحار وتدمير نفسي بالرجوع إلى بلادي. هنا في إيران وصل منسوب الذل والهوان إلى آخر طابق من ناطحات كرامتي ولا أريد ان أصير مثل (برخو) مضحكة ومسخرة للأغبياء، يلعبون بي كأي قرد. يامصيبة المصيبة: قرود تضحك على قرد؟ لا.. ومليون لا.. الموت هناك أهون من عار البقاء هنا. هيا ياروحي استعدي، جهزي نفسك لاحقر موت. آخ..آخ ياروضان أنت الآخر استعد للمشنقة. سنتخلى عن الحياة ونترك العالم للمجرمين المتدودين، سيبقى العالم للدودكية فقط.

وداعاً ياروضان.

هامش دود رقم (٥)

خرج (ثامر) من بيت الحجي منزعجا مني بعدما أطلعته على أسماء فصول الرواية ومقاطعها. وأخذ يلمح بأن الصحفيين لا يحتملون عبء السر لأنهم سرعان ما يفشونه بالجرايد. ولا يزال المثل الذي ضربه عن الصحافة يرن بأذني عندما قال (طلع غراب من عز رجلي).

(ثامر) كثير الشك والارتياب بمصداقية مهنة الصحافة ويحتقر فضولية الصحفيين الشائنة التي تذكره بفضولية الإيرانيين وضرب لي مثلا عن خفة الصحافة وعدم أمانتها على سر، فقال:

ـ كان أهلنا يحكون عن المرأة المفضوحة التي لا تحفظ سر بيتها حينما أراد رجل ان يختبر زوجته هل هي من النوع الذي يفضح سره أم تحفظه. فقال لها هامسا يتلفت يمنة ويسرة: اليوم الصبح طلع من طيزي غراب.

مضت (٢٤) على هذا الخبر السري حين رجع الزوج من العمل ورأى كيف ان أهل المحلة جميعهم ينظرون إلى (طيزه) وينتظرون متى يخرج الغراب ويطير، حتى ان بعض جيرانه راح يعاكسه وهو يقول: هاي الايام هواي غربان على السطوح.

ثم قال (ثامر) مصوبا كلامه نحوي: الصحافة مثل هذه الزوجة مستحيل ان تضم وتخفي سرا. الصحافة دائماً (عز يطلع منه غراب).

لكن (ثامر) رغم كل ملاحظاته الساخطة وانزعاجه من الكتاب بقي يحثني على الانتهاء منه بأسرع وقت وهو يقول: يمعود خاف نموت بعبوة ناسفة بسيارة مفخخة وماراح انشوف الكتاب.

فعلا كنت أستعجل قبل ان تخمطنا مصادفة مفخخة أو يخطفنا قدر ملثم. أريد الانتهاء بأسرع وقت وكأن عزرائيل يقف لي وراء الباب يحمل مسدسا كاتم الصوت.

أنا اتفق مع (ثامر) في الإسراع لكشف الوجوه الملثمة التي تعتاش على نزيف الدم، وكشف العقول الملثمة التي تمارس القتل بخشوع وتقوى وورع كأن القتل أقدس واهم من الصلاة والصيام والزكاة والحج، كأن الحب الالهي لا يتم إلا بالدم.

سمعت الكثير من يقول انه ليس سببا لما يحصل ويبريء نفسه ويهرب بعيداً ليقولوا عنه بقي نظيفا لم يتلوث بهذه الدماء. لكن (ثامر) يهتف صارخا بوجه هؤلاء وكأنه يتخيلهم أمامه واقفين ويصيح:

ـ الجميع مشترك بالجريمة حتى الذي لم يقتل نملة في هذه الحرب القذرة، حتى المنزوي في عزلة صمدية لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً. كل من يقول: يدي لم تتلوث بالدم كذاب أمعط. ألم تتلوث عيناه، أذناه، قلبه، عقله وروحه، هذا كذاب أبن سطعش كذاب. بل حتى الضحايا مشتركون بالجريمة، الضحايا المذبوحون في بغداد وفي مثلث الموت وفي شارع الدم وفي محلة العبوات وفي طريق الموت. كل الضحايا الذين تناثرت أشلاؤهم بـ (٥٠٠٠)سيارة مفخخة لغاية هذا الشهر حسب الاحصاءات الرسمية، وأضعافهم من ضحايا العبوات الناسفة والاغتيالات والهاونات. كل هؤلاء الضحايا صامتين والدم من حولهم يستفزهم ان يشيروا إلى القاتل ان يعلنوا اسم المجرم والجهة التي تدفع له. ظلوا

صامتين فكان السكوت مشاركة بالجريمة، واليوم يقول هؤلاء أنهم لم يتلوثوا بدم أحد.

جريمتنا اشترك بها لا الاحياء وحدهم بل حتى الاموات الضحايا، موتانا القريبون والبعيدون منذ السقيفة إلى آخر جيفة. الاطفال وحدهم أبرياء من الجريمة التي نعيش الآن آخر فصولها.

أنا أول المجرمين فقد كنت أجبن واسكت حين أرى الناس يتجمهرون أمام أكشاك باعة الـ (سيدي واقراص الفيديو). يتفرجون على شاشات التلفزيون التي تعرض أقراص صور الذبح، ذبح الرهائن والمخطوفين. يقفون بكتل حمقاء يتفرجون ويتلذذون بقسوة القتلة الذباحة بشكل مستحيل التصديق. يتفرجون على التغزل بالقتل والتباهي بالسيف والرصاص وهم يسمعون أناشيد وأغاني تتغزل بالعبوات الناسفة ومدافع الهاون والقاذفة. بل ان شعاراتهم على الحيطان تؤكد الايمان الصوفي بالجريمة مثل: السلام على العبوة الناسفة. لا عراق بلا صدام.

شعارات تخجل منها العقرب والحية وكراص الخصاوي. حتى ان لغتها نتنة قذرة صارخة التناقض الشاذ وإلا؛ كيف يجتمع السلام (رمز الله) مع البارود والنار، كيف يتعانق السلام مع صدام وعلي كمياوي، كيف يتماهى الله مع الشيطان، كأن الشعارات تقول السلام على الله الشيطان. لم ينقص الشعارات سوى القول: السيارة المفخخة صلى الله عليها وسلم. الهاون رضي الله عنه. ورصاصة القناص أم المؤمنين أوسيدة نساء العالمين.

لأول مرة في التاريخ يمتزج بوجه واحد القاتل والمقتول، المجرم والضحية، السيف والرأس المقطوع. امتزج الوجهان بشكل عجيب وغريب بحيث لا يمكن عزل وجه المجرم عن وجه الضحية. لقد لطخ

المجرم ثيابه بدم الضحية. والضحية لبست وجه المجرم واستخدمت السلاح ذاته الذي قتلها، استعملت نفس آليات واساليب الجرم في أخذ ثأرها وفي الانتقام.

تداخل تدريجاً وشيئاً فشيئاً وجه المجرم مع وجه الضحية. صار من الصعب التمييز بين الاثنين عند الناس البسطاء الذين لم يروا وجه القاتل ولا وجه المقتول. التبس الأمر كثيراً على الذين يرون نزيفنا على شاشات التلفزيون فقط وراحوا يدافعون عن القاتل على انه ضحية كما هو حال منطقة الشرق الاوسط.

فعلا، كلام (ثامر) يحمل جرحا ينزف، وأنا رأيت ما قاله في شوارع وازقة بغداد حين تصطدم عيناي بشعارات سريالية تربك العقل وتمرد القلب مثل: المجد والخلود للسيارة المفخخة. السلام على العبوة الناسفة. فداك الشيعة والسنة والاكراد أبو عدي. المجاهدون الابطال ينيكون بغداد يوميا. الحب كل الحب لسيف الزرقاوي. لا كهرباء لا ماء ونسمم حتى الهواء إذا بقي صدام في السجن.

شعارات ترعب وتضحك من شناعة الأخطاء الإملائية والنحوية وهي..........

سمعت طرقا عنيفا على الباب (الله يستر).. مستحيل ان يأتي أحد من الاقارب والاصدقاء في مثل هذا الوقت. الناس يفرون إلى بيوتهم قبل الغروب بوقت طويل، فمن هذا الطارق المجازف بحياته في هذا الليل المحفوف بالعفاريت والجن والمجاهدين والاميركان واللصوص والسلابة النهابة. حالما تغيب الشمس تخرج كل وحوش الظلام.

نظرت من فوق السياج إلى الشخص طارق الباب، هذا الوجه أعرفه لكني لم أتذكره في البدء.. ها إنه (جمال) ابن أخت (روضان). ما الذي أتي به في هذا الليل وكيف عرف مكان سكني هنا. تناوشتني أسئلة كثيرة

كلها حادة وشائكة انبثقت فوراً في تلك اللحظة. شعرت انه يحمل قنبلة خبر صاعق سوف يفجره بوجهي في الوقت المناسب.

تركني نتعشى معا ونشرب الشاي وندخن ثم ضغط بلسانه زر القنبلة وقال دامعا: (ولادة) ماتت.

اندلع زلزال في جسدي وشعرت بدخان يتلوى خارجا من رأسي وأذني، شممت رائحة عطب وشواط ولم تطفر من عيني دمعة واحدة لكنني غصصت بريقي وما خرجت كلمة واحدة من فمي.

استغربت من نفسي كيف لم أتهدم وينهار بنياني من فوق إلى تحت، كيف قاومت الهزة القلبية. (ولادة) هي السبب الوحيد لبقائي على قيد الحياة. (ولادة) النافذة الوحيدة في قصر حياتي المرعب.

استفردني (جمال) بصوته المفجوع الذي يشبه صوت خاله (روضان) حين يتكلم يقطر بعصير المصائب والنكبات، صوت يحمل وجع البشرية كلها. بهذا الصوت دمرني (جمال) وهو يقول:

ـ كانت (ولادة) في سيارة (كيا) مع رجل مسن يجلس قرب السائق الذي تفاجأ بمرور رتل أميركي من المدرعات والدبابات وعربات الهمر. تفاجأ السائق وارتبك فشخط بسرعة نحوهم وقبل ان يصدمهم دوى الرصاص المنهمر عليهم فقتل السائق والرجل المسن... وقتل (ولادة) التي كانت جالسة في الخانة الأخيرة......

(جمال) يحكي وأنا أبتعد تدريجا واغوص نائياً فتظلم نفسي رقعة رقعة وتتحاشك في أحشائي غيوم تربد بصواعق ورعود يلتمع بريقها من عيوني حتى أجهشت الدنيا وزختها بأمطار سوداء تتلامظ من جوف كياني المنطفئ، أمطار لن تتوقف؛ وحشية تنهمر فوق قصر حياتي المظلم والمخيف، الذي يرتجف من اساساته إلى قمته حيث تجوس من حوله أرواح ضالة وأشباح تائهة ضيعت دفء أحبتها وضيعت قبورها.

الفصل السابع

ثامر (مرة أخرى)

(١)

بين جبال متشحة بأردية بيضاء، عمالقة من الصخر متجهمة بحيادية، كل جبل عملاق يجلس بهيأة تختلف عن البقية، واحد يجلس ويده تحت ذقنه، آخر يتمدد على قدميه ويتكيء على مخدة بيضاء. كلهم يراقبون بنفاد صبر أسوأ حملة توديع وأسوأ حملة استقبال، حيث كنا على خط الحدود بين إيران والعراق.

نقف أمام حقائبنا الفقيرة التي راح حرس الثورة (سباه) ينبشونها باستخراج محتوياتها ويلقونها على الثلج، كل حرس يعزل ما يشاء وحسب مزاجه من الأدوات والأشياء البالية، عزلوا من حقيبة (سعد استقلال) الذي يقف إلى جانبي ماكنة حلاقة كهربائية وصورا لسعد في متنزه (بارك آرام) وشارع (لاله زار) وكوجه مروي. أخذوا مني اقلام حبر وجاف ومجموعة رسائل لصديقي حقي وروضان مع علبة بسكويت (مينو). ثم فتشوا أجسادنا وصادروا كل ورقة وجميع النقود الإيرانية. كان الحرس يتفوهون بكلمات تحقير واستهزاء تخرج من ألسنتهم باردة ميتة لكن عيونهم تلقي علينا جمر نظرات لاهبة. برخو هو الوحيد بلا حقيبة وكان يهذي كالعادة، طفرت من لسانه جملة (افشار) لاذعة: يلا خوات الكَحبة قابل الـ (٧٩) ما شبعت نيك.

فتفجر ضحك مخنوق كسر قوالب ثلج الوجوم الذي يحيط بنا. فأسرع له أحد الحرس وأغلق فم برخو بعنف وهمجية.

أشار إلينا أحد الحراس إلى نقطة بعيدة وقال: هناك القوات العراقية. وقال آخر بقربه: هيا اذهبوا ادخلوا إلى جهنم آمنين. فاجابه سعد استقلال: على اساس إيران جنة مو؟ ترك الحرس لدينا ذكرى قبيحة وكان هذا آخر انطباع سيئ عن إيران.

انحدرنا إلى أحد الوديان متناثرين كل مجموعة اختارت درباً للنزول، رأيت أحد اللاجئين (لا أعرف اسمه) ينشج باكياً وهو يصعد راجعا باتجاه الحرس الشوري، انه ينشج ويخطو صوب إيران إلى أن اختفى بين الصخور. مشينا بخطوات سريعة قبل ان يتغير رأينا ونرجع نادمين إلى إيران، وكانت عقولنا تلهث وتنبح مثل الكلاب على كلا الصوبين: إيران والعراق. انها لشجاعة مروعة سوداء ان تذهب بقدميك كالخروف إلى الجزار. اعتقد ان الجميع اتفق ضمنياً على ان يلصم كل واحد منا عقله ويسكته عن التفكير النابح إلى أن نصل.

انا وسعد استقلال نمشي معاً بصمت وحشي ضار حتى اصطدمنا بمنظر فوق كل تصور، منظر صاعق نشاز مستحيل وجوده هنا في قاع وديان منسية بين عمالقة الجبال البيضاء، التي تراقبنا كيف ندب كالنمل تحت اقدامها. اصطدمنا بمنظر امرأة عجوز جالسة وفتاة جميلة شابة بلا حجاب مع حقيبتين وصندوق برتقال. العجوز تصرخ بوجهنا ناحبة:

- وين رايحين.. صدام هو هو وين رايحين......

اقتربنا لمعرفة هذا اللغز وكذلك جاء بعض اللاجئين يتراكضون لسماع صدى الصراخ الذي راح يلدغ الهواء والجبال ويطعن الصخور. العجوز تنتحب بعيون حمراء والشابة منفوشة الشعر منطفئة العيون مذهولة. عرفنا من الفتاة انهما هنا لليوم الثالث على التوالي في هذه الوحشة المطبقة، لا إيران تسمح لهما بالعودة ولا العراق يسمح لهما بالدخول.

تركوهما هنا لقمة لضواري الليل والنهار. انهما مثل جميع العراقيين سمعوا بالعفو، ولكونهما وحيدتين بلا أقارب في إيران قررتا العودة إلى أهلهم في العراق. لم تدركا ان العفو لا يشمل المسفرين الذين يسمونهم تبعية إيرانية، إنما يشمل الهاربين فقط. السلطات الإيرانية والحرس الثوري يقولون لهما: أنتما وافقتما بالتسليم للقوات العراقية وبصمتما بعشرة أصابع على عدم الرجوع إلى إيران ـ صحيح كما فعلنا نحن ـ ولا يمكن خرق القانون. والقوات العراقية والاستخبارات تقول لهما: العفو لا يشمل المسفرين ولا يمكن كسر قرار السيد القائد. لكن كلا الجانبين يزودهم بالطعام والماء وهذا صندوق البرتقال من حرس الثورة.

ماذا نفعل بهذه المصيبة الثاغبة في وجوهنا وأي حل نقدم لهما ونحن نتراكض فوق كف عفريت، نحن في أعوص مشكلة فكيف نحل ونعالج هذه المشكلة؟

بدأ اللاجئون ينسحبون واحد تلو الآخر نازلين التل الصغير، يتحاشون النظر إلى العجوز والفتاة وكأنهم في ساحة معركة والعدو لا يمكن قهره أو صده والوقوف بوجهه فيتركون أعز اصدقائهم جثثاً وجرحى يتوسلون بهم ان ينقذوهم ولكن هيهات هيهات، النفس عزيزة تلوذ بنفسها من الرصاص والقنابل والصواريخ، لا وقت للنفس ان تحير بغير نفسها، كل طاقتها وشجاعتها في انقاذ نفسها، الموت لا ينفع معه عقل في صده وردعه. اين يلوذ الميت من الموت؟ كل واحد منا سد أبواب نفسه عليه هلعاً من القادم المجهول وأخرس عقله وقلبه محذراً: اياكما وفتح الباب لأي طارق ومهما يكن حتى لو كان أمك وأباك أو أختك وأخاك.

وهذا ما حصل بالفعل بعدما بقيت أنا وسعد فقط نتمرغ بوحل العار البشري، شممت رائحة جيفتي ورأيت أبخرة تفسخي تطم الفضاء.

أمسكني (سعد) من ذراعي وجرني لنزول التل الصغير وقد أحنى رأسه ولم ينظر صوب العجوز والفتاة أبداً. نزلت جثة تحترق بضميرها الميت، وشعرت بأن الأرض والسماء تبصق عليّ. فسوف تنهش ذاكرتي صرخة العجوز، ولن انساها حتى بعد دفني تحت التراب.

بهذه الصورة ودعتنا إيران، ثم استقبلنا العراق بصورة أبشع، حيث أوقفونا بطابور طويل أمام غرفة آمر وحدة عسكرية، ننتظر ست ساعات باحذية غاطسة في الثلج الرخو، ست ساعات نختض ونرتجف من البرد وهلع الاستجواب. بعدها نقلونا إلى جملون ضخم يسع آلاف البشر تابع إلى استخبارات السليمانية، هنا أسر إليّ (سعد استقلال) بأنه يحمل معه عناوين اصدقاء في اوروبا، قلت له هامساً ان يخرج الاوراق بهدوء بعدما نطمئن لعدم مراقبة احد، ثم نمزقها ونلقيها في فتحة المرحاض.

في الصباح أخذونا إلى استخبارات كركوك ومنها مباشرة إلى الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية في بغداد. إذا كان الإيرانيون سلبوا نصف حقائبنا فهنا سلبوها كلها مع الحقائب ومع الملابس التي نرتديها وبقينا (بطركَ خصيانه) ثم وزعوا علينا دشاديش بيضاء كل واحد وحظه، القصيرة لحد الركبة والطويلة الهاطلة الفضفاضة التي يتعثر بها صاحبها في كل خطوة. بعد أيام غرقنا بضحك عصبي مكتوم عقب انتهاء حفلات الرعب، ضحكنا من المنظر الكوميدي الأسود ونحن نلبس الدشاديش البيضاء، فكل واحد مر بسلسلة من المعاناة الهزلية خاصة في خروجنا إلى المرحاض معصوبي الاعين ولكل واحد دقيقة في اليوم للتبول والتغوط والذي يتأخر نبول ونتغوط فوقه، يعني يصير هو المرحاض.

(٢)

بعد ثلاثة اسابيع من الخوض في برك البول والخرأ والاستجوابات السريعة المصحوبة بأمطار البصاق والرفس والفلقة. نقلونا إلى سجن رقم واحد التابع للشعبة الخامسة. اخذوا منا الدشاديش البيض واعطونا الملابس التي كنا نرتديها. وزعونا كل ثلاثين في زنزانة مربعة (مترين في مترين) واعطوا لكل واحد بطانية خاكية بالية ممزقة. رأينا حيطان الزنازين تغص بكتابات لا تطاق فوق الجص الأسمر:

ـ أنا الجندي المعدوم فاضل رسن حمود من أهالي الناصرية سوق الشيوخ رقم الدار.... أنا الجندي ريسان ثامر فالح المحكوم بالإعدام يوم ١٣/ ٤/ ١٩٨٦ من محافظة الانبار الفلوجة رقم الدار..... أنا نائب العريف موزان حسين لفتة المحكوم بالإعدام يوم ١٩/ ٥/ ١٩٨٨ من العمارة قضاء علي الغربي قرب دائرة الكهرباء رقم ال....، انا.. انا.. انا. الجدران الاربعة تنث بدم اسماء المعدومين، لم أستطع تخيل وجوه المعدومين لكثرتهم، احدق في كل اسم قبل النوم حيث المصباح يظل مشتعلاً في الليل والنهار دون الوصول إلى وجه المعدوم، إذ كانت الوجوه متداخلة متلاحمة في هلع يشع من العيون الناطة، هذا التداخل في الوجوه يشبه تداخل الاسماء وتحاشكها. أول شيء تبادر إلى عقولنا هو اننا في غرف انتظار الإعدام، وربما حتى بدون محاكمة. لكنني كنت اتساءل من أين حصلوا على أقلام الجاف لكتابة الاسماء، وإذا كان الجميع

سيعدمون فما فائدة نقش الاسماء على الجص؟ هل يراودهم أمل في ان ينجو واحد منهم بسجن مؤبد أو عفو رئاسي من صدام فيسجل الاسماء كلها ويبلغ أهلهم بمصير أبنائهم الجنود، وهذا عمل جنوني في جميع الاحوال، إذ لا يتجرأ أي جندي في تحدي الاستخبارات وقوات الأمن والرفاق الحزبيين وتبليغ أهل المعدوم. ثم ان نصف الاسماء بلا عناوين فكيف يهتدي ناقل أخبار الموت إلى بيوتهم؟ لا أعتقد أن أحداً يجازف بدور رسول الموت. فكل عائلة يخبرهم بإعدام ابنهم سينقضون عليه ويملخونه وذرة وذرة. ولكن أين سيدفنون جثث المعدومين إذا لم يسلمونها لاهاليهم؟

انصدمنا مرة أخرى بوجود اسماء وعناوين كاملة ومضبوطة مكتوبة على البطانيات، بعضها يتكرر بنفس الاسم المكتوب على الحائط، هل هذه الاسماء لجنود جميعهم من الفارين فقط أم هناك تهم أخرى وما اكثرها طوال ثماني سنوات من الحرب؟

من حسن حظي ان (سعد استقلال) كان معي بنفس الغرفة لكن برخو وكريم الصيني في الغرفة الملاصقة لنا. طبعاً لم نكن نعرف ان بعض المعتقلين معنا هم في جهاز الاستخبارات، بل كانوا لاجئين في المخيمات في إيران بدون ان نكتشف ذلك. ولكن غارات الحرس علينا في الليل جعلتنا نحذر ونتأكد من وجود هؤلاء المندسين بيننا. تندلع هذه الغارات بعد منتصف الليل دائماً، حيث السكون الخارق للعادة، لا شقشقة حشرات ولا طنين أجنحتها ولا خطوات خارج سياج السجن ولا صليل سلاح، كل شيء هامد جامد حتى أنفاس المعتقلين مكتومة خانسة، كأنه نوم ميت بلا شخير ولا طحير ولا جمل أحلام وكوابيس مبتورة بل حتى برخو لا نسمع هذياناته أثناء النوم. كنا نختض ونرتجف من الخوف والبرد. فرشت بطانيتي فوق صبة الاسمنت لي ولسعد وتغطينا ببطانيته.

نفترش جثث اسماء المعدومين ونتغطى بجثث اسماء المعدومين. وفجأة تلعلع المزاليج والاقفال والمفاتيح، فيتمزق السكون ويتناثر إلى صليل سلاح ودوي احذية ثقيلة. فتحوا باب قضبان غرفتنا وحالما يرفع أحد منا رأسه يأتيه بسطال يدوس فوقه. رفعوا أحد النيام أو يمثل النوم لأن الجميع فز وانسلتت عظامهم من اجسادهم فورما اندلعت أصوات المزاليج والاقفال. أخذوا واحداً منا وخرجوا بمثل غارة الدخول وبنفس لعلعة الأصوات. صاح واحد من الغرفة المجاورة بعدما أقفل الحرس باب السجن الخارجي:

- هذا منو إليّ اخذوه؟ اجابه اقربنا إلى الباب:

- عبدالكريم محمد من اهل الخالص.

كل معتقل أخذوه في الليل يختفي ويتلاشى ذكره ولم يعد أحد ينطق باسمه لا اليوم ولا غداً ولا في البرزخ ولا حتى في يوم القيامة، يتحول فجأة إلى عدم حال جره وسحله إلى خارج باب سجن رقم واحد وكأنه لم يوجد أصلاً ولا ولدته أمه.

كلما تندلع أصوات المزاليج والاقفال بعد منتصف الليل تسقط قلوبنا تحت أرجلنا وتعصف ريح مسمومة داخل الجسد فيهتز النيام تحت البطانيات مثل سمك مخنوق يلبط خارج الماء. بدأ أفعى الندم تتسلل إلى صدري، وتلتف حولي تعصرني لتقيؤ أحشائي، وأنا أسمع صرخة العجوز بين عمالقة الجبال: وين راحين.. صدام هو هو.

(٣)

حتى الانتحار فاتني. فاتني، لأنه يأتي ويطل مرة واحدة مثل فرصة العمر، فاذا لم تقطفها وتستثمرها فوراً، بلا تفكير طويل أخرق ولا تمحيص ارعن، سوف تفلت من يديك وتتلاشى إلى الأبد. هكذا فاتني الانتحار فهل تتكرر فرصة العمر مرة اخرى؟ كم كنت غبيا وأحمق حين فرطت بفرصة الانتحار في سجن مطار (مهرباد) في طهران بعد مشاجرتي مع الموظف الحاقد. وصل مفعول الانتحار إلى حلقي حيث تحاشكت عليّ الهموم والإحباطات وصخور الفشل. إلتمت فوق رأسي غيوم العبث واليأس والجزع والقنوط، فلا جدوى من المحاولة مع فتح أقفال الحياة المزنجرة التي ضاعت مفاتيحها إلى الأبد. وقتها هناك رأيت الحياة (نكتة بايخة) يرويها سافل غثيث ثقيل على المعدة، تفوح من بالوعة حلقه رائحة فجل عفن كان يتجشؤه في أثناء رواية النكتة. توفرت اسلحة انتحار كثيرة في سجن المطار: الكهرباء، الحزام، قياطين حذائي واسلحة جاهزة للتنفيذ. لكنها سقطت من يدي حين تلبسني الجبن والتفكير بالثأر من الموظف الحاقد والذين ضربوني.

الآن هنا وأنا في سجن رقم واحد انقلب الانتحار إلى التشبث بالحياة وبطولة البقاء في صراع جنوني من اجل الشهيق والزفير. بينما المفروض ان كل شيء هنا يسوقنا ويدفعنا إلى تنفيذ انتحار جماعي، فلم يصادفني في حياتي ذل وانكسار مثل انكسار العائدين للعراق من إيران، وجوهنا كانت

كغزال بين قطيع نمور، وجوه مطاردة ترى محنتها في عيون بعضها مثل وجوه اسرى سقطوا في الفخ وهم يسمعون رصاص إعدام أصحابهم. وجوه سقط منها الحب الارعن الغشيم للوطن وللأهل رغم اني لا أزال متشبثاً برعونة حب الوطن، الذي صار عند الآخرين مسخرة ونكتة فطيرة وباهتة لا تضحك. حب الوطن صار مرضاً لوثة عقل وشيزفرينا قلب.

سقطت من وجوهنا مبررات معرفة مصير الأم والأب والأخوة والأقرباء والأصدقاء حتى مبررات تحذير الناس من وهم إيران سقطت هي الأخرى، وسقطت معها محاولة فتح عيون الناس من وهم الأحزاب وتحذير الانتماء إليها إذ أعدم آلاف من الشباب بسبب وهم إنقاذ البلاد بواسطة دكاكين الاحزاب التي تشتري وتبيع الجهاد والنضال على المساكين الواهمين بالخلاص. سقط وهم إيران الاسلامية وعدم التخلي عن حبها إلى حد الموت. سقط حتى اليوم مبرر فضح إيران أمام أخوتي وأهلي والأصدقاء والناس جميعاً. كما سقطت من وجوهنا أحلام السفر إلى الدول الغربية حيث رأيت كيف ينط من وجوهنا وجه مهرج تعتعه الفشل. وجه مهرج فشل حتى في الندم حين تركنا بلادنا يغتصبها كل من هب ودب من صدام وربعه القتلة. رفسنا بلادنا بخطواتنا الهاربة إلى إيران بلا شفقة ولا رحمة. انقشع مطر الندم الذي لم ينقطع عن البصاق في قلوبنا ونحن في إيران. سقط عن وجوهنا عفريت الحنين فانطفأت واسودت مثل غربان ضيعت المشيتين.

دخل (سعد استقلال) إلى زنزانتنا بعدما مشوار التنظيف خارج سياج السجن. جلس بقربي وكأنه يحمل خبراً ساراً لا يريد ان يطلع الآخرين عليه. انتظر قليلاً وهو يتلفت بحذر لئلا ينتبه إليه أحد. لكزني بكوعه واخرج من ثنية سرواله رأس بصل صغير ناعم. ابتسمت من كل قلبي فرحاً. ففي هذه المجاعة المنظمة هنا يعد رأس البصل كنزاً ثميناً. وعند

الغداء قسم سعد رأس البصل إلى قسمين، فتحت صمونة الجيش اليابسة وحشرت قشور البصل فيها فالتهمته بدون ازالة قشرته الخارجية. هنا تتألف وجبات الغداء الفخمة من اقتلاع الحشيش البري النابت في باحة السجن الخارجي ثم إلقائها في قدر ضخم (قزان) مغمور بالماء المغلي يقدمونه لنا بصفته وجبة (مرق أبيض) أو قرنابيط مسلوق مع تمن يكسر الاسنان وصمونة إذا عضها الكلب يعوي ألماً. وفي العشاء يقدمون لنا قطع لحم كبيرة مقززة لم يعرف أحد مصدرها من أي حيوان فلا هي لحم غنم ولا بقر ولا جمل، إذ قال اكثرنا خبرة في لحم الحيوانات: انه لحم كنغر، وقال اخر: لا انه لحم كركدن. وهكذا ظلوا يأكلون لحماً لا يعرفون اصله ومصدره من أي حيوان ولا من أي قارة، وأنا لم اتناول اللحم منذ فترة طويلة، لا احب كل انواع اللحوم فدائماً يراودني شعور مقزز وأنا اتناول اللحم وكأني آكل نفسي.

فقدنا نصف وزننا من الجوع وكشرت أضلاعنا وبرزت عظامنا فتحولنا إلى جلد وعظم وصار موضوعاً للمزاح والنكات خاصة عظام الوركين تحت الحزام، صار كل واحد منا لديه مسدسان في جنبيه مثل الكاوبوي وكان (برخو) أضعف وانحف واحد فينا، صار بخفة الريشة ومثل طيف أو شبح ومع ذلك لم يشفقوا عليه ولم تنكسر قلوبهم على حاله، بل زادوا وتمادوا في التحرش به والضحك عليه، حولوه إلى لعبة يتسلون بها وهو يشتم ويفشر: خوان الكَحبة انتم انكَس من الـ (٧٩). فيقولون له: كَول حشا السامع كَول. فيقول: كلكم خوات كَحبة حشا السامع. ويلحون عليه بضغط اكثر: لك كَول حشا السامع لا نشبعك كتل. حتى ينفجر بهم صائحاً: كس اخت السامع.

أنا و(سعد) لا نستطيع العراك بمشاجرات يومية معهم ولن يفيد الكلام والتوبيخ معهم، لذلك تركناهم حتى لا يزداد عنادهم بإيذاء (برخو).

سكتنا بقلب متورم. عذابي الأشد مصدره هؤلاء أخوتي المعتقلين، يتعاركون على أتفه الاشياء وأسخف الاسباب. أمزجة متنافرة وعقول هشة، يتهافتون على الطعام ـ ولهم الحق في ذلك من شدة ضراوة الجوع المخطط له والمنتظم ـ فحينما يأتي العشاء كأنه الوجبة الأخيرة وبعدها سينقطع عنا الطعام إلى الأبد. اشخاص لا يطاقون تعيش معهم تحت سقف واحد، يأكلون معك ويشربون وينامون وعليك ان تتحمل اعفاطهم واضراطهم. وفي ايام المحن والشدة يتحول البشر إلى غريزة تعوي، ويتحول العقل إلى (قندرة) قديمة مرقعة؛ تحولوا إلى كائنات خرافية يؤولون كل صوت وحركة إلى شيئين فقط: إما الإعدام أو الإفراج. فاذا سمعوا صوت هديل الفاختة ينقسمون إلى نصفين، نصف يفسرها خيراً فيقول: العفو يشملنا. والنصف الآخر يقول مفسراً الهديل إلى نعي على الاموات: العفو ما يشملنا وكلنا إعدام. وإذا سمعوا الططوة يتشاءم نفر منهم وآخرون يتفاءلون. ويومياً تتكرر جملة (شامل لو ما شامل) مئات المرات. وكأن صدام بلا شغل ولا عمل سوى جمع الطيور والحشرات والحيوانات يومياً يحملهم رسائل وشيفرات لنا عن الافراج والإعدام. فيما تندلع مشاجرات يومية على الماء لا تنفض الا بعد أن تبح أصوات بعض العقلاء، فالماء قليل وبعض المصلين يستهلكون كميات غير قليلة منه بحجة الوضوء الصحيح وإعادة الوضوء وغسل الجنابة وحسابات فقهية عويصة تنشف الريق والماء معاً، كما انهم يتأخرون في المراحيض كثيراً، الشيعة تؤخرهم الخرطات التسع والوهابيون يمدون إصبع السبابة في الدبر لاستخراج الخرأ ومسحه على جدران المرحاض.

لم ندرك شدة عفونتنا وقذارة الزنازين إلا بعد ما رأينا الحرس من الانضباط العسكري يلبسون كمامات حول انوفهم وافواههم على الرغم من شدة البرد ايام الشتاء، وكانوا يتقززون ويتضايقون حال دخولهم باب

السجن فينهون شغلهم بسرعة وعجالة في أمر تبليغ أو جر واحد منا إلى مصير مجهول.

في هذا المناخ الدموي والأنفاس المختنقة رعباً ورائحة مسلخ بشري، حظيت في جوف الليل وعلى الرغم من ضوء المصباح المتوهج ليلاً ونهاراً، بحركة مريبة سمعت في البدء حسحسة كامدة وصوت لحم يحتك بلحم، فتحت عيني اليسرى ببطء صوب مصدر الصوت فرأيت في زاوية الزنزانة امامي، بالضبط في المكان الذي ينام فيه ناجي علوان، رأيت البطانية ترتعش تنزاح للاسفل ثم تنجذب للاعلى، وبعد لحظات مد وجزر البطانية التي ازيحت الآن وانكشف العري المفضوح، فتحت الآن عيني بوسعهما وأنا في ذهول وارتباك عندما سجد المعتقل المحترم نجاح عبدالقادر عارياً تماماً بطيزه المفتوح على مصراعيه وناجي أفندي يدخل بأدب جم بين مصراعي الباب المفتوح هذا، وراح يدس نفسه في الثقب القبيح الاسود داخل حقل الخرأ، إذ انمسخ بلحظة خاطفة إلى مجرد عير يرهز مثل كلب بلسانه اللاهث. صدرت من نجاح المحترم همهمة ألم ولذة ثم حشرجة فاطبق ناجي بكفه اليمنى القوية على فم وانف نجاح، الذي راح وجهه يصفر فوق صفاره الاصلي ويزرق من الاختناق، وهذا جاثم فوقه يطوقه من جميع الجهات ويرهز. نجاح يحاول التملص وذاك يعصره بوحشية. رفعت رأسي قليلاً للتدخل والصياح لايقاظ النائمين لئلا يموت المنيوك بين يدي النياك ويصحو سجن رقم واحد على جريمة قتل نتلطخ جميعنا بعارها، لكن ناجي افندي ترك المنيوك المحترم وهو باخر نفس. تمددا من جديد وتغطيا بالبطانية التي ظلت ساكنة راكدة بلا مد وجزر بحر المني. لا اعتقد اني وحدي فقط من رأى هذا الفيلم (السكسي) عن الشذوذ الجنسي، ربما كان جميع المعتقلين في الزنزانة

يشاهدون هذا الفيلم المرعب حد الاشمئزاز الكوميدي. استيقظنا في الصباح على فصل جديد ومناخ يتلظى.

فجأة ومن دون سابق إنذار انقض علينا الصيف بكل جبروته وطغيانه وكأنه يقول: جميع الطغاة والدكتاتوريات والسفاحين خرجوا من عباءة قيظي. صار الجو خانقاً لا يطاق والحر حمسنا حمس. اختفى الهواء ونحن نلوب ذهاباً واياباً في الممر الضيق أمام قضبان الزنازين واشتد الصراع والنزاع على الماء الذي ينقطع عنا لفترات تمتد احياناً إلى يومين فالمحظوظ من يشرب ماءً يفور. هناك ثلاثة ثقوب في باب السجن كنا نتناوب عليها في طابور طويل لتنفس الهواء. أضع أحد منخري في الثقب وأتنفس بعمق وشراهة، أعب وأعب حتى يطبطبوا على كتفي: (خلص سراك) فينتهي دوري في التنفس من ثقب الباب.

وفوق كل هذه المصائب، وكأن مشهد سجن رقم واحد بحاجة إلى لمسة كارثية أخيرة لتكتمل الصورة، إذ نشب فينا وباء مرض السحايا. طبعاً في البدء لم نكن نعرف اسم المرض لكن حالات التقيؤ الكثيرة والتبول والتغوط اللاإرادي أرغم استخبارات الشعبة الخامسة إلى التدخل واستدعاء فرق صحية قامت بتطهير سجن رقم واحد ورش غازات التعقيم والمبيدات وتم فحص المعتقلين خارج سياج السجن واجبروهم على تناول كبسولات الوقاية من المرض، ثم زودوا كل واحد منا بشريط كبسولات بلون وردي فاقع. لكن الاصابات في تزايد واغلب المعتقلين في زنزانتنا طريحو الفراش بحمى لاهبة لا ترحم، أنا و(سعد) مع اثنين آخرين نتنقل من مريض إلى آخر بايدينا خرق قماش مبللة نمسح بها جباه وصدور واطراف المرضى، وحين جلست قرب نجاح المحترم المنيوك بللت جبهته ورأسه الساخن ونزلت إلى صدره وأطرافه. ابتسمت على تفكير شيطاني راودني

ووبخت نفسي عليه. إذ فكرت وأنا أمسح فخذي نجاح بالماء: منين أعالجك واشافيك، من مرض السحايا لو من مرض طيزك؟ في حين انتقل (سعد استقلال) إلى ناجي افندي يمسح له صدغيه وجبينه بالماء وأردت ان أحذر سعد بالقول: (هذا السحايا كلها صايره بعيره).

كنا نعطي المصابين الحبوب والكبسولات في أوقاتها. صدمتنا أعراض السحايا برعب ممزوج بالضحك حيث الهذيانات الجماعية وصلت إلى عنان السماء، كل مريض يهذي وحده وحالات النكوص المتفاقمة نحو الطفولة وذكرياتها والانخراط في البكاء على دعبل ضاع وانقطاع خيط طائرة ورقية وأناشيد واغاني صفوف الابتدائية. جميع المصابين بمرض السحايا صاروا مثل (برخو) لكل واحد منهم موجة هذيان يبث منها جنون نفسه. كأنه ثأر وحوبة (برخو) المسكين جعلتهم مخابيل مثله، بالامس يضحكون عليه واليوم هم المسخرة والمضحوك عليهم (يمكن برخو شور بيهم). ولكن برخو بيده خرقة مبللة يبرد بها سخونة هذا وذاك لا يخطر بباله أصلاً أنهم كانوا يؤذونه ويتخذونه لعبة.

في الاسبوع الثالث انجلى الموقف النهائي، إذ خفت الحمى وهبطت درجات السخونة وتلاشت حالات التقيؤ، وانقطع بث الهذيانات واختفت حالات التبول والتغوط اللاإرادي. ثم أحصينا الخسائر التي نجمت عن وباء السحايا فكانت سبعة مجانين وخمسة عشر أبله وذهانيا وواحدا أعور، فقد انطفأت عينه تدريجاً وصار كأنه أعور منذ الولادة، مع حالات لا يمكن ادراجها بالخسائر مثل بطء الكلام وتشتت الانتباه وضمور في حاسة السمع وانعدام حاسة الشم.

لقد تأكدت شكوكنا ببعض المعتقلين المندسين معنا وتحاشيناهم. لقد دخل علينا ضابط استخبارات وحرس السجن وقال: ان التحقيقات انتهت

وقضيتكم رفعناها إلى السيد الرئيس. أخرج معه ستة من المعتقلين بدون اهانات ولا قيود ولا سحل وأقفلوا علينا الباب، فأيقنا ان هؤلاء الستة من استخبارات الشعبة الخامسة.

قبل غروب الشمس بقليل جاءت وجبة العشاء كالعادة بكتل اللحم الذي بقي لغزاً بدون معرفة مصدره: من أي حيوان هو؟. تنفسنا بحرية بعدما رفعوا عن صدورنا صخور المخبرين عملاء الشعبة الخامسة وانطلقت النكات السياسية والجنسية أثناء الاكل. أنا تناوشت صمونتي ورحت ألوكها لقمة بعد لقمة حيث دائماً ينشف حلقي من كثرة استهلاك اللعاب لشدة يبوستها وكأنها عظم، فهذا هو عشائي منذ يومي الأول في سجن رقم واحد. توقف الضحك والكلام فجأة بعد صيحة مروعة:

ـ هذا (حنين مال الله).

تطافر الجميع تاركين قصعات الطعام، وأنا تركت نصف الصمونة المتبقي فوق البطانية وهرولت إلى التجمع المذهول. رأيت قطعة لحم تنتقل من يد إلى يد. لاحظت شحوب هلع صاعق وجحوظ العيون على كل من أمسك قطعة اللحم. كل من يعاينها يرميها ويهرب جانباً يتقيأ وينوح حتى وصلتني قطعة اللحم وأنا لا أعرف ماذا فيها من مصيبة فسألت مندهشاً:

ـ شبيهه هاي اللحمة؟

كان بقربي (حبيب عطا مناحي) الذي كان نقيباً في الجيش عندما هرب إلى إيران. أجهش حبيب ببكاء ساخط وهو يهز برأسه يمنة ويسرة ويقول لي:

ـ هذا زند (حنين مال الله).

وأشار إلى وسط قطعة اللحم، إلى حيث الوشم الاخضر الباهت الذي

لم يمحه الطبخ في الماء المغلي. فعلاً رأيت الوشم وهو عبارة عن قلب مطعون بسهم وتحته اسم (حنين) واسم (فريدة). شعرت بغصة في بلعومي وعربدة في معدتي ونبض عنيف في صدغي، ثم تقيأت على قميصي ولسعتني عيناي تجرحني بدمع لاهب مخبول. ولساني يعول:

ـ اشلون أزوع كل اخوتي الاكلناهم؟.

تعالى النحيب والنواح من كل مكان وامتلأت صبة الاسمنت بالقيء والدموع، فطول كل فترة الاعتقال هذه هنا في سجن رقم واحد ونحن نأكل أخوتنا المعتقلين والمعدومين. كيف نتقيأ كل هذه الاجساد البشرية وقد امتزجت بلحمنا ودمنا وعظامنا، (آخ.. آخ ياحنين لو نستطيع تقيؤ انفسنا؟). (كريم الصيني) يصم كفه اليمنى ويدق على صدره بايقاع فجيعة أكلة لحوم البشر، و(سعد استقلال) ينشج وهو جالس في زاوية زنزانتنا لا يعرف ماذا يفعل بروحه، و(برخو) خانس يهذي بلا صوت. (حنين) الذي عصف في قلبه الندم ما ان اجتاز الحدود الإيرانية داخلاً الاراضي العراقية، رجع للوراء بعكس خطواتنا الذاهبة صوب القوات العراقية. ربما رأى (حنين) صورة منيته على شاشة الجبال البيض ورجع، لكن القوات الإيرانية طردته بذريعة: (أنت بصمت بعشر أصابعك ان لا تعود لإيران... ارجع.. ارجع مع اصحابك إلى الجحيم.. إيران بصقتكم.. ومستحيل ان تعود البصقة إلى الفم).

نهض (حبيب عطا مناحي) صارخاً بالجميع ان نسكت لئلا يسمعوا ويعرفوا اننا اكتشفنا سر اللحم فيعدمونا الآن في هذه الليلة. اش بدون صراخ ولا عويل، انتحبوا بصمت، اصرخوا صراخاً مدفوناً لا تفضحونا ونموت ويموت معنا السر.

(٤)

اليوم أصعدونا في سيارات الإعدام، أعتقد ان اليوم هو الأربعاء، أخرجونا في ساعة الغبش الاولى إلى باحة السجن، أمام عدد كبير من حرس الانضباط العسكري وهم بكامل أسلحتهم. قيدوا أيدينا بشرائط بلاستيكية إلى الخلف وأركبونا بسيارات كبيرة بلا شبابيك ولا نوافذ، سيارات متجهمة قبيحة؛ حيث أدركنا من خلال شكلها ولونها وكثرة الانضباط المسلحين ورهبتهم أدركنا: أنها سيارات الإعدام.

أحلك مفارقة دوختنا ونحن ندخل قاعة محكمة الثورة برئاسة (عواد البندر) الذي كان منفعلاً بشواربه المصبوغة التي ترتعش حنقا. نزعوا من ايدينا القيود البلاستيكية قبل دخولنا ونحن منشغلون بأوجاعنا من آثار الحزوز على الرسغ، أجلسونا منكسي الرؤوس جامدين وأيدينا ملتوية للخلف طوال الطريق، لكننا رأينا اثنين من الحرس بملابس مدنية يسحلون شاباً مراهقاً لا يتعدى عمره ست عشرة سنة، كان المسكين مدمى الوجه يقطر دمه على صبة الاسمنت وهم يجرونه. عرفنا قصته من خلال ضحك مكتوم محترس دار بين حرس الانضباط العسكري وهم يزيلون القيود ويتنابسون: حكمه عواد البندر بالإعدام شنقاً فتقدم الشاب خطوتين صوب رئيس المحكمة وهو يبتسم فقال للحاكم بلحظة صمت واجف مكهرب، إذ كانوا يتوقعون من الشاب المحكوم بالإعدام أن ينخرط بالبكاء ويطلب المغفرة والشفقة والرحمة، لكنه قال مبتسماً:

ـ بلكن توزن لي كيلويين طماطة بهذا الميزان الوراك.

لولا رهبة الدم وسطوة الموت لانخرط الجميع بضحك هادر وهم يتخيلون الحاكم (عواد البندر)كيف يعير ويوزن الطماطة في ميزان العدالة الذي وراءه.

لذلك رأينا عواد البندر يمسح العرق بمنديل أبيض وشواربه تهتز. يعرف الناس الصيت الاسود والسمعة الدموية لهذه المحكمة ومهزلة أحكامها وقوانينها المصنوعة من البلاستيك المعاد. فحاك الناس حولها وألفوا نكات وطرائف كثيرة على مجريات الاحكام وعقوباتها وقرارتها والتهم الرخيصة التي تجري في قاعة محكمة بسطال الريس. وان ميزان العدل الذي وراء الحاكم هو خصيتا السيد الريس، حيث تتدلى إحدى كفتيها حسب نشرة الأنواء الجوية ومزاج الخصيتين.

تقلص عددنا إلى مئة وثلاثة وهو حصيلة من بقي منا حياً، نقف الآن خاوين مهدمين أمام حضرة الحاكم ومساعديه الأيمن والايسر جالسين تحت ميزان الخصيتين المقدستين، إضافة إلى المدعي العام والمحامي مع طاقم الحرس. ازدحم قفص المتهمين واصطف الفائض منا خارجه. تكلم المدعي العام وهو يشير إلينا:

ـ هؤلاء المتهمون هم من مخلفات الحرب وفي الحروب تحدث أشياء كثيرة. صحيح انهم خانوا الواجب وتركوا ميدان المعركة لكنهم ابناؤنا على الرغم من جريمة الهروب المشينة التي ارتكبوها، فارجو من سيادة الحاكم ان يشفق عليهم ويرأف بحالهم. وها أنا أضع أولادنا المذنبين بين يديك وتحت رحمتك.

طبعاً هذا مختصر العرض الطويل من كلام المدعي العام الذي ناول كرة مصير (المئة وثلاثة) إلى المحامي فاستبشرنا خيرا لأن المدعي العام

كان رؤوفا إذ لا بد أن المحامي سيكون أكثر رحمة، لكنه هب علينا عصبياً حانقاً يتطاير الشرر من عينيه ولسانه وشواربه وهو يقول مشيراً إلينا:

ـ هؤلاء الخونة المجرمون تركوا بلادهم وهي في أمس الحاجة اليهم، ورموا أنفسهم بأحضان العدو المجوسي. تركوا الاطفال خائفين من أنجاس الفرس، وتركوا الماجدات العراقيات مرعوبات من اغتصاب جنود العدو، تركوا السيد القائد وحده بصدره يحمي العراق. لقد خانوا الرئيس والحزب والثورة وخانوا الشعب والأمة. وأنا أطالب بانزال أقسى وأشد العقوبات ومحو عارهم من خارطة الوطن العربي الكبير. هؤلاء مرض ورم خبيث ينبغي بتره واستئصاله وبيدكم ياسيادة الحاكم سيف العدل والقصاص واجعلوهم عبرة لكل الخونة.

استعدل (عواد البندر) في جلسته، ومسحنا بنظرة حاقدة من اليمين إلى اليسار وكأنه يصوغ حكماً يفكر فيه الآن في هذه اللحظة لا حكماً مطبوخاً وجاهزاً حتى قبل موعد المحاكمة، هناك في مطبخ القائد صاحب خصيتي ميزان العدالة في محكمة الثورة الموقرة. فتح عواد البندر ما تحت شاربيه ونطق علينا حكماً بالجملة اختصاراً للتعب ودوخة الرأس من التعداد اسما وراء اسم بهذا العدد الكبير (مئة وثلاثة)فنطق بحكم: السجن المؤبد.

اندهشت لأن الجميع راح يبارك لنا ويهنئنا خاصة حرس الانضباط العسكري وهم يقولون: ـ الله نجاكم من الإعدام، اعتبروا انفسكم طالعين. يمعود يوميه يصدر عفو. باجر عكَبه اطلعون وتصير كلهه سوالف. محكمة الثورة بيهه حكمين بس: لو إعدام لو مؤبد. الله رحمكم وكَلب السيد الريس جبير. لازم تبشرون اهلكم هناك بسجن ابو غريب.

(٥)

استقبلونا بالأحذية في سجن أبي غريب قسم الاحكام الخاصة. ادخلونا في ممر طويل لا مظلم ولا مضاء، ممر عجيب مثل نفق خرافي ينتهي ببصقة نور. تخيلته فوراً جوف حوت فقلت في نفسي: الآن يا ثامر أنت في بطن حوت لا يريد ابتلاعنا ولا يريد تقيؤنا.

اجلسونا في بلعوم الممر بوجوه ممزقة مثل صور مزقوها ثم لصقوها كيفما اتفق، لا أشعر بالجوع ولكن العطش راح يلحس آخر قطرة ماء في بئر جسدي.

وقف رجال الأمن خلفنا وهم يبسبسون ويضحكون، يتراهنون على ضرب أحد الرؤوس بحذاء وامرونا: كل من يضربه الحذاء يرجعه اليه. كنت جالساً في الوسط أحاول قدر الامكان طمس رأسي بين الكتفين. وبدأت حفلة الاحذية ولم ينل رأسي شرف ضربة حذاء. ثم غير رجال الأمن هذه اللعبة بلعبة أخرى بعدما ضجروا منها. جاء أحدهم الذي يحمل اثخن شارب فيهم يسمونه مفوض (نزار) وقال: من منكم برتبة ضابط ونائب ضابط ورئيس عرفاء وعريف ونائب عريف يخرج إلى هنا. خرج أربعة ضباط وستة نواب ضباط وثلاثة عشر بين رئيس عرفاء وعريف ونائب عريف. اوقفوهم بصف حسب الرتب وقال مفوض نزار:

ـ يلا.. اكنسوا الممر بشواربكم. وأنتم البقية امسحوا الممر بلسانكم.

لكنهم ضجروا من هذه اللعبة أيضاً بعد أقل من ساعة، فدخل رجال الأمن كلهم إلى غرفة وخرجوا منها متسلحين بعصي وكيبلات وصوندات سوداء ثخينة، العصي لها أشكال مختلفة منها مستقيمة ملساء ومنها الملتوية ومنها المفصصة. قسمونا بصفوف على عددهم وبدأ العقاب المدرسي القديم: افتح ايدك. وكانت حصة كل واحد منا من عشرين إلى اربعين ضربة. وأنا بعد الضربة العاشرة فقدت الاحساس بيدي فطردني بعد العشرين ضربة باصقا بوجهيّ وهو يقول: يله انقلع عابتلك هل شكل.

دخلنا في قاعة يسمونها (المطعم) وايدينا مهشمة لا نشعر بها وسمعنا كلمات سيدي تفضل، طل علينا نقيب شرطة الأمن معتذراً لنا عن تصرف رجاله لانهم انفعلوا ولم يحتملوا هروبكم إلى إيران. ونادى على صاحب الحانوت: أعطهم ما يريدون ويسددون لك الدين بعد المواجهة مع اهلهم.

أول شيء اشتريته (تكه) سجائر سومر أسود، فلم أدخن منذ أحد عشر شهراً هناك في الشعبة الخامسة وسجن رقم واحد.

دخلنا في ألعن مفارقة سوداء مضحكة ولم يخطر على بالنا لحظة واحدة ونحن نتخيل ألوان العذاب حال رجوعنا إلى العراق ان يكون للسجناء حصة فيها. طبعاً كنا نتوقع من الأمن والمخابرات والاستخبارات كل اصناف الرعب والترويع والاذلال. ولكن المفارقة الشمطاء هي عداء السجناء لنا وكراهيتهم المتطرفة لكل واحد منا. راحت تردنا أخبار هذه الكراهية ونحن لا نزال في قاعة (المطعم). أطلقوا علينا اسم (الخوارج) برغم أن الإمام علي بن أبي طالب وأبو موسى الاشعري ومعاوية ماتوا منذ (١٤٠٠) سنة. ولم نتوصل إلى سبب العداء والكره الا بعد اختلاطنا معهم. كنا نتراجف بين عدوين شرسين بودهم علسنا بأنياب بعثية وانياب

أخوية دينية حزبية. كنا نتراجف بين فكين مسعورين يشلنا الذهول والدهشة ولا نعرف اين نهرب ونلوذ. رجال الأمن يمطروننا يومياً ببصاق: عملاء، جبناء، خونة. والسجناء يدسون لنا تهديدات مبطنة: خوارج، أعداء الامام والدين. في حين كان أغلب سجناء (المئة وثلاثة) العائدين من إيران، لا يعرفون من هم الخوارج، ولم يقرؤوا التاريخ الاسلامي المنقوع بالدم.

تم توزيعنا على الجملونات، وهنا افترقنا أنا و(سعد استقلال)، الذي وضعوه في (ساحة) الجملون الثاني ـ هكذا هم يسمون ملحق الجملون ـ أنا وضعوني مع خمسة من جماعتنا العائدين للوطن في (ساحة) الجملون الاول. ادخلونا في مربع يسمونه (الخيمة) الثانية.

هجم عليّ مباشرة شعور غريب ملتبس وكأنني ادخل في مناخ خرافي لا يمت بصلة إلى أي واقع أثناء ما دخلت في الجملون الثاني ثم الأول في عملية توزيعنا. فقد كنت لا أحتمل أمزجة مئة وثلاثة فكيف الآن مع أمزجة آلاف السجناء. دخلت في جو اسطوري وأنا أرى: السجناء على رحيل. الجميع على أهبة الرحيل كما يبدو. دواشك الاسفنج مطوية ومشدودة بحبال فضية، البطانيات ملفوفة وكأنها تخفي بداخلها جسداً طيفياً. كانت معلقة بخطاطيف تنزل بحبال من سقف الجملون، أفرشة تتدلى مع صرر منتفخة حبلى من سقف (الجينكو). صرر تضم حاجات وأغراض السجناء ذات الاستعمال اليومي: أدوات حلاقة وملاقط، أرغفة خبز داخل أكياس نايلون ـ الخبز اللين معزول عن الخبز اليابس ـ مع أكياس بصل وفلفل وخيار وطماطة، واصطدم رأسي ببعض أكياس تحمل (الرقي) والبطيخ.

جاهزين للرحيل على أكمل وجه، لم أكن أعرف ان السجناء على رحيل دائماً، وكأن السيارات تنتظرهم خارج السجن. فهم كل يوم وطوال سنين السجن بانتظار ملاك الفرج على أحر من القهر ومطر الجمر من

سقف (الجينكو) الذي يقطر فوق الرؤوس زعاف سم الأمل. ينتظرون إطلالة هذا الملاك الذي تواكبه ضجة مفاتحيه العملاقة. ومن شدة وقوة ضجيج هذه المفاتيح ترتجف أبواب السجن وتنصعق من رعبها مفتوحة على مصراعيها. لكن هذا الملاك باجنحته ذات البرق الخاطف الآخاذ يتأخر دوماً بلا مبررات ولا أعذار، في حين يواصل السجناء انتظاره بصبر عنيد على الرغم من ان راية اليأس ترفرف خفاقة فوق الرؤوس.

السجناء لا يملون ولا يكلون ودائماً هم على رحيل، يستيقظون صباحاً بهمة وسباق وهم يستعجلون أنفسهم على الرحيل، في حين ان أقل واحد فيهم محكوم بمؤبد واحد مع كثير منهم يرفلون بثلاثة أو أربعة أحكام مؤبدة. لقد ابتلعهم الحوت وأغلق عليهم أبوابه وهم يعيشون على أمل واحد أحد وحيد: ان يتقيأهم للخارج حتى ولو كانوا شيوخا عجزة هرمين.

رحب بي أحد السجناء في الخيمة الثانية قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً، هاي المحطة الأخيرة، اصفط ويا اخوتك بسفينة العراق.

ابتسمت ببلاهة ورعونة من لا يعرف شيئاً ويحاول بنفس الوقت التظاهر بأنه يعرف كل شيء. وجدت كلامه فعلاً غامضا وهو يصف سجن أبي غريب بالسفينة بينما هو ثابت وراكد بالاحكام المؤبدة وهل ان سجن أبو غريب يمثل سفينة العراق ولكن إلى أين مبحر؟

ناوشني هذا السجين المرحب ابو السفينة: سطل بلاستيك كبيراً فارغا مع ليفة بداخلها صابونة وقال: روح اسبح وبدل ملابسك إذا عندك غيرها.

حل الليل مبكراً وجرت عملية قياس مساحة أرض الخيمة الثانية بالأشبار فكانت حصتي شبرين ونصف هي مكاني للنوم. كم حسدت

أصحاب الاسرة المزدوجة بطابقين علوي وسفلي. التي تشكل جدران الخيمة مفتوحة من الامام على ممر صغير للجملون. حسدتهم على الخصوصية الفردية في السرير ولم يخطر ببالي عدد السنين التي قضوها وهم يحلمون بجنة السرير؟

وقف شخص في باب الجملون وصاح علينا نحن الجدد: ان مراقب الجملون يستدعينا. هذا المراقب اسمه (وليد)، تساءلت مع نفسي: لماذا يرفل وحده بغرفة خاصة به، آثاثها يبدو عليه الترف قياساً بخيم الجملون، حسبته أحد رجال الأمن وليس سجيناً؟. قابلنا بوجه شاحب أصفر يقطر سماً، وكلامه تهديد ووعيد مبطناً تحت قشرة مزاح آسن يشبه (خرا العكَروكَ) تلك الطبقة الخضراء من خراء الضفادع فوق الوحل والبرك. مازحنا بقصصه عن (كوجه مروي) ومخيم (كرج) وغباء وبخل الإيرانيين. يتكلم بلسان من عاش حياة اللاجئين بتفاصيلها اللعينة وختم مقابلته بأن ننقل إليه كل أخبار ودسائس السجناء وماذا يخططون وينوون فعله، وإذا تعرض أحدنا للإهانة أو ضايقنا واحد منهم فعلينا مباشرة تبليغه واخباره. الخبيث يريد ان يصنع منا وكلاء أمن ومخبرين يسمونهم في سجن الخاصة (منافقين)، طبعاً أكثرنا لم يفطن إلى اللعبة الماكرة. بعدها اكتشفنا انه سجين مثلنا ومحكوم بالمؤبد، وانه فعلاً كان في إيران. كما اكتشفت شخصاً آخر في خيمتنا اسمه (عبدالرحيم) ينام على سرير طابق سفلي، وكان في إيران ايضاً، فقد عرفته من خلال سؤاله الاستفزازي عن حال (كوجه مروي) وشارع ناصر خسرو وفي أي حزب كنت ولماذا رجعت للعراق. أجبته عن جميع اسئلته الملتوية بعبقرية البلاهة والرعونة التي ادخرها لاوقات الشدة. أجبته بابتسامة حصان يكشر عن اسنانه من براطمه المتهدلة. نطقت بكلمات مفككة وهشة تتكسر قبل ان تصل إلى أذنه، فأخذ عني انطباع الغباء والحماقة وأني مجرد (طرن). سرعان ما وصلتني

غمزات وإشارات تلقفتها من خلال حوارات ونظرات بعيدة عنا، كانت تجري بين بعض السجناء، فخمنت بأن (عبدالرحيم وكيل أمن يعني منافق حسب اصطلاح السجناء). تملصت من أسلاك اسئلته الشائكة بدون خسائر ونهضت لأرى (سعد استقلال) أين قاده حظه وفي أي (خيمة) داخل الجملون الثاني، وهل استدعاهم المراقب كما فعلوا معنا، لكن السجين (ابو السفينة) اعترضني موضحاً بأن عرض الانباء على وشك البدء في التلفزيون وحذرني من الكلام والنوم أثناء فترة عرض الانباء حتى لو استمر إلى الفجر، ومن يخالف هذا التقليد يعاقب أشد العقاب من رجال الامن.

انتهى على خير عرض الأنباء الذي دام ساعة ونصفا وإذا بـ (سعد استقلال) ومعه شخص قصير مع شيء من السمنة، لم اتذكره في البدء لأن وجهه مهدم وتساقط شعره عن جبهته. آيباخ... انه صديقي (عبدالحسين فرج) من أهالي الثورة، تذكرت ضحكته التي تشبه صهيل الخيول. اختفى سنة الـ (٧٩) وضاع ذكره ومصيره مع الكثير من الاصدقاء الذين تواروا في تلك السنين وكأن أرض بغداد انشقت وبلعتهم فظلت مصائرهم مجهولة ومنتفخة كورم غامض في جسد العراق. احتضنني بالقبلات وشعرت أنه ملاذ ومنقذ وبطاقة تزكية من تهمة (الخوارج) التي ألصقها السجناء بنا، والتي راحت تخف وتتلطف مع مرور الايام حتى ثبت علينا اسم (الميه وثلاثه) على عددنا المئة وثلاثة. حذرني عبدالحسين فرج من (عبدالرحيم) ومن اثنين آخرين في خيمتنا بوصفهم وكلاء أمن (منافقين).

رجعت إلى فراشي الوثير ذي الشبرين ونصف، تمددت وغفوت لكن قطرات ماء أجفلتني وفززت. مطرت الدنيا، هذه السنة مبكرة بالخريف والمطر. كان سقف الجملون (الجينكو) مثقوباً، وصادف وجود الثقوب فوق رأسي وقدمي مما جعلني انام جالساً حتى الصباح. عرفت في ما بعد، ان السقف لم يخر عليّ فقط بل هناك آخرون ناموا بوضعية الجلوس

مثلي. إذا استمرت تمطر معناه أنني لن أنام، إذ من المستحيل النوم خلال النهار على الأرض لأنها مشغولة بإعداد الطعام والصلاة وأعمال السجناء اليدوية. أصحاب الاسرة فقط لهم حق النوم خلال النهار. ماذا أفعل لكي انام، ومن يصدق، من يعقلها ويتخيل ان سجيناً محكوماً بالمؤبد لا مكان له للنوم؟

وأنا بهذه الحال أفكر في كيفية النوم جالساً فوق طية فراشي وإذا بشخص دخل خيمتنا وصاح: (ثامر). ثم احتضنني وقبلني وهو يقول: أنا (سيد حسن) صديق أخوك فاخر... حدثني عنك كثيراً وكأني أعرفك منذ زمن طويل. اخذني إلى خيمتهم في الجملون وحكيت له كيف لم أنم وعن (عبدالرحيم) الذي يضايقني باسئلته وتخرصاته، وقلت:

ـ تصور اليوم منذ الصباح حييته (صباح الخير) فلم يرد علي. لا يعقل أنه زعلان علي وأنا لم أفعل ما يزعجه أو يضايقه. التفت أليه أعاتبه على سبب عدم الرد على سلامي وإذا به معوج الوجه: النذل خيط فمه لسبب تافه وضيع كما عرفت في ما بعد، خيط فمه لأن رجال الأمن احتفوا بوكيل جديد لهم من جماعتنا المئة وثلاثة اسمه (شهاب)، اعطعوه سريرا أرضيا وحظوة كبيرة ما جعل (عبد الرحيم) يغتاظ وكأنهم طعنوه من الخلف برغم شدة تفانيه واخلاصه لهم حد التضحية بصداقة جميع أخوته السجناء. فانتفض وخيط فمه.

في الليل وقبل موعد عرض الانباء حيث عقوبة السماع الإجباري، دخل (سيد حسن) خيمتنا وقال لي: هيا. حمل فراشي على ظهره وأنا مندهش أهرول وراءه حتى وصلنا إلى خيمته التي يسمونها خيمة (كاصد) من أهالي العمارة، الذي يحظى بهيبة واحترام السجناء.

(سيد حسن) كان يعيل عائلته من داخل السجن باعمال الحدادة وصنع

سيوف ذو الفقار من النحاس لبيعها، وقد ملأ العراق بالسيوف والمصاحف النحاسية.

أشار (سيد حسن) الحداد إلى شخص يضع على رأسه طاقية بيضاء مقابل خيمتي الجديدة وضحك. كان ذاك الشخص يعد خيوطه البيض التي يحيك بها كالة (كَيوه). وقال: هذا المسكين حكم عليه بالسجن المؤبد بسبب نكتة. أجبته: هل هي عن صدام. قال: لا عن الحرب. قلت: وما هي قصة هذه النكتة؟ قال:

ـ في ليلة الزفاف دخل العريس وهو معوق حرب على عروسه. نزع ملابسه أولاً، وإذا به يخلع رجله اليسرى، بعدها خلع يده اليمنى، ثم ضغط على عينه اليمنى وأخرجها، بعدها نزع فكيه من حلقه. وحين رأت العروس كل عمليات الخلع هربت من الغرفة فأمسك بها العريس المعوق بيده اليسرى وهو يسألها:

ـ إلى اين ذاهبة؟ فاجابته:

ـ نسيت (كسي) بالبيت راح أجيبه وأرجع.

(٦)

في البدء أعلن السجناء علينا حرب العيون، وكنت أظن بأن هذه الحرب السرية قد شنها السجناء على وحدي ولكن تبين في ما بعد أن جماعتي (الميه وتلاثه) كلهم معي في جبهات قتال العيون. ما إن تلتقي عيوني بعيون أحد السجناء حتى يخنزر علي بنظرات رصاص خارق حارق، يطلق علي صلية نظرات تثقب جسدي من رأسي إلى قدمي. يسبني ويشتمني بعينيه ثم يمطرني ببصاق نظرات حاقدة تملأ وجهي بالتفال فاضطر إلى مسح وجهي من النظرات وأتحاشاها، رامياً عيوني بعيداً عن عيونه، إما أن أتطلع إلى السماء أو أدير وجهي إلى أي وجهة أخرى، لكن نظراتي تصطدم بعيني سجين آخر فتنقلب فجأة ضدي، إذ يتفرس بوجهي بشكل جارح وهو يخز سلاح عينيه المدببة الباشطة في بشرة وجهي، يفترسني بنظرات خبيثة متورمة فألقي بعيوني هاربا إلى الاعلى صوب السماء، فقد كانت السماء هي وحدها الملاذ الآمن لعيوني.

كنت أشعر انني طريدة ذئاب العيون. نظرات تعوي وتنهش جسدي، أرى ذئاب عيونهم تجوس حول وجهي وتنقض على يدي ورجلي وصدري وظهري، عيون تحفر رأسي بأنياب ملطخة بالدم. فأين ألوذ وأهرب من قطيع ذئاب العيون المكشرة الراكضة نحوي؟

(سعد استقلال) يصف لي حالته مع حرب العيون ويتمنى العمى كي لا يرى جسده مقطعاً وذرة وذرة بخناجر وسكاكين عيون السجناء، يقول:

أهرب إلى زاوية بعيدة وأقتلع العيون النابتة في جسدي كشظايا زجاج وابدأ بتضميد ما خلفته من جروح. أسأل نفسي متهدجاً تتطافر الدموع من عيني: ماذا فعلت لهم، أنا لا أعرفهم وهم لا يعرفونني، أي ذنب عظيم ارتكبت بحقهم بل أي جريمة اقترفتها لأستحق كل هذا الطعن؟ فرجال الأمن والاستخبارات لديهم مبرر بتعذيبي: أنا هربت من حربهم ولجأت إلى عدوهم، ويأخذون رواتب كبيرة ثمنا لتعذيبي. لكن هؤلاء السجناء أخوتي هم ضحايا مثلي، لماذا يكرهونني ويحتقرونني بقسوة وضراوة وكأنني أنا سبب سجنهم، أنا من وراء موتهم البطيء هنا في السجن، كأنني نكثت بهم وخذلتهم، أنا الذي خانهم وجرهم واحداً بعد الآخر إلى المعتقلات، لماذا كل هذا السوء الغاشم من عدم الفهم؟ يجب أن أقتحمهم وأعرف السبب، لازم أفتش غرف عقولهم وأكتشف هذا البغض والحقد، لازم أفضح لهم كيف استقبلونا وعاملونا في إيران وأبدد هذا الوهم الضخم، وهم إيران الجنة يجب تعريته وكشف الجحيم، صحيح أنها ليست مثل جهنم العراق وصحيح أن الخميني ليس صدام، لكنهم الوجه الآخر من استبداد الشرق وجرم الدين السياسي. لازم لازم أفضحهم حتى لو ضحيت بنفسي.

حرب العيون ذكرتني بلعبة (المكاسر) حينما كنا صبيانا: أقف في طرف والصبي الآخر يقف مقابلي في طرف، وتبدأ لعبة الخزر والتحديق المتواصل. عينان بمواجهة عينين يشبه نزال الكابوي في الأفلام. ويستمر نزالنا وقتا طويلاً حتى تنكسر نظرات أحدنا ويخسر النزال ليفوز الآخر باللعبة، فمرة بدأ النزال ظهرا بيني وبين أحد ربعي الصبيان، طال واستمر إلى أن غابت الشمس وحل الظلام فانتهى النزال تلقائياً وذهب كل منا إلى بيتهم. انكسارات النظرات هو الذي جعل اسمها (المكاسر). ولكن هنا في السجن لا أستطيع منازلة عدد كبير كلهم يسمرون نظراتهم علي أينما

التفت، لذلك كنت انظر خطفا وبسرعة كي لا تلتصق نظراتي بنظرات أحدهم وتحتدم حرب العيون التي سوف أخسرها وأنهزم من ميدان القتال مدمى بضربات لا تعرف من أين تأتيك، كما حدث مع (كريم الصيني) في أثناء لعبة كرة القدم في الساحة الكبيرة حين ضربه أحد السجناء في ساقه وأعترض (كريم) على هذا اللعب الخشن الوحشي فانقض عليه السجناء من اللاعبين ومن الجمهور يضربونه من كل جانب ولولا تدخل بعض العقلاء لحدثت حرب أهلية غير متكافئة بين (المية وتلاثة) وبين آلاف السجناء.

أحياناً تصاحب حرب العيون كلمات جارحة ومهينة ومنها ملغزة يحشوها بعض السجناء بشظايا زجاج تجرح الأذن حال سماعها، مع كلمات تشق البطن مثل: كل المية وتلاتة (منافقين). يعني وكلاء للامن. وهكذا يطلقون تهما ملفقة على أحدنا وينشرونها بين بقية السجناء، فيجد هذا المسكين نفسه محتقراً مكروهاً من الجميع، يجد أنهم يدفعونه بالقوة إلى جهة وكلاء الأمن، وإذا سقط فعلاً وارتمى في أحضان رجال الأمن فسوف يهابونه ويتحاشونه لكنه يظل مهدداً ويكون ضحية هجوم جماعي كاسح بأول فرصة انفلات تحدث في السجن.

تعلمت بعض مصطلحات السجن مثل (عنقرجي) التي تعني عمال السجن كالمنظفين وعمال المطبخ والثلج، إذ دائماً أسمع من خلال مكبرات الصوت التي نسميها (سماعات) يذيعون اسماء عمال المطبخ وعمال الثلج. وتعلمت معنى (سفرداشي) وهو الذي يشترك معنا في إعداد الطعام والأكل وغسل المواعين، يعني أنا وسعد وكريم الصيني (سفرداشيه).

انطلق صوت هادر من السماعات يدعو برخو:

ـ النزيل برخو آدم يوخنا الحضور إلى السيطرة فوراً.

تكرر النداء ثلاث مرات آمرة بحضور برخو إلى (السيطرة) يعني ادارة السجن. ومثل نداءات حانقة كهذه ولاسيما في الليل لا تحمل سوى معنى واحداً فقط: ان وكلاء الأمن (المنافقين) سلخوه بتقرير عاجل. خرجت من باب الجملون الأول إلى الممر فرأيت مراقب الجملون الثاني مع برخو يمشيان سريعاً باتجاه (السيطرة)، وقبل قفل الابواب ذهبت إلى سعد وعرفت منه ان برخو أثناء عرض الانباء، حيث الصمت التام والسكوت الذي نسمع فيه صوت سقوط الإبرة على الأرض. هاج (برخو) واندلعت إحدى زوابعه الرعدية في الشتائم والسباب، التي يرشقها في الهواء وعلى الأبواب والحيطان ذات الدهان الاصفر المقيت، فأينما ولينا وجوهنا نجد ال (٧٩) ملطوشة على الجدران التي ظلت لغزاً تكاثفت حولها غيوم الأسرار. في عرض الانباء كان صدام هو الخبر الأول طبعاً وإذا بصوت (برخو) ينطلق هادرا وهو يشير إليه بيده اليمنى:

ـ دوخنا هذا الـ (اخ الكَحبة) هو والـ (٧٩)، زندان زندان وأمراض حتى ال (آزادي) صارت بطيز حمورابي.

لم تتوقف امطار هذياناته إلا بعد ما طرده أحد الجالسين قرب التلفزيون وسد حلقه بالقوة.

حبس السجناء أنفاسهم وابتلعوا غصات ضحكهم المكبوت وتوقعوا ان برخو (راح جلده للدباغ). ثم أطلقوا عليه فيما بعد لقب (لسان حال السجناء) لأنه الوحيد الذي يتجرأ ويشتم صدام. وبما ان ملف برخو معروف بجنونه وانفلات لسانه عند رجال الأمن إلا أنهم لم يتعبوا من كثرة استدعاءه وتعذيبه ورميه في المحجر ثلاثة أيام أو أربعة وأحياناً اسبوعاً كاملاً. ثم يخرج مذعوراً لا يتكلم ويظل منعزلاً يومين، بعدها يعود إلى زوابع شتائمه وأمطار هذياناته المدارية.

بعد خروج برخو من المحجر اعتزل ثلاثة أيام خانساً تتلجج عيناه التي تشبه عيني البوم، وشفتاه تتحرك بدون صوت. جلس بقربه (كريم الصيني) وأعطاه سيجارة سومر ومن خلفه تجمع بعض السجناء بدون أن يدري برخو. راح (كريم) يحاصره باسئلة مراوغة عن الـ (٧٩)، وبرخو يهرب بإطلاق العنان لهذيانه حتى انفجر صبره وحشرج بصوت جزع: هذا الـ (اخ كَحبة) صدام أجا بالـ (٧٩) والخميني هم أجا بالـ (٧٩).

ضج السجناء الخاتلون خلفه بالضحك المكتوم وهربوا متفرقين؛ كل واحد إلى جهة خوفاً من أن تنوشهم تقارير (المنافقين).

وانتشر خبر سر الـ (٧٩) بين السجناء برمشة عين حول رئاسة صدام (عام ٧٩) ولكنهم أخفوا النصف الآخر المتعلق بمجيء (الخميني) إلى السلطة سنة (٧٩). كان حضور برخو في أي مكان حين تواكبه أمطاره الهذيانية حضوراً يذيب وجوم السجناء ويخلق جواً من المرح العابث، فوراً تتكسر صخور الكآبة من الوجوه وتسطع ابتسامات من تحت ركام الظلام فتكون الدنيا بعجيجها وضجيجها ليس أكثر من ضرطة في سوق الصفافير. (برخو) يثقب ثغرات من اللامبالاة في جدار الواقع الأصم. استمر (برخو) كما هو مسرحاً متنقلاً بين قاعات الجملونات وجمهور المتفرجين يتزاحمون وراءه، فهو الفيلم الوحيد في السجن الذي لا يعرف أحد بدايته ولا متى وكيف سينتهي. برخو قليل الاكل ونحيف كثير الهذيان فهو لا يسكت حتى وهو نائم.

يبدو ان برخو صار مجنوناً كامل الدسم في سجن (ايفين) حيث التعذيب بخيط القطن اللامرئي، هناك أغلقوا عليه باب الزنزانة وقالوا له: حين تريد الاعتراف دق باب الزنزانة. تعذيب خيط القطن اللامرئي هو الاختناق يوماً بعد يوم من الاهمال واللامبالاة الشنيعة، حيث لا يعرف كم

يوما وكم سنة مضت عليه وكم سيبقى بعدها، وهل هو حي أم ميت، هل هو داخل قبو أم في سجن؟ هكذا ينحدر نفسياً في وحل الالتباس، يعيش مرتبكاً مبلبل العقل لا يدرك هل هو موجود فعلاً أم أنه محض وهم أو ربما هو ميت يحلم لا أكثر ولا أقل؟

استفحلت الاسئلة على (برخو) وتحولت إلى وحوش كاسرة تنهش دماغه وتهتك قلبه وروحه فلم يصمد عقل برخو واستسلم أخيراً للجنون. لأن أتفه الاسئلة وأصغرها يكبر ويتعملق يومياً إلى أن حاصرته الاسئلة وانقضت مثل ذئاب على دماغه. كل سؤال يتحول إلى عنكبوت سام يعشش فوق خلية في دماغه حتى يمتص طاقتها وتنطفىء، وهكذا انطفأت كل المصابيح في عقل برخو وعاش في ظلمة جنون لا يرحم بسبب تعذيب خيط القطن اللامرئي. تكالبت عليه (٧٩) العراق و(٧٩) إيران وكأنهم ادخلوا رأسه في كيس قنب (گونيه) تتناهش بداخله (٧٩) هر وقطة.

(٧)

صباح يوم السبت امتلأت الساحة الكبيرة بالخيم. السجناء يموجون في مهرجان على وشك البدء: انه عيد المواجهة واللقاء بالأهل والأحبة وتبادل آخر الأخبار، انه عيد الأحزان حيث الفرح ببقائهم على قيد الحياة والحزن بالبقاء هنا في السجن خارج الحياة. دائماً السجين يخفي عذاباته ومرارة الاحتضار اليومي عن أهله. والأهل هم أيضاً يخفون عن ابنهم الشقاء والذل والمداهمات المتكررة لبيتهم، يخفون مشقة الوصول لزيارته وكيف يبتلعون سموم الإهانات أثناء سيطرات التفتيش وكيف تتعرض النساء لبذيء الكلام. حيث دائماً يتعرضون للضرب والتجريح قبل لقاء السجناء لأنهم عوائل الخونة والعملاء والمعارضين للحزب والثورة والقائد. ومرات كثيرة يرجعون إلى بيوتهم خائبين بأحمالهم واثقالهم لأن رجال الأمن منعوهم من المواجهة، أو يدخلون بعد ذاك العناء الطويل فيجدون أبناءهم في المحجر، أو ممنوعين من المواجهة. رأيت كل ذلك المهرجان الدموي بعد آخر نقطة تفتيش في الممر المعتم الطويل جوف الحوت. يقف السجناء على جانبي الممر وتدخل العوائل تتصفح الوجوه. السجناء يتطلعون من بعيد إلى أثر لوجه أم أو أب أو أخ. مهرجان المواجهة يبدأ بدخول أول النزيف العائلي في الممر، تتعالى أصوات أطفال ونساء على هامتهم أكياس الطعام والرجال يسحلون أكياس بطانيات وملابس وطعام وأدوات طبخ وأواني. انه مهرجان شبع العيون والبطون.

خيام بكل الاحجام والالوان معظمها مرقعة باكياس تحمل ماركات وكتابات من الحنطة والرز محلية ومستوردة. وجميع السجناء في هذا اليوم يجبرون على ارتداء ملابس بلون جوزي أو بدلات (كانه) توزع على السجناء وهي قبيحة ومقززة لايلبسها سوى الفقراء جداً وبعض المجانين. أحد السجناء يتهكم ساخراً من شدة عوزه وفقره قائلاً: حتى اطفالي ألبستهم (كانه) لكنهم لا يقبلونها في المدرسة ويطردوهم قائلين: هذي ملابس أهل المريخ.

اندلعت مناداة تتفجر هنا وهناك مثل حقل ألغام دخلناه رغم أنوفنا نحن المئة وثلاثة، فكلما ترى عائلة ابنها تتصارخ الأم وبناتها وينخرط الرجال في نحيب مسموع لم يقدروا على كتمانه. سمعت امرأة عجوزا أعياها تصفح الوجوه من دون العثور على ابنها وقد طفرت دمعتان من عينيها وهي تقول: خايب يمه وينك؟

(كريم الصيني) يقف قربي حينما حدقت المرأة العجوز بوجهه وعبرته وقد سمع شكواها وهي تبحث عن ابنها، لقد رأته ولم تعرفه، فصاح كريم: لك هاي امي، يمه. احتضنته وذابت من الصدمة. بعدها مباشرة رأيت أمي فوقفت أمامها و(سيد حسن) الحداد معها يقول لها: هذا ثامر.

تراجعت للوراء وهي تهز برأسها وكفها اليمنى: لا.. لا، هذا مو ابني، هذا مو ثامر. وسقطت على الأرض مغشياً عليها. اندفعت إليها ولم أدع رأسها يرتطم بالأرض، تكوم فوقنا اخي الكبير (عامر) واختي (هدية) و(حنان)، وشب نواح كاد يحرق الخيم لولا أحد السجناء الذي رش الماء على وجه أمي.

جلسنا في خيمة (سيد حسن) الحداد وتدفقت عليّ أسئلة من الوزن الثقيل، صخور اسئلة تكومت فوقي وطمتني حتى رأسي. كل سؤال يحتاج

إلى شهرين أو ثلاثة من الكلام المتواصل لكي يكون الجواب صحيحاً وها أنا أختصره بجملة واحدة، جملة لا تجيب بل تطعن السؤال وتقتله في مكانه. لكنني أوحيت لأهلي عن مدى حاجتي إلى ليالي شتاء طويلة، نتحلق فيها حول منقلة الجمر، يغلي فوقها (قوري) الشاي لكي أحكي و(اسولف) لهم عما جرى لي وللعراقيين في إيران. لكن سؤالا واحدا خرق قلبي. أربكني وتلعثمت وكأنني غصصت بعقرب سوداء مندسة في لقمة بين فكين بلا أسنان. سؤال أرعبتني فيه أمي حين قالت:

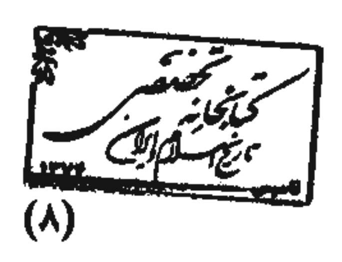
ـ اخوك فاخر ليش ما رجع وياك؟

أنا لا أدري أصلاً ان (فاخر) هرب إلى إيران من بعدي فكيف أجيب عن هذا السؤال الساحق عديم الرحمة. (فاخر) أخي كان معي في إيران كل هذا الوقت ولا أدري ولم يكن يخطر في بالي. هل سأل عني كثيراً وبحث في كل مكان من زوايا طهران، وهل يئس من العثور عليّ ولكن أين ذهب؟

أجبت أمي عن سؤالها العويص بجملة واحدة كافرة وقلت بأني لم ألتق به ولا صادفته لأن إيران كبيرة. ولأول مرة عادت قضية الدود من جديد واحتلت واجهة عقلي بعد كل هذه الفترة. وتراءى لي (روضان) بين طبقات البخار في الحمام وهو يضحك على الشيخ الأعمى الذي باع الجامع. تذكرت (داود) متخيلاً كيف تربع على عرش الجريمة العالمية لا يبزه في عبقريته الا بعض الدكتاتوريين العتاة.

أغرب شيء كشفته في المواجهة ان معظم السجناء يمارسون الجنس مع زوجاتهم داخل الخيام مستخدمين (فلاش لنر) ويتناوبون في حراسة باب الخيمة لئلا يدخل فيها أحد سهواً أو تائها أو من رجال الأمن. حكى لي (عبدالحسين فرج) تفاصيل هذه المغامرة الجنسية وهو يصهل ضاحكا.

لكن الأغرب من هذا كله: هو مجيء فتيات يتبرعن بأنفسهن لأجل إمتاع السجين بممارسة الجنس. وبقي الأمر سرا يتداوله بعض السجناء في ما بينهم وكأن فتيات يهبطن من السماء أو حوريات يتسللن من الجنة إلى قسم الخاصة في سجن أبي غريب، يخترن من يضاجعهن وبعد كل مضاجعة تعود عذراء بكرا كما خلقها الله، لكي تكرر موعد المجيء في المواجهة القادمة مع شاب جديد. هكذا سرح بي الخيال إلى حوريات الاساطير وحكايات ألف ليلة وليلة.



(٨)

بدأ الذوبان البطيء لفص الملح، فص (المئة وثلاثة) يذوب بعذاب في القزان، قدر السجناء الكبير الذي يغلي ويفور. ذاب أكثرنا مع الاكثرية الشيعية وانغمسوا في الصلاة، ماعوا داخل موقف وآراء هؤلاء حتى كأنهم لم يذهبوا إلى إيران ولا مزقتهم مخيمات اللجوء التي كانت مثل مصانع لإنتاج الملحدين والزنادقة. وذاب البعض مع الشيوعيين على الرغم من كونهم غير شيوعيين وليس لديهم رغبة أو ميول للانتماء إلى الحزب الشيوعي لأن الشيوعيين أنفسهم الآن داخل السجن بلا حزب، إنما أرادوا التقرب للشيوعيين هرباً مع الجو الخانق والجدية الصارمة للتدين في محاربة الحياة والتآخي والعيش مع الموت. وذاب بعض السنة مع السجناء السنة الراكضين طوال اليوم من صلاة إلى صلاة. والكردي منا انخرط مع ما تبقى من الاكراد بعدما خرج الالاف منهم بعفو خاص. والمسيحي منا اندمج مع المسيحيين والأيزيدي مع الأيزيديين والتركماني مع التركمان. ذاب الجميع في جغرافيا العراق القومية والدينية والطائفية داخل السجن.

لم يبق منا سوى ثلاثة خارج الخارطة الاثنية والدينية والطائفية، بقيت أنا وسعد استقلال وبرخو لأننا لم نفكر قبلا بمعنى الانتماء، كنا بلا ولاءات ولا تحزب. كنت أجلس مع المسيحي وآكل معه وأجلس مع الأيزيدي وأشرب الشاي معه، فينفرد بي أصدقائي من الشيعة والسنة يقولون لي: تقيأ.. تقيأ الشاي لأنه نجس. وأنا أغيظهم وأحاججهم

بمقولة الامام علي الشهيرة: ان لم يكن أخاك في الدين فنظيرك في الخلق، وقلت لهم ساخراً: أتقيأ عقلي أولاً وبعدها أتقيأ الشاي. ويستعر الجدل وترتفع درجات حمى النقاش بدون الوصول إلى نتيجة. لدي عادة سيئة لم أستطع التخلص منها، وهي عادة خطيرة أدخلتني في مشاكل وعدوات أنا في غنى عنها. تتلبسني هذه العادة فور احتدام نقاش حول المعتقدات ولا أعرف حتى الان: هل هي عادة أم طبع مشاكس.

فقد كنت ضد كل عقائدي متيقن مطمئن كأنه عثر على كنز الحقيقة وارتاح من شقاء التفكير وعذاب القلق. أدخل في نقاش حام وأخترع براهين وأدلة مع الشخص المؤمن بالله واليوم الآخر، وبنفس قوة الاقناع وصلابة الاصرار أدخل في نقاش ضار مع الملحد. في إحدى حلبات وصولات النقاش حاصرني (ابو فهد) أحد اصدقائي الشيوعيين حين قال: وصل العلم اليوم من خلال هندسة الجينات إلى تغيير جنس الجنين وحسب الطلب، هل تريد بنت أم ولد، وهذا التطور قد نسف قول القرآن بأن الله يعلم ما في بطن الحامل من ذكر أو انثى. أنا الذي أحدد ما أريد ويبقى الله خارج طلبي ورغبتي.

فقلت له وبدون تفكير عميق، إذ أفحمته وسط دهشة السامعين من حولنا: صحيح، لكن الله يتدخل في جر طلبك ورغبتك إلى ما قدره ويريده هو، الله يفرض عليك اختيارك ويجبرك وكأنك في كامل حريتك فالذي تريده هو يريده.

وذات مرة تفاقم النقاش مع صديق صديقي (عبدالحسين فرج) واسمه (عقيل) وهو متدين شيعي لديه وعي جميل وغير متطرف، إذ قلت له ان كل الاديان أرضية موضوعة والله بريء من أي دين. الله ليس مسلماً ولا مسيحياً ولا يهودياً، والدليل هذا القرآن فهو ليس كلام الله، لأن الله بلا

لغة وليس عربياً وإلا كيف يخلق الحمار ثم يقول ان انكر الأصوات لصوت الحمير. فهل ينتقد الله نفسه ويعيب على ما خلق؟

وشمر عقيل عن عقله واحتد وهو يقول: ان الله خلق جميع الكائنات ناقصة وفيها عيوب ما عدا الرسول والأئمة المعصومين والانبياء وقضية صوت الحمار وغيره الكثير دليل ساطع على ان القرآن كتاب الله. صحيح ان الله ليس مسلماً ولا عربياً وبلا لغة لكنه انزل القرآن على قوم يخاطبهم بلغتهم.

قلت له مناكداً: يعني ان القرآن كتاب مترجم من الله الذي بلا لغة إلى اللغة العربية والمترجم هو محمد، هل هذا ما تريد قوله، أما أنا فأقول: ان كل الموجودات والكائنات التي خلقها الله في هذا الكون هي لغته، يعني البحار والانهار والجبال والبشر والحيوانات والحشرات هي لغة الله، فكيف تتم ترجمة كل هذا الخلق إلى لغة تعجز عن فهم لغة شجرة واحدة، هل يستطيع القرآن ترجمة لغة الأشجار أو الغيوم؟ تدخل أحد الشيوخ وكان صامتاً كل فترة النقاش وقال: ـ النبي سليمان كان يعرف لغة المخلوقات لذلك سمع حوار النمل واكتشف ماذا يخططون. وهذه بديهية وأن سليمان مجرد نبي فكيف بالله الخالق العظيم الذي وهب كل شيء لغته بل يعرف مافي العقول والصدور ودواخل النفس من أسرار وغموض وهو العليم بكل ما يدور.

سألت هذا الشيخ المفكر: لنفترض أن كل هذا صحيح، ولكن لماذا خلق الله ابليس ولماذا تركه بعدما عصاه وخالف أمره ولم يسجد لآدم؟ وهل وظيفة إبليس هي غربلة البشر ومعرفة من يستحق الجنة ومن يستحق الجحيم، وإذا كانت فعلاً هذه وظيفته فهو مهم وضروري مثل أهمية وضرورة الأنبياء والرسل، وإذا كان هكذا لماذا نلعنه ونشتمه ليلاً ونهاراً؟

رأينا (منافقاً) من وكلاء الأمن يقترب منا وهو يحاول التنصت على ما يدور بيننا من حديث، فغيرنا موضوع نقاشنا لئلا يفهمه خطأ ويتناوشنا بكتابة تقرير يسلخ جلودنا ونتعفن في المحجر.

استفحلت عادة النقاش بعد احتلال صدام للكويت وكيف استبشر السجناء بالفرج بعدما حشدت دول العالم جيوشها لطرد القوات الغازية. فقد كنت ضد هذا الفرح وأقول: هل يستحق رأس صدام تدمير العراق. هل أخرج من السجن لأجد كل ما أحلم برؤيته خرابا؟

حذرني الاصدقاء القريبون مني وهددوني بقطع علاقتهم معي إذا لم أكف عن هذه النقاشات الخطرة، وأمتنع عن التهور في الجدل وكأنني في أحد مقاهي باريس. لخصوا تحذيراتهم بجمل تفوح منها خبرة السجن الطويل: النقاش عندنا هنا معركة.. نزال بين عدوين وليس اختلافا بالرأي بين صديقين. الذي تخالفه بوجهة نظرك، عندنا هنا يعني انك بصقت بوجهه وصفعته وهو يرد عليك بالمثل، ولولا الخوف من رجال الأمن الذين هم ايضاً يستشيطون غيظاً من هذه النقاشات ولا يعرفون سوى أنت مع الحزب والثورة أو ضدهم. لا توجد هنا منطقة حيادية بين الضد والمع. الجميع هنا في السجن وخارج السجن، في العراق ودول المنطقة، كلهم مساجين العقيدة، لولا الخوف من رجال الأمن لكنت أول ضحايا النقاش. يا أخي إلبس قناع واخفي وراءه عقلك ورأيك. حياتك مرهونة بلسانك والأسلم ان تكون مجنوناً صامتاً أو مجنوناً دجالاً يخدع الجميع من خلال غريزة البقاء. يا أخي كن مجنوناً مثل برخو.

فعلا أدركت كم انني أرعن وكم ركبني عفريت شطط يمشي بي إلى حتفي، لذلك يجب علي أن أقلع عن هذه العادة السيئة والخطيرة (عادة النقاش). يجب أن اتدارك ما خلفته لي من عداوات سافرة ومبطنة فلا

نقاش بعد اليوم إلا مع أصدقاء يعرفونني كما يعرفون أنفسهم ولا يسيئون الظن والفهم، لا نقاش بعد اليوم، كل سوء الفهم مصدره الكلام.

كما أسر إليّ اصدقائي هؤلاء بأن معظم السجناء الذين يعرفونني ظلوا حائرين في تصنيفي ووضعي في إحدى الخانات السياسية والعقائدية المعروفة لديهم: فأنا لست مع الشيعة ولا السنة، ولست مع الشيوعين ولا مع الاحزاب كلها، وضد إيران والبعث وصدام. كنت خارج خانة العملاء والجواسيس وبعيداً عن خانة الايمان وخانة الالحاد، لذلك داخ السجناء بي ولم يجدوا خانة لي كي يرتاحوا وينفضوا أيديهم مني.

وهكذا اتجهت إلى العزلة المفتوحة، أنفرد وحدي داخل جدران عقلي ولا أسمح لطاقم تفكيري بالتسلل خارج سفينة عقلي. أبحر مسافراً وحدي في عزلة غير مرضية ولا معقدة، أحرص كل الحرص على انفتاحي للمودة والحب مع السجناء، وعدم التحرش بما يعتقدون حتى أصل إلى تفكيك عداوتهم لي وتغير انطباعاتهم عني. ولكن ما الخطة العملية لهذه العزلة المفتوحة؟

وجدت الحل بعد يومين من التفكير حين ايقنت أن حرب السجناء في ما بينهم هي حرب قديمة لم تنقرض حتى الآن. مع ان السجناء جميعهم يرزحون في سجن واحد، وفوق سجنهم هذا فكل فئة منهم مسجونة بعقيدة أو فكرة تدافع عنها حتى آخر قطرة دم. وهذه الصفة هي سبب اندلاع الحروب جميعها منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا. كل فئة مسجونة بالحق الذي لديها وهي مستعدة للموت في الدفاع عن هذا السجن. أما أنا وامثالي الذين اكتشفنا لعبة العقائد وسجونها البشعة فقد حررنا الدين الفكرة والعقيدة من سجونها، لذلك تحررنا على الرغم من اننا داخل هذا السجن الكبير، ولهذا فأنا وأمثالي: النشاز اللامعقول الذي

لا تستطيع أي خانة أن تستوعبه أو تحتويه، نشاز يعيش الحرية داخل السجن.

وجدت الحل في القراءة والكتابة ولكن أي عزلة هي مهزلة مع آلاف السجناء وبلا فواصل أو جدران بين خيمة وخيمة، الفضاء مكشوف وعار من باب الجملون إلى الحمامات والمراحيض. لذلك هي عزلة مفتوحة ومشاعية يخترقها الجميع حتى بدون ان يعرفوا انك في عزلة.

خلال شهر قرأت كل كتب مكتبة السجن، طبعاً ليس فيها الا كتب قليلة تستحق القراءة والباقي زبل، أشم دخان حرائقها فأختنق واستعجل إلى سد أنفي وعيوني، كتب كأنها جثث تحترق مثل فطيسة رواية (الايام الطويلة) وأخواتها التي تتصاعد منها أبخرة لحم يسيل وصديد يذوب ببطء لا يطاق.

بعدها تعلمت من خلال السجناء تقنية إخفاء الكتب في قدور التمن والمرق أثناء المواجهات. كتب نقرؤها بلذة شرهة لأنها عبرت واجتازت كل نقاط التفتيش، تحمل عطر الحرام المشتهى والممنوع المسكر بنشوة تذوقه. ألذ أنواع الكتب هي المحرمة والممنوعة نتبادلها ونتداولها بطرق تشبه توزيع المنشورات السرية والمجلات الخلاعية. وأخيراً توصلت إلى متعة الكتابة تحت البطانية والشرشف التي تشبه ممارسة العادة السرية، هي كتابة العميان التي لا يتحرك فيها سوى أصابع يدي المربوطة بسلك خفي لا مرئي، مربوطة مع مولدة العقل التي يضخ لها القلب وقود الحياة.

بدأت الكتابة من طهران ولا أعرف إلى أين يقودني عكاز كتابة العميان، وأسخر ضاحكاً متهكماً من عيوني القوية الـ (ستة على ستة) وأنا أسأل: هل السجن مفتاح الفرج؟

أخذ وقتي يضيق يوماً بعد يوم وأنا أدخل في طقس الكتابة. يضحك

عليّ اصدقائي عندما يدعونني لرؤية لعبة كرة القدم أو المشي المارثوني في الساحة الكبيرة، يضحكون حين أجيبهم: (والله ما اكَدر، ما عندي وقت). حيث لا يتصورون سجيناً محكوماً بالسجن المؤبد لا وقت لديه. يتصورونها دعابة فيها لغز أو بين طياتها حذر وتجنب وابتعاد عن الجميع، فكان لسان حالهم يقول: حذرناك من النقاش والابتعاد عن المهاترات الجدلية ولكن ليس إلى درجة الابتعاد عنا أيضاً.

لم يمر يوم على سجن الخاصة في أبي غريب من دون أحداث كبيرة وصغيرة مع ادارة السجن ورجال الأمن أو بين السجناء انفسهم، ولكننا بعيدون عن المشاجرات والعراك لذلك يندهش سجناء الثقيلة والخفيفة منا حين يرون وجود السكاكين والملاعق وأدوات الطبخ. مشاكل سجناء الخاصة من نوع آخر يصعب على سجناء الثقيلة والخفيفة تخيلها.

وبرغم كل هذه الاحداث والانشغال بالقراءة والكتابة كان قلبي ينغزني في اليوم مرات كثيرة. ينغزني كلما يمر طيف واسم أخي (فاخر). حيرني غموض اختفائه كل هذه الفترة بدون ان نلتقي ولم أسمع أحد اللاجئين في إيران يذكر اسمه في مخيم كرج، خاصة بعد انتهاء الحرب وموجة الرجوع إلى العراق. أين ذهب إذا كان في إيران، هل سافر إلى إحدى الدول الاوروبية، هل عبر الحدود إلى افغانستان أو تركيا أو باكستان أم اختبأ في إحدى البواخر في ميناء (بندر عباس) وضاع بين البحار والمحيطات، ولكن لماذا ينغزني قلبي من غموض مصيره؟

السجن والعراق وأهلي كلهم في كفة وأخي (فاخر) وحده في كفة. يذكرني بـ (روضان) وقضية الدود وشخصية (داود) ذات اللغز العملاق. صرت أحب الشقاء وعذاب السجن لأنه يبعدني عن التفكير به وبروضان والدود لأنني أظل منشغلاً بنفسي، هل يتشكل من معدن عذابي في السجن درعاً نفسيا ضد التفكير باخي (فاخر) فانسى وجوده ومصيره؟

كنت أتحايل على نفسي، محاولاً طمس اسم (فاخر) الذي وجدوه مقطعاً في كيس زبالة أسود في باكستان كما أخبرني (روضان) من خلال رسالة ابن اخته (جمال). أحاول طمس اسم المقتول هذا في قعر ذاكرتي وعدم ربطه باختفاء أخي فاخر، فهل يمتنع عقلي المسكين عن ربط الاسمين في شخص واحد؟

(٩)

لم تخطر على بالي مطلقا فكرة الهروب من السجن لسبب بسيط قاتل؛ أهلي سيحلون مكاني في إحدى زنازين الاعتقال يمارسون معهم تعذيب تحقيق واستجواب لا نهاية له حتى يعثروا علي. وكذلك الحال مع بقية السجناء فهم متفقون على استبعاد الأهل من خطر الاعتقال، مثل اتفاقهم على مصدرخلق حشرة الـ (تخت كالوس). فالجميع يرى أن هذه الحشرات ليست من مخلوقات الله بل هي صناعة بعثية تم تحويرها بمزج حشرتين في مختبرات حزب البعث المخفية تحت الأرض، أطلقوها في سجونهم ومعتقلاتهم لكن نصيب سجن الاحكام الخاصة هو الأعظم من التخت كالوس. هي فعلاً حشرة بعثية بكل معنى الكلمة إذ تتسلل إلى الجسد بدون ضجة أو دبيب وتختار أرق مناطق الجسد المكتنزة بالدم فتبدأ بالشرب، تمتص وتمتص حتى الثمالة والسكر فتكبر وتنتفخ من كمية الدم لا تشبع ولا تقنع، بل يأخذها الطمع ولذة السكر بالدم، وهكذا تنتفخ وتنتفخ حتى تنفجر ويتناثر رذاذ الدم. هذه هي (البعث كالوس) كما حور اسمها السجناء من (تخت) إلى بعث. وهي (بقة الفراش) حسب ترجمة الاسم من اللغة التركية أو الفارسية. يعني انها موجودة خارج العراق وليست هنا فقط. لم أفطن إلى شكلها إلا بعدما أروني واحدة منها. رأيتها تشبه حبة العدس لكنها تصير بلون الدم إذا شبعت من الامتصاص كلون بشرة صدام وعزة الدوري. إذن لم تخطر فكرة الهرب على بال أحد من

السجناء برغم اختلاف مستوياتهم. فسجناء الخاصة خليط عجيب متجانس من شتى أنواع العقول: علماء ذرة وحمالون، أساتذة وأطباء مع عربنجية وبقالون، كتاب وفنانون مع عمال مطاعم وفيتريه، فقهاء وعلماء دين كبار مع خبازين وسواق سيارات. الجميع ينسجم ويتساوى وراء قضبان معارضة صدام والبعث، بعضهم ناس بسطاء دخلوا السجن حين سبوا وشتموا صدام في نوبة شجار أو عربدة سكر. ومنهم من أطلق نكات ساخرة عن الحرب والقيادة الحكيمة لصدام وعن عائلته والحزب. ومن أفلت لسانه بنقد صريح لسياسة وجرائم السلطة البعثية. لكن أكثر السجناء هم من ضحايا التقارير التي يكتبها الرفاق الحزبيون ووكلاء الأمن وبعض التقارير كتبها أشخاص مذعورون (زاربين على انفسهم من الخوف)، أشخاص مرعوبون من بطش السلطة إذ يسقطون في بئر الوساوس والهواجس حال سماعهم كلمة نقد وسخرية موجه إلى القائد والحزب من قبل أصدقائهم أو زملائهم في الكليات أو العمل، يقع مثل هؤلاء الاشخاص فريسة مصيرين لا ثالث لهما: إما أن يسكت وهذا يعني أنه قد اشترك مع المجرم في نقده وسخريته والتستر عليه. أو يكتب تقريرا ينقذ فيه نفسه ويورط هذا المسكين صاحبه. تشتعل رؤوس هؤلاء الاشخاص بين خيارين: مجرما أو ضحية.

كنت اتناول الغداء عندما دوت مكبرات الصوت (السماعات) بصوت مرتجف ساخط: على الاسماء التالية حضورهم إلى السيطرة فوراً (رذاذ صلبوخ، ثامر حبيب علوان، بهنام سركيس حنا). تكرر الصوت المرعب ثانية وثالثة. وها نحن الثلاثة الآن واقفين في غرفة ضابط الأمن ملازم أول (عماد)، كنا مصطفين بالترتيب حسب تسلسل الاسماء. نهض ملازم أول عماد من كرسيه وصاح:

ـ منو رذاذ صلبوخ. أجاب الذي من جهتي اليسرى: نعم استاد آني.

وقف ملازم أول عماد امامه وراح يخاطبه مثل عصابات المافيا في الأفلام:

ـ ليش يابه تحجي وتسولف بعرض الأنباء.. يعني تكول اني سبع أخو أخيته.. تتحدى القوانين ها يعني تريد اتصير بطل ها كلب ابن الكلب......

ولطم (رذاذ صلبوخ) بصفعة مدوية، طفرت بها عينه وارتطمت بخزان حديدي، ثم راحت العين تتقافز فوق الكاشي وضاعت تحت المنضدة والكرسي. انصعق ملازم أول عماد وارتد يرجع إلى الوراء رعبا. وأنا أتابع مذهولا انقذاف العين وقفزاتها الوثابة فوق الكاشي مثل الدعبلة حتى سماع صوت ارتطامها بالخزان الحديدي. رأيت (رذاذ صلبوخ) ينحني ويبرك على ركبتيه يبحث في الأرض تحت المنضدة والكرسي عن عينه. زحف مستديرا على ركبتيه إلى زاوية الغرفة والتقط شيئاً من الأرض، دسه في جيب سرواله ونهض واقفا بوجه ذي حفرة سوداء يابسة هي مكان عينه اليسرى. مشى خطوات ووقف بنفس مكانه على جهتي اليسرى فسأله ضابط الأمن ملازم أول عماد: وين عينك؟

أجاب (رذاذ صلبوخ): بجيبي استاد.

ضحك ملازم أول عماد ضحكة ذعر في وجه أصفر بدأ يرجع تدريجا إلى وضعه الطبيعي وهو يقول: شنو عينك اصطناعية.. عين جام؟ أجابه (رذاذ): نعم استاد.

عاد ملازم أول عماد إلى كرسيه وغرق في ضحك هستيري وهو ينظر إلى وجه (رذاذ صلبوخ) إلى أن قال:

ـ ألبس عينك.. يله رجعها لمكانها وامشي ولي.. بعد لا تحجي بوقت عرض الانباء.

وكانت تهمتي قراءة كتب ممنوعة أخفوها أهلي في قدور المرق والتمن بأكياس نايلون أثناء الزيارات في المواجهة. لا أدري كيف اكتشف السفلة المنافقون وكلاء الأمن هذه التقنية الفذة في الإخفاء والتمويه. اما (بهنام سركيس حنا) فكانت تهمته النقاش حول قضية فلسطين ووصفها بأنه نقاش بيزنطي. طردنا ضابط الأمن وهو يضحك ويشتد ضحكه وراءنا كلما ابتعدنا عنه وهو يتخيل العين كيف تتقافز فوق الكاشي.

هكذا تعرفت على (رذاذ صلبوخ) صاحب النكتة المدوية التي سمعتها في طهران في (كوجه مروي) بعدما انتشرت بين العراقيين وحتى الإيرانيين كذلك. صار صديقا بعد حادثة العين لكنني استغربت من اسمه وحسبته دعابة أو لقبا مضحكا، لذلك استمتعت وهو يحكي لي قصة اسمه بضحك متواصل:

ـ مات أبو جدي (شناوه)حين كانت جدتي حاملا بأبي، تاركا لأولاده التسعة ميراثا يتكون من أرض زراعية وخمسة بيوت طين وقطيع غنم وسبع بقرات وكيس قماش أبيض مدفون قرب نخلة البيت الكبير مباشرة تحت (حب) الماء. كانت وصيته ان لا يخرجوا الكيس إلا بعد موته. توقع الجميع انه كيس ذهب وليرات ياقوت عثر عليها منذ زمن بعيد، لكنه دفنها طوال عمره ليتقاسمها أبناؤه بعد وفاته. مرت ثلاثة أيام على موت أبيهم فهب الجميع إلى النخلة. أزاحوا (حب) الماء ونبشوا التراب فأخرجوا الكيس. كان ثقيلا يوحي بأنه فص ذهب كبير أو يضم أكبرلؤلؤة في العالم. فتحوا الكيس وإذا بداخله (صلبوخ)، حصوة كبيرة متعددة الالوان ومتشابكة العروق. ضحكت عليهم الطوايف والناس أجمعين داخل قلعة سكر وخارجها، ضحكوا مدة اسبوع ليل نهار. وبنفس ذاك اليوم الصلبوخي ولدت جدتي صبيا فسماه شناوه (صلبوخ) انتقاما من حظه الأسود ومن سخرية الناس وحتى لا ينسى أحد ذاك اليوم الزفت والميراث

المسخم. بقي لغز (الصلبوخ) مغلقا غامضا وعصيا على الفهم إلى هذه الساعة السودة. والمفارقة العوجة ان أبي طلع وسيما بعيون زرقاء. شب لامعا فتعلم القراءة والكتابة وصار سائق المدير العام لتربية لواء العمارة. لاينقصه أي شيء سوى لعنة اسمه. الاسم الذي حاول بكل الطرق تبديله وتغييره لكن القدر كان له بالمرصاد، إذ عاند ونسف كل محاولاته فبقي أبي المسكين مريضاً باسمه، عليلا لا يستطيع ابتلاع (صلبوخ). وانتقاما من لوعة اسمه اختار لي اسماً نادراً ورقيقاً عكس خشونة وصلافة اسمه، أطلق علي اسم (رذاذ)، وهو اسم لا مثيل له؛ لا في العمارة وحدها بل في العراق كله. لكن المفارقة الأكثر عواجا: ان اسمي على غير مسمى فأنا أسمر أدبس أعور، أضع عينا زجاجية (عين جام) في حفرة عيني التي سرقتها شظية حاقدة في قاطع (قصرشيرين) في السنة الاولى من الحرب. وخشمي كبير يشفط هواء مدينة بكاملها. كان المفروض ان يكون أنا اسمي (صلبوخ) واسم أبي (رذاذ) لكن القدر أحول أعمص يرى العصفور حجارة: والحجارة الما تعجبك تفشخك. وأنا أقول الاسماء الما تعجبك تفشخك، مثلما فشخ صلبوخ رأس أبي.

سألته عن قصة النكتة الملعونة التي ورطته بسجن مؤبد مع صديقه (حمزة) المحكوم بالمؤبد أيضاً لأنه سمع النكتة وتستر عليه حين لم يبلغ عنه فصار مجرما هو الآخر. قال (رذاذ):

رجل شيخ كبيرالسن خمطت الحرب العراقية الإيرانية منه ثلاثة أبناء قتلوا واحدا تلو الآخر. كان الشيخ يحتضن شباك الامام الكاظم موسى بن جعفر. الشيخ معرت متشبثا بحرقة ومرارة بشباك المرقد ويهمس لصاحب القبر قاضي الحوائج وملبي المراد، يتلفت الشيخ يمنة ويسرة ويهمس: يا الكاظم ما تخلصنا من صدام.. يا ابو الجوادين خلصنا من صدام.

فجأة دخل الريس صدام إلى المرقد فاختل توازن الشيخ ذعرا من هذه الصدمة اللامتوقعة فصاح ينادي صدام:

ـ يا صدام ما تخلصنا من الكاظم.

كيف إذن يخطر في بالي الهرب من السجن وأنا أعيش جهنم على شكل مهزلة، كوميديا الجحيم هنا تتجسد بلحم ودم المساجين، فهم ينزفون حياتهم قطرة قطرة بسبب تهم وجنايات كوميدية لا يصدقها قراصنة الخيال. أي عاقل يصدق ان (عقيل) صديق عبد الحسين فرج حكم عليه (١٥) سنة بسبب قدح ماء: طرق شخص عليهم الباب وطلب (كلاص مي). أعطاه عقيل قدح الماء، شربه ومضى. مر أسبوع على شربة الماء وإذا برجال الأمن يلقون القبض على عقيل. تبين ان الشخص الذي شرب الماء مطارد من رجال الأمن بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة. وفي المحكمة قال عقيل لرئيس المحكمة عواد البندر: إذا كلاص مي خمسطعش سنة يمكن لو مغديه إعدام.

أي مخبل يصدق ان أخوين أحدهما عمره (١٠٢) والآخر عمره (١٠٣) محكومان بالسجن المؤبد بسبب إقامة شعائر البكاء على مأساة الامام الحسين. طبعاً كل أفراد العائلتين الاولاد والاحفاد معهما في السجن من الرجال فقط، فالمساكين الاحفاد مبتلين بجديهما الهرمين حيث نصفهم فوق الأرض ونصفهم الآخر في القبر. ان ورطة هذا العمر سوداء غاشمة حين يصير كل شيء بلوى؛ من الأكل إلى المرحاض إلى النوم والاستحمام وتبديل الثياب. فقال (رذاذ صلبوخ)معلقا: لا ندري في أي ماخور كانت منظمة حقوق الإنسان تغط في نوم الجريمة، تغط في سبات أطول من نوم أهل الكهف وتشخر من تكدس دولارات صدام التي تعقد الألسن وتخدر الضمائر؟؟؟ وأي مجنون يصدق ان أعمى حكم عليه

بالسجن المؤبد لأنه عزف على الكمان أغنية سعدي الحلي (دنك يا حلو لا يلوحك القناص)؟

راعي الغنم (لعيبي مناحي)الذي لا يفرق بين علبة التنر وعلبة القيمر اتهموه بالتجسس لأن خروفين اجتازا الحدود العراقية الإيرانية لأكل الحشيش. لحق بهما (لعيبي) وعاد بهما إلى القطيع فحكموا عليه بالسجن المؤبد. (لعيبي) الذي يجعل المصلين في صلاة الجماعة ينفجرون من الضحك وهم في خشوع ذائبون حين يقرأ سورة الحمد (هدنا علا السراط المستقيم).

آلاف وآلاف التهم والاحكام هي من عيار هذه المهزلة وعلى هذا المنوال، تهم مضحكة وأحكام كوميدية تصلح علاجا ناجعا لجميع أمراض الكآبة والانتحار والعبوس، إذ بمجرد ان يطلع المريض على بعض أحكام سجناء الخاصة سوف يفطس من الضحك أو يموت بالسكتة الدماغية ويرتاح.

كيف يخطر على بالي الهرب وجميع السجناء يجهلون خارطة السجن. دائماً أخمن سلسلة أخطاء لما وراء السور العملاق، فبعد أن يحصي الحرس ورجال الأمن عددنا مرتين في اليوم: المسطر الأول في الصباح، والثاني بعد العصر. ندخل إلى الجملونات، ويغلقون باب الساحة الكبيرة بثلاثة أقفال ضخمة. وأنا أبقى أحياناً قرب هذا الباب أتطلع من خلال قضبانه إلى الغروب والليل. أفكر: لا أحد هنا يعرف جغرافيا السجن بشكل كامل. جميع خرائط الوصف للسجناء ناقصة ومبتورة، لأنها عبارة عن ترقيع ولصق أجزاء بأجزاء على ذمة ذاكرة السجناء. أتطلع إلى السور الشاهق الذي تغفو عليه أحلام السجناء. سور يحتضن كل محتويات السجن ويضمه بذراعين من الحنان الكونكريتي المسلح.

الكلاب خارج السور العملاق دخلت بحرية كاملة إلى السجن لكنها بقيت تتعفن حية وهي تجوب المزابل المترامية على مد البصر حول السور. سمعت جميع كلاب أبي غريب وليس كلاب السجن وحده تضج بنباح جماعي صاخب يوم الاحد ويوم الأربعاء من كل اسبوع؛ تنبح وتعوي وتبكي في هذين اليومين. حين سألت عن ذلك؟ فكان الجواب يأتيني واحدا من كل السجناء:

- يرتج المكان بنباح جماعي في هذين اليومين فقط من كل أسبوع منذ عشرات السنين، سمعناها ونسمعها وسوف تبقى تسمعها ما دام هناك وجبة إعدام في كل يوم أحد وأربعاء. سوف تتعود على سماعها كما سوف تتعود على رؤية الغربان وسماع نعيقها يمزق الجو بعد موت آخر معدوم في صباحات يومي الاحد والاربعاء، إذ تتشظى أسرابها متناثرة في سجن أبي غريب مثل ثقوب سود تخرق الفضاء.

أتذكر يومنا الأول يوم ابتلعنا مدخل السجن بعد باب حديدي عملاق، لم أر أضخم منه في كل أبواب العالم، ثم انه هو الآخر محكوم عليه بالغلق المؤبد. على يمينه ويساره نقطتا الحرس ذات البرجين الهائلين. تليهما إدارة السجن في متاهات ملتوية بغرف داخل غرف ودهليز يفضي إلى دهليز. فهنا في هذا المكان الخرافي يخيطون لنا آفاق المستقبل. تليها غرفة السيطرة التي تبث رعب التهديد والوعيد من خلال السماعات (مكبرات الصوت) ومنها يبدأ الممر؛ جوف الحوت الذي جلسنا في بلعومه يوم استقبلونا بالأحذية. على جانب الممر الأيسر باب المطبخ وباب سجن المخابرات الغامض الذي ما رأيناه ينفتح مرة واحدة قط كل فترة السجن. ثم أبواب القافات ـ جمع قاف، وحرف القاف فيه مواقع أثرية داخل حضارة اللغة: قتل، قلق، قمر ـ القمر الذي غاب إلى الأبد عن سجناء (المغلقة)، ففي الجانب الأيمن من الممر تقع زنازين سجناء

(المغلقة). نحن سجناء المفتوحة عندنا مواجهة مع أهلنا، أما سجناء (المغلقة) فلا مواجهة لهم ولا يعرف أحد مصيرهم منذ اعتقالات سنة (٧٩).

ها هو السور اللعين الذي تصطدم به عيناي، على جانبيه يرتفع برجا الحرس كل واحد في زاوية عند نهايتي الساحة الكبيرة، أكبر ساحة في العالم عند السجناء. طبعاً لم نكن نعرف ان خلف السور سورا آخر، وتوجد مستنقعات ينبت فيها القصب والبردي والموت. لذلك كل تخميناتي سلسلة أخطاء وأنا أفكر بأن جغرافيا السجن مجهولة التضاريس وعصية على الرسم فكيف يفكر أحد بالهروب.

(١٠)

بقيت قصة اللحم البشري الموشوم باسم (حنين) معلقة بخطاطيف محلات القصابين داخل أزقة الذاكرة، التي تحاول نكران وجود أكلة لحوم البشر، إذ تحاول الذاكرة محوهم أو إحالتهم إلى مناخ الأساطير، أو اقصائهم إلى مجرد كوابيس يقظة لخيال مريض. لم يصدق السجناء في أبي غريب قصة العشاء الأخير في سجن رقم واحد التابع لاستخبارات الشعبة الخامسة حين وجدنا الوشم (حنين) في اللحم الذي نأكله، والذي بقي لغزا مغلقا طوال أحد عشر شهرا. لم يصدقوا أننا كنا نتعشى بلحم أخوتنا المعتقلين بعد إعدامهم. وجدت نفسي أتساءل: لماذا لم يصدقوا لغز اللحم الموشوم؟ لا أعتقد أنهم لم يصدقوا أكلنا اللحم البشري، بل هم لا يريدون تصديقها خوفا على انفسهم لئلا يكونوا هم أيضاً قد أكلوا ما يقدم لهم من لحم في المعتقلات، فيخشون من سقوطهم بذات الفخ، فخ أكلهم لاصدقائهم بدون ان يعلموا. لذلك هم رفضوا التصديق واتهمونا بمرض عقلي لأن وباء السحايا نهش العقول وتركنا بين أحمق ومخبول. رفضت عقولهم التصديق حفاظا على سلامتها ونظافتها من التلوث بجريمة لا تحتمل ولا تطاق. لم يصدقوا كي لا يكونوا مثلنا ضحية خدعة مروعة حين صارت بطوننا مقبرة لأخوتنا المعتقلين. رفضوا ان تكون عظامهم ولحمهم ودمهم نمى وتربى من طعام اللحم البشري، ثم انهم مروا بتجارب شنيعة في المعتقلات اشد خسة وبشاعة من الذي مررنا به، لكنهم

يرتعبون من الجنون لو صدقوا حكايتنا، وهو الذي جعلهم يشكون في صحة عقولنا. ربما سوف نرفض نحن كذلك تصديق قصة اللحم الموشوم بمرور الأيام، وتحاول ذاكرتنا تحريفها بحذف هنا وإضافة هناك، لكي يبقى العقل صلباً ممسكاً بتوازنه، فتصير حكايتنا أثرا قديماً من آثار كوابيس اندثرت أو هي مجرد سالوفة من سوالف مختلقة مصنوعة مثل حكايات ألف ليلة وليلة. ولكن حدث ما يدعم ويثبت قصتنا الموشومة في هذه الليلة بالذات ما جعلها خارج كل الليالي:

كنت نائما بين أخوتي السجناء فوق الأرض، متحاشكين نرفل بفراش وثير من الشبرين ونصف. كانت أحلامنا من شدة الزحام تتداخل وتتشابك بعضها مع البعض، فصار من الصعب ان يدعي أحد السجناء قائلا: (هذا حلمي). دائماً كانت الاحلام تتيه فلا ترجع لصاحبها الأصلي. بل يتبادل السجناء الاحلام برضى وقناعة وبكل كرم وسخاء. وفي بعض الاحيان يستعير هذا السجين حلم ذاك السجين ثم يرجعه إليه بعد الاستيقاظ. لكن بعض المستعيرين للحلم يستأثر به لنفسه ويتحايل كي لا يرجعه، يظل يراوغ ويماطل صاحب الحلم حتى يمل هذا المسكين وييأس فلا يعرف بأي طريقة يسترجع حلمه ولا يعرف أين يشتكي ليعيدوا إليه حلمه المسرق أو المستعار، إذ لا توجد في دكاكين الاحلام لافتات صغيرة من الكارتون مكتوبة بخط رديء: الدين ممنوع والعتب مرفوع.

هدر من مكبر الصوت: النزيل (كاظم صبر عمران) الحضور إلى السيطرة فورا. تكرر الصوت يربد ويهدد ثلاث مرات. لقد تعود السجناء على نزوات وغزوات رجال الأمن والحرس فلا يستغربون أي استهتار وطيش يصدر منهم في أي وقت وفي أية ساعة من ساعات الليل والنهار. كل شيء متوقع؛ زيارتهم للجملونات، تفتيش الأسرة والأفرشة والصرر، افتعال (سيطرة) بمنتصف الليل لعدنا واحصائنا مع العلم أن أعتى السجناء

ومن يسخر الجن لن يفكر بالهروب من سجن الخاصة. تعودنا على كل شيء فكثيرا ما نسمع في جوف الليل، حيث السكون المقهور والصمت الخشن لا يقطعهما سوى شظايا متناثرة من أحلام النيام ونتف من كوابيس تندلع هنا وهناك، في جوف الليل نسمع أصوات ركل ورفس وصوت نائم يفز مذعورا من الضرب، نسمع أنفاسا تتقطع إثر كل رفسة وركلة ثم صوت سحل في الممر الطويل المعتم مع صراخ مكظوم يداري خجله لكن الألم فوق طاقة الخجل والحياء. وتدريجا يذوب الصراخ ويضيع في جوف الحوت ـ الممر النفق الذي ينتهي ببصقة نور. يضيع ويتلاشى الصراخ حتى كأنه وهم، ربما هو حلم عتيق بائد نط من ذاكرة الجدار وهاهو يختفي مع رتاجات إغلاق باب الجملون. هكذا كنا نتحايل على سم الضمير وعلى قساوة كل لحظة في السجن، نعرف كيف نزوغ من الألم بفضل خبرتنا الطويلة مع الوجع منذ رحم الأم إلى رحم السجن. خبرتنا في التحايل ليست مع الالم فقط بل نتحايل كذلك على كيفية حفظ الأطعمة إلى أطول فترة ممكنة بعد يوم المواجهة الحافل بلقاء الأهل والأقرباء والأصدقاء، هنا نتحايل أيضاً من كلا الجانبين (الأهل والسجناء) في إخفاء معاناته عن الآخر فيودع بعضنا البعض بقبلات دامعة، ربما هي القبلات الأخيرة، ولسان حالنا يبتلع شظايا زجاج الأمل المتكسر في كلمات مثل: (الفرج قريب ان شاء الله).

الان وقبل ذوبان صدى النداء الثالث من مكبرات الصوت وقف (كاظم صبر عمران) أمام باب الجملون. يبدو للمراقب أن بقية السجناء يغطون في سابع نومة كي يخدعوا العيون المتربصة والمبحلقة بهم من خلال ثقوب وكوى الجدران، كما يخدعون عيون وكلاء الأمن. تمزقت أحشاؤنا حين صرت الرتاجات وخبطت بطوننا حين انفتح الباب. خرج (كاظم صبر عمران) بخطوات ترن فوق صبة اسمنت الممر الموحش

الطويل. عجيب بقي باب الجملون مفتوحا فدخل اثنان من رجال الأمن راحا يخرجوننا بشكل عشوائي إلى الممر واقفلوا باب الجملون. كنت ضمن ثلاثة عشر سجينا يسوقوننا إلى منتصف الممر فدخلت عربة دفع يتوسطها (قزان)، قدر فافوني ضخم يتلظى فوق العربة. يفور القزان ببخار كثيف ملأ فضاء الممر المعتم وأنا أسمع بقبقة غليان مخيف أنتقل من القدر الضخم إلى قلبي المتوجس من شر ارتجالي. توقف (العنقرجي) أحد عمال المطبخ الذي لا أعرف اسمه، انسحب من العربة التي كان يدفعها ورجع إلى المطبخ مصطكا ليخرج مفوض الأمن (صكبان شوكه) يترنح سكران وهو يتبختر بكرشه المهتز وشواربه التي تلبط مع حركة شفتيه، التي انفجرت وانهمرت بشتائم مبتكرة سيالة جادت بها قريحته الثملة المبدعة توا. لم نفطن إلى اختفاء رجلي الأمن اللذين أخرجانا من الجملون، وها هما يسحلان (كاظم صبر عمران) الذي يبدو فاقدا الوعي يشتعل وينطفيء بين الصحو والإغماء من ضرواة شدة الضرب. في حين تتصاعد نبرة الشتائم حدة ودعارة من شوارب (صكبان شوكه) كأنه ممثل محترف بملامح تتحرك منعزلة على حدة ويدين ترسم حركات وإيماءات على حدة، وحواره يتدرج بألوان صوتية بارعة بفاعلية الخمر وتأثيره حيث تملأ الكلمة بالمعنى وتفيض زبدا من طرفي حلقه فور نطقها. ولكن في المحصلة النهائية تتضافر ملامحه ويداه والمنلوج كلها في إغناء المشهد وتجلياته، فهو لا يعرف ما يراد منه فقط بل ويلهم بما هو غير متوقع مفعما بطاقة استرخاء عالية عزز بها طقس المشهد. اختتم (صكبان شوكه) فصله المسرحي بجملة أخيرة:

ـ هذا البطل يريد ينيك الجنة من ورى ومن كدام.

واستدار بخفة إلى (كاظم صبر عمران) حمله مثل طفل وبرمشة عين ألقاه في بطن القزان الفائر ذي الفقاعات المتفجرة. قفز (كاظم) واثبا

للاعلى بوجه كله عيون جاحظة، وجهه تحول إلى عيون كثيرة انفتحت من أقصاها إلى أقصاها بحدقات الألم والرعب خاصة عين فمه التي هدرت بصرخة شقت جوف الممر مخترقة الكونكريت وسور سجن أبي غريب منطلقة مثل رصاصة جزع ثقبت قلب أمه، التي فزت الآن فزعة متطيرة تتمتم: (يا رب سترك.. يمه كاظم شاغث روحي). مدت يدها اليمنى إلى قدمها اليمنى تتحسس قبلة ابنها (كاظم) الذي أصر على ان يقبل قدم أمه برغم رفضها في آخر مواجهة زارته في السجن وهو يقول: (أريد أبوس الجنة).

حين قفز (كاظم) واثبا من القزان عاجلته كف (صكبان شوكه) المضمومة على رأسه. لكن السجين قفز ثانية وهو يلبط داخل القزان لكن يد مفوض الأمن دفعته إلى قعر القدر الفافوني الضخم، ثم تناوش المفوض صكبان الـ (جفجير) العملاق المصنوع من الرصاص، تلقفه فوق العربة وانهال به على رأس (كاظم) بضربات سكران عشوائية. يخرج (كاظم) ينط لحظة بوجه كله عيون مفزوعة ناطة متفرقعة حتى امتلأ القزان بدم يفور، دم يتبدى على حواف القدر الضخم ويسيل من كل جانب إلى العربة والى أرض الممر الموحش إلى تحت أرجل السجناء الثلاثة عشر الذين ماعت قلوبهم من الصدمة. تباطأت حركات جسد (كاظم) وخف أنينه وشخيره بعدما تلون معدن القزان باللون الاحمر. وتتصاعد فقاعات دموية تتفجر على السطح برذاذ أحمر. كنت احاول الفرار بعيني من رؤية هذا المنظر، وأرغم نفسي على الصحو واليقظة من الكابوس الماثل أمامي. لكن رجال الأمن كانوا لنا بالمرصاد يتفقدون عيوننا ويخزرون ملامحنا بالتطلع نحو القزان ومتابعة الغرق بالدم الفوار. وهكذا بقيت متسمرا مع اثني عشر سجينا أمام القزان الطافح بفقاعات الدم. التفت إلينا

مفوض (صكبان شوكه) يخاطبنا وهو يشير إلى (كاظم صبر عمران) المغمور داخل القزان فقال:

ـ هذا الريوك مال باجر... إكلوه وخروه.

هكذا كنت أفكر وأنا أكتب حكاية اللحم الموشوم باسم (حنين)؛ اكتبها وهي طرية وطازجة قبل أن تحرفها الذاكرة، وقبل أن تبتكر حيلة جديدة لمحو آثار الحادثة، ومن ثم اختلاطها وطمسها مع حوادث وحكايات كثيرة فتضيع بين مكذب ومصدق. لذلك خبأت دفتري الصغير بحجم علبة السجائر داخل البطانية، ثم حملت المواعين والصحون والملاعق التي كانت تنتظرني لغسلها بعد وجبة الغداء، فاليوم دوري في غسل وتنظيف كل مواعين الطعام. كنت أنا وعبد الحسين فرج وسعد استقلال وكريم الصيني (سفرداشيه)، نتناوب على تهيئة الطعام والغسل يومياً على واحد.

فاجأني منظر غريب فور خروجي إلى الساحة الكبيرة: رأيت رجال أمن جددا يقودون رجال الأمن القدماء الذين استقبلونا بالاحذية والعصي. رأيتهم مقيدين ومعصوبي الأعين. صعد أحد رجال الأمن الجدد فوق (ميز) حديدي وراح يخطب ويشير إلى رجال الأمن القدماء: هؤلاء مجرمون، ضربوكم وآذوكم، سفلة حقراء خانوا واجبهم، يسكرون يومياً ويتسلون بتعذيبكم، سوف نعاقبهم ونحاكمهم، وما يكون إلا خاطركم طيب.

ثم انصرفوا يقودون رجال الأمن القدماء بالسباب والشتائم والصفع والركل. ما ان اختفوا في جوف الممر حتى اندلعت الانتفاضة وحل يوم القيامة على السجناء (المنافقين) وكلاء الأمن. الجميع يتراكض من مكان إلى آخر يبحثون عن كتبة التقارير والوشاة. رأيت أمامي، والصحون

والملاعق لا تزال بيدي، أحد وكلاء الأمن جالسا يبيع الشاي. حمل بعض السجناء (كيتلي) الماء وهو يغلي من فوق الطباخ وتناوشوا ثلاثة (قواري) شاي يفور، وسكبوها فوق رأس الوكيل فقفز مذعورا صارخا وبثل الشاي ينمش وجهه ورقبته نازلا فوق دشاشته البيضاء. طفر مصعوقا من ضراوة المفاجأة لا يعرف-أين يذهب. ورأيت هناك في الزاوية اليمنى من السور العملاق قرب برج الحرس، رأيت (عبد الرحيم) شاهرا سكينة (أم الباي) تشبه سكينة داود يهش بها مجموعة السجناء المحيطين به، الذين راحوا يضربونه بالطابوق والمواعين وقطع الخشب وكل ما تنوشه أيديهم. مرت من خلفي مجموعة أخرى تسحل وكيل أمن آخر وهو يتلوى فوق الحصو والأحجار بوجه وجسد مدمى.

ضجت الساحة الكبيرة بانفجار ورم ضخم عملاق. ورم يحمله السجناء كل هذه السنين الطويلة، كان الورم ينمو ويكبر يومياً منذ حفلة الإعدام العلنية في ساحة التحرير لاشخاص اتهموهم بالتجسس والعمالة. إنه ورم الاعتقال والتعذيب ونذالة التحقيق والاستجواب حين يعرون الأخت والزوجة والأم ويهددون المعتقل بأغتصابها إذا لم يعترف. أو يجلبون الطفل الرضيع ويستخدمونه وسيلة وأداة للاعتراف. الآن انفجر برميل القهر المسدود وتناثرت أحشاء الزنازين وصور هتك الأعراض والأجساد في أشنع استهتار بالحي وبالميت. كان الاستهتار لا يتوقف عند حد. انفجر برميل القهر بدخان دموي وتناثرت صور متلاحقة تنبع من رأس كل سجين. صور تحترق وتعيد نفسها من جديد وكأنها ولدت توا. في الساحة الكبيرة تقيأت الذاكرة كل أحشائها.

رأيت الجنون الجماعي بوجوه تزبد وترعد وقد شوهها الانتقام والثأر. انفتق العقل الجمعي وانفرطت خرز مسبحة الوقار والاتزان بمجرد خرق حاجز الخوف جزئياً، مجرد ثغرة صغيرة فتحها رجال الأمن الجدد في

حاجز الخوف وهم يقيدون رجال الأمن القدماء ويهينوهم. لكنهم لم يتوقعوا هذه الانتفاضة وهذا الانقلاب فصار من المستحيل إرجاع الوضع كما كان بعدما خرج السجناء عن السيطرة. لا يمكن العودة بأوضاع السجن إلى حالته الاولى إلا بمجزرة. أنا وبعض السجناء لازلنا مندهشين من تصرف رجال الأمن الجدد والادراة ونجهل تماما ما هي لعبتهم الجديدة: هل تغيرت سياسة حكومة البعث وصدام مع إيران وصاروا أصدقاء بعدما وقفت جيوش العالم المحتشدة على أبواب العراق بقيادة أميركا منتظرين ساعة الصفر، هل اتفق صدام مع القادة الإيرانيين على طبخة لا يعرفها إلا الله والضالعون في الطبخ، أم ان البلاد مقبلة على كارثة جديدة يتم الاعداد لها بنا نحن السجناء فئران المختبر، فإذا نجحوا معنا سوف ينجحون مع الشعب بكل بساطة.

المهم، نحن لا نعرف نوع وشكل وحجم لعبتهم الجديدة ولم ندوخ أنفسنا باكتشافها، بل سيطر علينا عمى الانتقام والثأر من أضعف الأعداء، من وكلاء الأمن العزل. وعلى الرغم من الهيجان العارم وهستيريا انفلات الكبت وانفجار بارود برميل القهر لم تسجل حادثة قتل، إنما هناك كسور وتهشيم وحروق ونزيف. كما ان بعض وكلاء الأمن فروا وأفلتوا من وليمة يوم القيامة، فهرب من هرب باتجاه غرفة السيطرة وادارة السجن منهم (وليد الأصفر) مراقب الجملون الاول. في حين راح بعض السجناء ضحية الشبهات والقيل والقال ولسوء حظهم نالوا أشد أنواع الضرب لأنهم كانوا في قلب عاصفة الانتقام الهوجاء.

بدأت شرارة يوم القيامة، يوما من أطول أيام السجن على وكيل الأمن ومن أقصرها على غيره. يوما بدأ لكنه لن ينتهي، إذ يبدو ان زمن هذا اليوم ليس أرضيا بـ (٢٤)ساعة بل هو زمن فضائي يقاس بالسنين الضوئية.

دخلت وقد أمتلأت عيناي بمشاهد كابوسية اندلعت في منتصف النهار على شكل أيد ترتفع بكل ما تيسر لها من أسلحة بدائية، وتنخفض بصراخ مختلط لا يتميز وينفرز منه وجع الضارب والمضروب، معاول ومساحي تحفر جسداً يتحاشى الهجمات ويتراكض من جهة إلى جهة؛ تطارده مجموعة وتتركه مجموعة إلى صيد آخر. أجساد مسحولة وأرجل ترفس. والعجيب أن هذه المشاهد سرعان ما صارت مألوفة عادية وكأنها تحدث من زمان بعيد يوميا. دخلت الممر، جوف الحوت وأنا أحمل المواعين والملاعق وأرى المشاهد ذاتها في الجملونات حتى جاء الحرس ورجال الأمن، أخذوا جميع وكلاء الأمن وهم بين محتضر ومغمى عليه أو ممن يوشك على إطلاق زفرته الأخيرة، حتى إني أشفقت عليهم على الرغم من دناءة جرائمهم وخيانة أنفسهم وأخوتهم السجناء.

وضعوهم في قاعة المطعم بعدما تلقوا العلاج ومنهم من ظل طريح الفراش في المستشفى. ثم نقلوهم إلى سجن الخفيفة وانقطعت أخبارهم عنا.

بسرعة مذهلة تغيرت ملامح السجن ومراكز القوى ووجوه السجناء. صار (مرتضى الشوكي) مراقب الجملون الثاني ومساعده (جليل)، وصار (كاصد)مراقب الجملون الأول ومساعده (سحاله) الذي يكرهني بلا سبب أو لأسباب أجهلها، ولكني أيضاً أبادله هذا الشعور لأسباب أعرفها من كثرة ما رأيت أمثاله في إيران. (سحاله) له وجه ينط حماقة فعيناه جاحظة بجوع غريزي للتسيد والاستحواذ والسيطرة، أنفه أناني ينفتح على مصراعيه لشفط الهواء كله وله وحده، منخراه تختص بشم روائح التفاهة والدسائس والوشايات والقيل والقال. له خدان منتفخان يوحيان بأنه على استعداد لارتكاب كل الأفعال المتهورة والمشينة. باختصار ساحق: لقد رأيت

(سحاله) مدججا بالغباء، وربما هو يكرهني لأنه يعرف ما أعرفه عنه. فهو مباشرة بعد انقلاب السجن لبس حلة المؤمن التي صارت قناعا في ما بعد: (لزق لحية وعرقشين وسبحة وتلث محابس بأصابع ايده). إنه يعرف عن خبرة سابقة نوع اكسسوارات المؤمن التي تطرد عين الشكاك والمرتاب بقلة إيمانه. يعرف أن اللحية جواز سفر المؤمن وكارت اخضر، لحية تتجاوز السيطرات بدون سؤال وتفتيش وتتجاوز كل الخطوط الحمراء. اللحية قناع تخدع الساذج والفطن على السواء لأن القلب يخفي الايمان والنفاق. الطاقية البيضاء، العرقشين هوية انتساب لأهل السماء وقبة ناصعة البياض فوق رأس المؤمن مثل مانعة صواعق، العرقشين مانعة الذنوب والفواحش. والمسبحة (١٠١) سوداء تطرد الوساوس والهواجس من عقول المرتابين والشكاك بخرزات أسماء الله الحسنى، المسبحة رمز الوقار والوجاهة والرصانة ومشنقة سوداء تلتف حول أعناق الملاحدة والكفرة والمرتدين من خلال حسابات معقدة للخرزات القدرية وتقنيات (الخيرة) والخير في ما وقع. أما طاقم المحابس المفصصة فهي مصدات الذنوب واحجار الله الكريمة لطرد أشعة الشيطان، انها أسلحة غامضة تفتح النار في حروب سرية على أعداء طلسميين لا يعرف أحد طبيعتهم؛ هل هم من الناسوت أم الملكوت أم من الجن والأشباح والعفاريت والشياطين. احجار تنسل منها حزم أشعة تعانق القلب وتنام على يقين بصلابة الصخر.

كنت مع (عبد الحسين فرج) نتمشى في الممر، جوف الحوت المعتم، حينما سلم علينا (سحاله) بتحية تهديد ونظرة مفضوحة الاستخفاف والاستهانة بنا مخلوطة مع ألق شعاع يقول: أنا الأقوى وبكلمة واحدة مني أمسح بكما أرض الممر. كان وجهه ينضح بعافية بدائية همجية.

شرحت لعبد الحسين فرج فذلكة تحليلي وتفكيك تحية (سحاله) ونظرته الملغزة فضحك عبد الحسين صاهلا مثل الخيول وقال: السالفة مو يمك. . الطركاعه يمي وياي.

وحكى لي كيف أنه يعاني التبول الكثير بسبب داء السكري، وكيف حظي بـ (سحاله) مع شاب صغير اسمه (رحمن) في الحمامات بعد منتصف الليل، حيث فرصة خلو المكان والصمت والسكون وإذا بخطوات عبد الحسين فرج الشبحية التي لا يسمع لها خطيط ولا زعيط، يمشي مثل دبيب النملة بلا صوت ولا وشيش. مد رأسه حين سمع همسات مرتجفة فرأى (سحاله) يلتصق بـ (رحمن) من الخلف من وراء الثياب وكأنه يتحرش به ويختبر ممانعته فأصدر (عبد الحسين) صوت تمخط وبصقة ثم ضرب الأرض بقدميه مثل من يخطو آتيا للحمامات. بعدها دخل وسلم عليهما حيث رأى (سحاله) يغسل يديه تحت الحنفية و(رحمن) يلملم ملابس مبتلة. نبش (سحاله) وجه (عبد الحسين) بنظرة مقموعة الشهوة، نظرة مفضوحة الغرض والقصد وكأنه يقول: هسه وكت بولتك يا أصلع الكلب.

(١١)

لا أحد يعرف داخل سجن الخاصة وحتى خارجه بأن لحية فجرت مقر الحزب الجمهوري الاسلامي في طهران، الذي قضى على أكثر من سبعين عضوا من الحزب ورئيسه (بهشتي)، وهم جميعهم يحملون هوية اللحية. وقتها صحا الإيرانيون من سذاجة تقديس اللحية وحلق الكثير منهم لحيتهم بـ (القندره). إذ تسللت ثلاث أو أربع لحى إلى المقر وطبعا لم يفتشهم أحد لأن التفتيش إهانة للحية وتدنيس للعقيدة ومناصرة لأعداء الجمهورية الاسلامية الكثيرين بحيث تنقطع أنفاس المصلين المساكين عقب الانتهاء من صلاة الجمعة بترديد شعارات الموت ضد معظم دول العالم: الموت لاميركا. الموت لشوروي (الاتحاد السوفيتي). الموت لفرنسا. الموت لإسرائيل. الموت..... المفروض يختصرونها ويرددون: الموت للعالم كله. مع العلم ان شعوب الأرض كلها تسمع هدير أمواج تلعلع بالموت: مرك بر أميركا. مرك بر شوروي... وهكذا إلى آخر الـ (مرك بر) التي تدوي وحدها فوق مقبرة العالم. إذن اللحية هوية مقدسة لا يتجرأ أحد على الشك بها، تماما مثل الشوارب البعثية والبدلة الزيتونية التي تخترق كل السيطرات والحواجز بدون السؤال عن الهوية فكيف يتجاسر أحد بالسؤال عن هوية الهوية. في (الدباش) في مدينة (الحرية) شاعر نغل، وهو مغمورا اسمه (صلاح رسن) ابتلع سنوات الحرب الثمان بهوية الشوارب البعثية والبدلة الزيتونية وهو هارب من

الجيش، لا بل انه تمادى وبالغ في سحر الهوية فذهب لمقابلة صدام حسين في القصر الجمهوري مع وفد من الأدباء، وهكذا أفحم العيون والعقول المفرطة بشكوكها من خلال صورة مع السيد الريس، صورة يحملها بجيبه اينما ذهب حتى إلى المرحاض.

لكن سجناء الخاصة هنا منبهورون باللحية إذ لم تصلهم بعد جرائم اللحى ولم يكتشفوا أنها يمكن أن تكون أخطر قناع في خداع الجميع. المساكين يتباهون بها يمسدونها محتفلين بانتصارهم على الشوارب. اللحية تحدي صارخ للبعث وصدام فنحن السجناء أول من أطلق لحيته واردى الشوارب قتيلة، حيث لم يجازف أحد منذ سنة١٩٦٨وحتى اليوم، فليس في العراق لحية من زاخو إلى الفاو سوى لحى المساجين في الخاصة ولحى المجانين.

ارتاحت بشرة وجوهنا من الحلاقة الاجبارية اليومية وانزاح كابوس عرض الأنباء المقدس وتدفقت علينا أمواج الممنوعات والمحظورات من الراديو والكتب والكاميرا والواقي (فلاش لذر) والزواج داخل السجن أثناء المواجهات حيث يتم عقد القران وفق الاصول والشهود والسادة والشيوخ عاقدي القران. كما تدفقت التلفزيونات والثلاجات والمجمدات، بل تمادى البعض إلى صياغة المنشورات السرية لتوزيعها خارج السجن. ثم أقيمت صلاة الجماعة وصلاة الجمعة ورحنا نمارس كل الشعائر الدينية التي يحلم بها العراقي المتدين خارج السجن.

بقيت أنا وسعد وكريم الصيني وبعض الأشخاص المعدودون بلا لحية إضافة إلى الشيوعيين والمسيحيين والأيزيديين والأكراد والتركمان، فتحارش بعض المتطرفين من أصحاب اللحى بالشيوعيين إثر احتدام نقاش بيزنطي حول مصيرهم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار أضخم دولة

على خارطة الأرض، هؤلاء الشيوعيون لم يبتلعوا بعد غصة زوال أكبر امبراطورية شيوعية، في حين أحتفل المتدينون بسقوط دولة الكفر والالحاد، ثم راح المتطرفون يرشقون السجناء الشيوعيين بتعليقات ساخرة شامتة ويحمدون الله بكرة وعشيا على نعمة سقوط الملحدين، يتعمدون الثناء لله وحمده بصوت عال وبنغمة احتفالية تستفز الشيوعيين. أحتقن الجو وتم التراشق بنظرات الكراهية السافرة حتى نشبت معركة أهلية كادت تخلف قتلى وجرحى لولا تدخل بعض العقلاء والمعتدلين من كلا الجانبين. بعدها جرت مفاوضات مع ادارة السجن لتجنب حدوث مجزرة حرب أهلية فتم نقل الشيوعيين إلى سجن الأحكام الخفيفة.

كان الاتحاد السوفيتي للشيوعيين مثل إيران للمتدينين والأحزاب الدينية. الآن صاروا يتامى بموت الأب كما يصفهم المتدينون والأحزاب الدينية، لا يدركون أن مصيرهم لا يختلف كثيراً إذا ما سقطت حكومة إيران الاسلامية، وسوف يحتفل الشيوعيون بسقوط النظام اللاهوتي أفيون الشعوب كما يقولون. طبعاً لم يدرك كلا الطرفين ويعي: أنهما من طينة واحدة ومن معدن واحد وإن اختلفت العقائد والايدلوجيات، لأن عقلهما واحد، شبوا وتربوا في بيئة واحدة، لذلك تتساوى ردود أفعالهم ويقترفون ذات الأخطاء ونفس التهور والتصرف والسلوك حتى وان كان هذا الطرف مؤمن وذاك غير مؤمن. لقد خرجا من رحم واحد ورضعا من ثدي واحد وسوف يموتان ويدفنان في قبر واحد. القضية لا علاقة لها بالدين والفكر والمعتقد بل بالكثرة وبالقوة.

التحق مع الشيوعيين بالنقلة إلى سجن الخفيفة كل من المسيحيين والأيزيديين والصابئة والاكراد والتركمان، وكل من خاف على نفسه من دوامة التطرف. لكن برخو فضل البقاء مع ربعه المجانين لأنهم خارج خنادق الأديان والاعراق والقوميات والأحزاب. توسل بي كثير من

الأصدقاء ان أذهب معهم إلى الخفيفة، وحذروني من البقاء لكنني لم أجد أي مبرر للانتقال فكان وداعهم لي: ميت يودع ميتاً.

لم تبرد بعد أسرة وأماكن الشيوعيين والمنقولين إلى سجن الخفيفة حتى كادت تنشب معركة أهلية جديدة بقيادة ذات المتطرفين أنفسهم مع متطرفين من السنة، فتدخل العقلاء والمعتدلون من كلا الجانبين وتم نقلهم إلى سجن الخفيفة ما عدا شيخا معمما كبير السن اسمه (شيخ عارف). وحين بقي المتطرفون لوحدهم بلا أعداء انكفؤوا على أنفسهم، إذ حين لا تجد الفتنة حولها ما تحرقه تحرق نفسها. وهكذا اندلعت هنا وهناك معارك أهلية صغيرة جدا وكنا نسمع صراخ المتطرفين: هذا من جماعة الخالصي. ذاك الفاسق يقلد فلان، وهذا المرتد يقلد فلتان. التطرف إذا لم يجد شيئاً يأكله يأكل نفسه، وإذا بقي لوحده بدون أعداء سوف ينتحر فيكون هو القاتل وهو الضحية.

طبعا، لو كان السنة هم الاكثرية لأنتقل الشيعة إلى سجن الخفيفة. العلة ليست بالمذاهب والطوائف بل في تطرف عقل الإنسان وتاريخ وعيه، فالدين قبل مجيء البعث كان دينا فقيرا مسالما أعزلا بحيث لا نعرف من هو الصابئي ومن المسيحي، من السني ومن الشيعي. كان دينا نظيفا بلا تكفير وتفسيق وتخوين حتى انفلق يوم الانقلاب الابيض الذي سود أيامنا وصارت جميع أعيادنا أعياد غربان.

أبعدني (رذاذ صلبوخ) وقادني إلى ظل دسم بعيداً عن ضجيج المذاهب والطوائف. أخرج سيجارة (سومر) أعطاني واحدة وأشعلها ثم اشعل سيجارته. تكلم وكأنه يواصل حديثا بدأه منذ فترة وهو يقول:

ـ كادت تنشب حرب طاحنة بين عشيرة آلبو زيرج وعشيرة السواعد بسبب ثور يعود لرجل ازيرجاوي وجدوه ميتاً فوق أرض رجل ساعدي.

تفاقم الوضع لولا هبوط رجل من السماء كما يقول أهل (الجلعة). انقسم مضيف شيخ كعب إلى فريقين يتبادلون التهم والاوصاف الرذيلة، تعالت الأصوات منذرة قرب نشوب معركة، كما يبدو انفلات زمام الأمور من يد شيخ كعب، فقد بدا غير قادر على السيطرة وكبح الجماح وإذا برجل يقود ثورا أقبل على المضيف، بهت الجميع بصدمة المفاجأة لأن هذا الثور هو نفسه الثور المقتول الذي وجدوه ميتاً في أرض الساعدي، كما يدعي الرجل صاحب الثور المقتول من آلبو زيرج قائلا (ان السواعد هم من قتل الثور). لكن هذا الثور هو ذات الثور الميت.

جلس الرجل في صدر الديوان بعدما ربط الثور خارج المضيف. شرب القهوة وسط ذهول وصمت الجميع فقال:

- في سنة من السنين حدثت فتنة (الله يكفينا شره) بين المسلمين، هذا يقول شيعي وذاك يقول سني فراح الجار يذبح جاره، ثم راح شارع يتذابح مع شارع، وأخيراً تذابحت محلة مع محلة أخرى. أطفأ الفتنة رجل نزل من السماء كما يقول أهل المدينة المنكوبة، هذا الرجل يحمل عذق تمر بيده اليسرى وقربة ماء بيده اليمنى. ظل الرجل اسبوعا كاملا يدخل من بيت إلى بيت يسقيهم الماء وهو يقول: ها كيف وجدت الماء هل هو شيعي أم سني؟ فلا يستطيع أحد الجواب. ثم يطعمهم من عذق التمر ويسأل: ها كيف وجدت التمر هل هو شيعي أم سني؟

وبعدما انطفأت الفتنة خرج الرجل من المدينة. ولكن صادف مرور أحد التجار بهذه المدينة المنكوبة وصعقه الجو المكهرب فلا باع ولا اشترى، بل خرج منها يائسا مغموما وقد أخذه التعب فلم يجد مكانا ينام فيه غير شجرة وارفة الأغصان. صعد بين أغصانها وأغمض عينيه. لكنه فز على صوت حركة تحت الشجرة فرأى الرجل صاحب عذق التمر وقربة الماء. راح يراقبه من فوق الشجرة:

أخرج الرجل رغيف خبز ومد يده في عبه فأخرج فأسا صغيرة حادة. تناول حبة تمر أخرج منها النواة وراح يتحدث معها وبيده الفأس:

ـ أنت أبو بكر لماذا، لماذا وأنت الصديق وثاني أثنين في غار حراء، لماذا حينما نصبك المسلمون خليفة عليهم، لماذا لم تسلم الخلافة إلى علي بي أبي طالب حسب وصية النبي، ها لماذا؟

ضرب حبة التمر بالفأس وانقسمت إلى نصفين لفهما بلقمة خبز وأكلها. ثم أخرج تمرة ثانية فتحها ورمى النواة. وقال يحدثها:

ـ أنت عمربن الخطاب لماذا، لماذا وأنت الفاروق العادل، لماذا حين صرت خليفة المسلمين بقيت على كرسي الخلافة ولم تسلمها إلى علي لماذا، لماذا بقيت ساكتا على وصية الرسول لماذا؟

ضرب حبة التمر وقسمها نصفين، لفهما بقطعة خبز والتهمها. أخرج التمرة الثالثة وراح يتكلم معها:

ـ أنت عثمان بن عفان لماذا وأنت الصحابي الجليل ذو النورين، لماذا تركت وصية النبي وقبلت بالخلافة، لماذا لم تتنازل عنها إلى علي بن أبي طالب لماذا؟

ضرب التمرة الثالثة وقسمها نصفين ثم لفهما في لقمة خبز وأكلها. أخرج تمرة رابعة، فتحها ورمى النواة وقال يحدثها:

ـ أنت علي بي أبي طالب لماذا، لماذا وأنت باب مدينة العلم وزوج فاطمة البتول، لماذا بقيت ساكتا كل هذه السنين، ولماذا وافقت على كل شيء وخالفت وصية النبي لماذا؟

ضرب حبة التمر بالفأس وقمسها نصفين لفهما بلقمة خبز والتهمها. ثم أخرج تمرة خامسة، فتحها ورمى النواة وقال يحدثها:

ـ أنت النبي محمد لماذا، لماذا وأنت رسول الله وخاتم النبيين، لماذا

جعلت وصيتك غامضة ومشكوكا فيها، لماذا لم تعلن عنها في كل خطبة وتقول للمسلمين في كل يوم: بأن الخلافة من بعدك لفلان بن فلان لكي تحقن دماء المسلمين وتخمد الفتن طوال الدهور، لماذا زرعت الفتنة بعدم صراحتك وعدم الإعلان دوما وأبدا عمن يستخلفك ويحل محلك قائدا للأمة لماذا لماذا؟؟

وضرب حبة التمر بالفأس وقسمها نصفين، لفهما بقطعة خبز وأكلها. بعدها أخرج التمرة السادسة. فتحها ورمى النواة وراح يخاطبها:

ـ أنت الله لماذا، لماذا وأنت خالق كل شيء وتعرف كل شيء المخفي والظاهر، علام الغيب والشهادة لماذا لم تحسم الأمر وتبين للناس من هو الخليفة، فهل يرضيك حالنا اليوم وها هم المسلمون يتقاتلون على شيء مضى وانقضى، لماذا لم تتدخل وتفض النزاع، فأنا البارحة أطفأت فتنة كادت تحرق الاخضر واليابس، انطفأت لكن جذوة الفتنة لم تخمد وربما ستشتعل في أي وقت في أي مكان، وقت رخو الايمان ومكان يرخص فيه الإنسان، هل يرضيك حالنا وحال المسلمين اليوم، لماذا لا تتدخل وتحقن الدماء لماذا لماذا؟؟؟

رفع الفأس ليضرب حبة التمر وإذا بصيحة هائلة من الأعلى:

ـ لا لا . . . لا ربك هذا. . لا هذا ربك ربك.

ذعر الرجل صاحب عذق التمر وقربة الماء وهرب تاركا كل شيء وراءه من شدة الخوف. نزل التاجر من الشجرة ولم يهنأ بأغفاءة قصيرة بين الأغصان وراح يصيح على الرجل المسكين ان يرجع ويأخذ أشياءه التي تركها خلفه. لكن الرجل توارى وذاب في الافق مخلفلا وراءه دوامات غبار.

أطفأ (رذاذ صلبوخ) سيجارته وهو يقول:

ـ طبعاً، هناك في (الجلعه) آنذاك لم يكن أحد يعرف ما هو الشيعي وما هو السني بين العشائر. لكن الجميع انتفضوا يطالبون الرجل صاحب الثور عن مغزى هذه القصة وانتظروا (رباط السالفة) ما هو وما علاقة الرجل ابو عذق التمر وقربة الماء بمعركة الثور التي سوف تنشب لولا ان الرجل قال:

ـ أين صاحب الثور، عمي روح أخذ ثورك واطلع بوجهك على أهلك. وأنتم عمي السواعد مطلوبين (١٥) دينارلشيخ كعب.

ختم (رذاذ صلبوخ) القصة قائلا: لا أحد يدري ان كان شيخ كعب متفقا مع هذا الرجل الغريب على شراء ثور يشبه الثور المقتول ويأتي به للمضيف. أنا اسأل نفسي وعصري والعالم: لماذا انقرض الخيرون وتلاشوا في هذه الايام فلا نجد أمثال الرجل أبي عذق التمر والرجل صاحب الثور، هل كانت ستنشب الحرب العراقية الإيرانية لو جاء رجل ومعه ثوران، يعطي واحدا لصدام ويعطي الثاني للخميني؟؟. صدقني يا ثامر ان كل حروب ومعارك الشرق الاوسط تشبه حرب الثور.

في تلك الليلة اندلعت الحرب التي أطلق عليها الحلفاء بقيادة اميركا اسم (عاصفة الصحراء). كنا نرتعد ونهتز مع كل صوت انفجار. الجملونات تهتز والساحة الكبيرة ترتج والممر جوف الحوت يتقيأ، سجن ابو غريب وبغداد والعراق كل يختض ويهتز. الزمان والمكان يهتز فأسمع صوت ماكر لعوب متهكم يهمس ويرقص بخفوت شبحي: صدام اسمك هز امريكا.. صدام....

وجدنا زوايا الساحة الكبيرة ملطخة بالدم والريش حيث أقفاص الدجاج والبط الذي يربيه السجناء، يبدو أن الكلاب أو وحوش الليل بطشت بها. ثم انهمرالمطر الأسود الذي سخم السور الكبير وأبراج

الحرس وسخم كل خارج الجملونات فتذكرت المطر الأسود في (زندان قصر) بطهران. كذلك شعر السجناء بدنو يوم القيامة بعدما أحرق صدام آبار النفط وأشعل الحقول النفطية المشتركة حين اندحرالبطل الملهم وتسابق الأشاوس ركضا من الكويت إلى البصرة في أضخم سباق مارثوني في التاريخ. ما ان وصل أحد العسكرين الهاربين إلى البصرة ورأى الريس صدام حسين يضحك عليه في الصورة، سحب أقسام البندقية ورشق الصورة بزخة رصاص لم ينقطع، إذ اندلعت الانتفاضة وامتدت إلى معظم مدن البلاد فتقوضت سلطة البعث. كأن السجن فرغ من الحراسة وهجره رجال الأمن حتى إن بعض الحرس راحوا ينامون معنا داخل الجملونات.
وانطلقت الهروبات المتتالية من أول حادثة هروب بتخطيط محكم: أختفت سيارة تابعة للمخابرات بعدما أفرغ الهاربون جميع السيارات من البانزين. وكان في السيارة (باج) المخابرات السحري الذي يمر بالعراق من الشمال إلى الجنوب بدون ان تعترضهم سيطرة أو مفرزة. توزع الهاربون إلى سائق للسيارة وآخر يجلس بقربه، والى شخصين في المقعد الخلفي بينهما شخص مقيد اليدين ورأسه طامس في كيس قماش على أنه معتقل. هذا الهروب فض بكارة سجن الخاصة في أبي غريب حين توالت الهروبات، لكن السجناء المساكين لا يعرفون أن خلف السور الهائل سورا مثله تحيط به مستنقعات ينبت فيها القصب والبردي والموت؛ فهناك عشائر موالية للسلطة تلقي القبض على كل هارب وتسلمه إلى إدارة السجن. كم تمنيت أن ينقض وباء الدود على هؤلاء المجرمين خاصة وأنا أرى اكتمال قمر عصر الدود: إن الذي ينظف الطبيعة من الجيف هو الدود بأكله الجثث المدفونة بالمقابر وغير المدفونة. لكن انحرافا هائلا أحدث شرخا بالطبيعة بعدما عبث بها الإنسان وتفاقمت جرائمه مما حدا بالطبيعة إلى استيلاد نوع جديد من الدود؛ دود ينظف الطبيعة من القتلة والمجرمين. ينظف الأرض

والحياة بدون ضجيج وبسرية تامة بلا أعراض ولا أنهيار صحي عارم. دود ينبغ داخل دم المجرم فيقضي عليه أو يفضحه بأنه من حملة الدود. كم يخاف الإنسان وهو يتخيل كيف يأكله الدود في القبر، فما حجم الرعب لو أن الدود يأكله وهو حي وبكامل عافيته.

هذه الليلة سرت شائعة بيننا لا يعرف أحد مصدرها فصار السجن خلية نحل ضاجة. تقول الشائعة: ان (العنقرجية)، السجناء عمال المطبخ، وضعوا مخدرا ومنوما في الطعام للحرس ولرجال الأمن وهذه الليلة ربما سوف تشهد أضخم هروب جماعي.

(١٢)

في السجن لم نكن نعرف أن الانتفاضة قد قمعوها، ودفنوها تحت جلد العراق فتشكلت أنفاس المدفونين احياءا، انتفاخات أورام سرية لا يعلم بها أحد سوى عيون التراب. ولم نكن نعرف أن سجن الخاصة مطوق بأسلحة ثقيلة وقوات الطوارئ البعثية. شعرنا بخطرغامض من خلال دبيب الخطوات العجولة والحذرة فوق سقوف الجملونات.

كل السجناء يعلمون بأن مفاوضات ليلة أمس قد فشلت حينما جاء (سبعاوي) ملثما بيشماغ أحمر وهدد مراقبي الجملونات ممثلي السجناء الأربعة (كاصد ومساعده سحاله ومرتضى الشوكي ومساعده جليل) فقال:
أنا بن جلا وطلاع الثنايا / حينما أضع مسدسي بطيز أخواتكم ستعرفوني.
(سبعاوي) أخو صدام غير الشقيق يريد إرجاع أوضاع سجن الخاصة إلى وضعه السابق قبل انقلاب السجناء يوم بطشوا بوكلاء الأمن (المنافقين) وعاقبوهم شر عقاب. ومنذ تلك اللحظة راح السجناء يديرون شؤونهم بأنفسهم، فهل يتخلون عن هذه الحرية داخل السجن هكذا ببساطة، وفي هذا الجو المتكهرب والمشحون ببخار الدم أنهى (سيد حسن) الحداد مدة محكوميته الست سنوات وخرج مودعا الجميع متمنيا ان لا تحدث مجزرة بعد إطلاق سراحه فالمناخ هنا ينذر بمطر من الدم. أعطاني خيمة المواجهة ومربع المكان الذي تنصب فيه. ودعته بتلعثم وقلت له سارع بالخروج قبل ان يغيروا رأيهم، سارع وأفلت قبل اندلاع الانفجار الكبير.

خرجت مع السجناء إلى الساحة الكبيرة بعد سماعنا دبيب الخطوات فوق السقوف. رأيت انتشار مسلحين فوق سطوح الجملونات يتوسطهم سلاح الـ (بي كي سي) على شكل مثلث فوق سطح الممر بالضبط مقابل الساحة الكبيرة. أمرنا صوت مهدد يصدر من مكبرات الصوت:

ـ ادخلو الجملونات ويرجع الوضع مثل الأول بلا شروط ولا (لغوة زايدة) وتطيعون أوامر رجال الأمن وادارة السجن وإلا . . . .

طبعا، لم يمتثل السجناء للتهديد وتخلل فترة الانتظار هياج وصياح وهتاف. تكرر التهديد من مكبرات الصوت، وحالما انتهى وسكت التهديد والإنذار من السماعات دوى صوت (مرتضى الشوكي) هاتفا بصوت مجلجل:

ـ احنا ما عدنا اسلاح غير النعل. . . . وإذا ضربتونا بالرصاص. . . نضربكم بالنعل.

لعلع الرصاص برشقات طويلة وطائشة من سلاح الـ (بي كي سي). تطافر السجناء إلى جميع الجهات والى كل جانب وصوب للاحتماء، ولكن إلى أين وبمن؟ السماء محايدة والأرض حصباء، السور العملاق وحده فقط يسد الآفاق، فلا ملاذ ولا مهرب من الرصاص. حسبت أنه رصاص تمثيل، إطلاقات خلب لمجرد إخافتنا وترويعنا فقط لكي نطيع أوامرهم لكني رأيت الحصى يتطاير من أمامي وحولي. تلفت هنا وهناك فرأيت الجميع منبطحين يلوذون بالأرض الحصباء. رميت جسدي فوق الأرض لعلها تبتلعني وتحميني من هذا الموت الطائش.

أمرنا ذات الصوت المهدد من السماعات بالوقوف أمام السور العملاق، قبالة الجدار الضخم وبلا أدنى حركة. نحن لدينا ذخيرة كبيرة من هذه التصرفات والحركات، فسرنا معنى هذا الوقوف: الإعدام

الجماعي كما هو شائع ومعروف في جميع سجوننا ومعتقلاتنا. إذن هاهي لحظات ما قبل الموت، كيف نواجهها، أي رد فعل تنتظره الحياة منا بآخر ما تبقى لنا من الأنفاس؟ بقينا هكذا معطلين تماما، يخيطنا شلل غريب بانتظار الموت في رصاص أعمى، أو بانتظار معجزة تنتشلنا من حالة الشده والخذلان. أسمع بقربي تمتمات قراءة الشهادة مع زفير يرتجف.

أمرنا نفس الصوت من المكبرات أن نستدير نحو الساحة الكبيرة فرأينا حوالي خمسة عشر جثة من أخوتنا السجناء وسط الساحة مكومين و(كريم الصيني) مجروح في صدره يلوب فوق الأرض الحصباء. في هذا الجو الدموي وغلالة الذهول طفر شاب يركض من أقصى زاوية السور المقابلة لي حتى إن المسلحين فوق السطوح بهتوا وتفاجؤوا من رعونة هذه الجرأة لهذا الشاب ولم يطلقوا عليه الرصاص، ربما أرادوا ان يعرفوا سبب ركضه وماذا سيفعل. لما اقترب إلى وسط الساحة عرفته فوراً إنه (سعد استقلال) انحنى على (كريم الصيني) وراح يمزق قميصه ويدس قطعا كبيرة من القماش في الجرح. فجأة دخل حرس ورجال أمن يركضون إلى وسط الساحة وراحوا يسحلون الجثث إلى داخل الممر ثم أخذوا (كريم الصيني) سحلا ودفعوا (سعد استقلال) بالرفس والركل واللكمات إلى الممر. ما ان اختفوا وبلعهم جوف الحوت حتى تقيأ، حشود من قوات الطوارئ وجهاز الأمن الخاص، يحملون بأيديهم مختلف أنواع أسلحة التكسير: كيبلات، هراوات، (تواثي) خشبية وحديدية وعصي مكهربة وأسلحة أخرى لا نعرفها. هبوا علينا مسعورين فرحين، يلوحون بأسلحتهم في الهواء بنشوة الذاهب إلى مغامرة سحرية. وبدأت حفلة التكسير العارمة والمتهتكة، حفلة تكسير عشوائية لا نظير لها في جهنم الدنيا وجهنم الآخرة. كان نصيبي منها (بوري) حديد على رأسي. العجيب لم ينبع الدم ولا أغمي علي وما شعرت بألم ماحق فقلت مع نفسي: ربما أنا الآن ميت ولا أدري

انني ميت وإلا؛ كيف لم يمض بي هذا البوري الحديدي. طبعاً أنا أقل السجناء تعرضا للضرب والأذى بعدما اطلعت على كسور الآخرين. كنا نتراكض هائمين نزوغ من أسلحة التكسير لكني أسمع بقربي صوت انخلاع مرفق تصاحبه صرخة. . . . . هيهات هيهات نسيانها فقد انحفرت بدماغي مباشرة. سمعت صوت انكسار عظم فخذ يسمم أذني ويقلب أحشائي من فوق لتحت. رأيت (رذاذ صلبوخ) كأنه مطعون بسلاح شيطاني ملعون، رأيته ينزف روحه شعاعا بعد آخر لكنه مثل الغائب عن الوعي وعن المكان والزمان. بقيت أتابعه وأنا ألهث من مكان لآخر حتى أقتربت منه. رأيته يريد ان يحفر لحظة وجوده الآن وهنا في دماغ كل من يراه، يريد أن يبقى شكله وعمره وطوله وآلامه محفورة شاخصة إلى آخر يوم على سطح الأرض. وهاهو يقاوم ضربات جنونية يسددها له أشرس هؤلاء الجلاوزة، الذي أشتهر وتميز أمام عيوننا بسرعة كأشهر كاسر في هذا اليوم المشؤوم والمشهود. هذا الكاسر نراه مهووسا وفرحا يتراقص على أنغام موسيقى الرعب وأصوات الخلع والتكسير. انهال يضرب (رذاذ صلبوخ) ضامر الجسد بعصا غليظة. . . لا ليست عصا، إنه عمود. جاءت ضربته الأولى فوق متنه الأيمن فلم يصرخ ولا اندلعت من حلقه (آخ) التي تنطلق تلقائياً وغريزياً كرد فعل طبيعي لمن يتلقى ضربة موجعة، فالجسد هو من ينوح. لكنه أناخ إلى جهة اليمين من أثر ووقع الضربة. استشاط الكاسر المتميز غيظا وهوى بعموده الخشبي بضربة مهلكة فوق العمود الفقري للسجين (رذاذ صلبوخ). كان صوت الضربة دفينا كامدا كأنه صوت حفر بعيد. . . بعيد في عمق كبد الأرض. كاد (رذاذ صلبوخ) يسقط متكوما على وجهه لكنه تماسك في اللحظة الأخيرة. المصيبة أنه لم يصرخ ولم يئن بل وحتى لم يزفر ويتأوه ليطرد من جوفه بخار القهر والغيظ لأنه أمر طبيعي في مثل هذه الحالات. دنوت منه أكثر وصار المشهد أمامي على بعد مترين فرأيت

الكاسر المهووس يضطرم حنقا بسحنته العوجاء وملامحه العكرة، رأيت زبدا أبيض على طرفي فمه وقد غادره الفرح الأسود. لمعت عيناه بومضة هزيمة متغطرسة كأنه مطعون في شرفه، شرف القتل بضربة واحدة فمن العار عليه ان يجعلها أثنين، ضربة واحدة فقط لا يثنيها. رفع الكاسر نفسه عاليا مع عموده الخشبي وكاد يهوي به فوق رأس (رذاذ صلبوخ) لولا تراكض وتدخل واحد من زمرته، كان يرتدي (تي شيرت) أحمر نصف ردن. الظاهر انه كان يتابع المشهد مثلي. أمسك هذا الكاسر من يديه وخاطبه بكلام لم أسمعه، ثم دفع (رذاذ صلبوخ) إلى مدخل الممر حيث الجملونات. فجأة أمسكتني كف رحيمة من رسغي الأيسر، التفت: انه صديقي عبد الحسين فرج. اخذني وجرني مهرولا إلى مكان قريب من برج الحراسة الشمالي، مكان تقل فيه احتمالات القتل والتكسير. بعدها أجلسونا فوق الأرض الحصباء تحت الشمس الحاقدة التي كانت تشوي على الرغم من أننا في شهر آذار. لا ندري هل سحلوا من قتل ومن تهشم ومن كسروا عظامه.

جرى تقسيمنا إلى نصفين حيث تم أختيار النصف الأول من قبل رجال الأمن والحرس و(سحاله)، الذي كان يرشدهم ويدلهم على رؤوس السجناء المشاغبين حسب رأي (سحاله). تفاجأ الجميع بـ (سحاله) إذ لم يشك به أحد مطلقا إنه: وكيل أمن (منافق) كان متخفيا طوال هذه الفترة إلا أنا فقد كنت أشك به وأتوجس منه لكنني لو كشفت شكي لهم لانهالوا علي بالضرب حتى الموت. تم نقل السجناء المشاغبين إلى معتقل (الرضوانية)الرهيب، الذي نقل لنا أخباره أحد السجناء بعد إطلاق سراحه: معتقل فيه تجويع مدمر مخطط له بدقة، ففي كل ثلاثة أو أربعة أيام يجلبون (قزان) طعام واحد فقط يتكوم فوقه أخوتنا سجناء الرضوانية بمنظر شنيع قاس. وكانت تجري لهم عملية العد (المسطر) وهم مصطفون

بطوابير طويلة، يبدأ العد ويحسبونهم بواسطة السيوف، أذ يتدحرج رأس صديقك السجين ويستقر أمام وجهك يحدق فيك بذهول غريب، ذهول من يعرف أن رأسه قد فارق جسده.. فارق الحياة بلا رجعة، عيناه تتوسل بك لاتعرف ماذا تطلب منك وفمه يغص بكلمة لا تخرج من شفتيه أبدا.

ثم أضاف ذلك السجين: ان (رذاذ صلبوخ) وجدناه ميتاً في زاوية لا يلتفت لها أحد فهو لم يأكل من قزان الطعام الذي يتعارك عليه الجميع، كان جالساً لا يتحرك ينظر أمامه حيث خط على الأرض جملة فوق التراب: الطيور الجريحة تختبىء بعيداً لتموت.

أما نحن النصف الآخر فبقينا في مكاننا في سجن الخاصة، يرشقوننا بالبصاق الأمني في كل صباح وننام في الليل على وسادة من العقارب.

نحن الآن في الساحة الكبيرة على نفس الجلسة لمدة ست ساعات تحت الشمس الساخطة، وهي تخزرنا مثل خزرات صور الدكتاتور بعيونه المبحلقة فينا، تخزرنا أينما ولينا وجوهنا. شمسنا العراقية أم الطغاة ومرضعتهم الحقودة. نحن تحتها جالسون كل هذه الساعات حتى تسلخت وجوهنا، وكنا إذا مسحنا خيوط العرق تتساقط ملامحنا في راحة اليد. قبل الغروب أدخلونا إلى الممر حيث الجملونات (الامان والظل والماء). دخلت الممر فرايت بعض السجناء أمامي يهمهمون ويشيرون صوب الحائط. وهنا رأيت أفضع المشاهد طرا في ذلك اليوم الشاخب بصوت العظام والرصاص. رأيت: عين (مرتضى الشوكي) ملطوشة على الحائط.. على جدار الممر.. عين مع قطرات دم تحدق بنا.. دخلت العين في عيني وأظنها ستبقى تطاردني وتراقبني دائماً وأبدا إلى آخر أنفاسي، وربما ستكون شاهدة قبري، هذا إذا وجدوا لي قبرا. عين تراقبني لئلا اسقط في فخ النسيان وأغرق في التفاهات اليومية. لا.. لا أعتقد ان

نسيانها، ستبقى عين (مرتضى الشوكي) ملطوشة على جدار الممر إلى أبد الآبدين وسوف ارسمها بحبر الكلمات. هذه العين ستفقأ بحر النسيان وتدخل من نافذته إلى سجن أبي غريب، الذي راح يتضخم يومياً ويكبر ويتمدد، يلتهم كل ما يصادفه مثل حيوان خرافي، سجن أبو غريب يبتلع المدن والقرى والغابات والصحارى والجبال حتى صار بحجم العراق، والسجان يضحك مهتز الكتفين مزهوا يلعب ويخشخش بمفاتيح السجن الممتد من زاخو إلى الفاو، يلعب بمصائر كل هؤلاء المسجونين داخل تكشيرته العظيمة.

استقبلنا سجن أبو غريب بالاحذية وودعنا بالرصاص والتكسير، إذ صدر قرار عفو عن السجناء بعدما وصلت عفونة الاستهتار بالإنسان إلى السماء السابعة وغطت الغلاف الجوي رائحة دسم المسلخ البشري فتذكرنا العالم واكتشفنا لأول مرة وجود منظمة اسمها (الدفاع عن حقوق الإنسان)زارت السجن بعد صراخ استمر عشرين سنة بشكل متواصل لم ينقطع يوما واحدا، صراخ أزعج سكان الأرض وحرمهم النوم الهنيء فراحوا يتناولون أقراصا منومة للتخلص من الصريخ الذي يذبح السامع من الاذن اليمنى إلى الاذن اليسرى، حتى أدمنوا على (الفاليوم) ولم يفارقهم الارق، وها هم اليوم يلتفتون لأول مرة صوب بلاد ما بين النزيفين.

هكذا رأيت البلاد كلها سجن أبي غريب وأنا أمشي في شوارع بغداد بعد قرار العفو، حيث تقضبن كل شيء: السماء قضبان، المدن قضبان، الشوارع قضبان، البيت قضبان. الهواء تقضبن والماء والتراب. الحب قضبان والزواج والاطفال وحتى الملابس ناهيك عن قضبان القفص الصدري وقضبان العقل والروح بل حتى صباح الخير قضبان والسلام عليكم والوداع وفي امان الله كلها تقضبنت. بين القبلة والقبلة آلاف القضبان. أمشي مسجونا بين قضبان بغداد أتنقل من شارع الجمهورية إلى

الرشيد إلى شارع المتنبي إلى شارع النهر، صادفت وجوها ضارية تحاول علسي بين أسنانها بلا سبب. أنا لا أعرف هذه الوجوه وهي لا تعرفني، بل أنا أراها للمرة الاولى. ودائما أنظر إلى وجهي في المرآة وأتساءل ما الذي يثير غضب هؤلاء مني فور رؤيتهم وجهي، هل تذكرهم ملامحي بعار أو خزي لا أعرفه أم بالعكس وجهي يثير حفيظتهم من شدة براءته وسذاجته. هذه الوحوه التي تحاول علسي هي ذاتها في السجن لرجال الأمن والسجانين لكن النظرات المفترسة تشبه نظرات بعض السجناء حينما كانوا يسموننا (خوارج).

وصلت باب الشرقي ورأسي ميدان صراع أفكار تتناهش في حلبة دماغي. هربت منها إلى ملابس (البالات) مستسلما إلى إغراءاتها التي أجد فيها لذة تشبه لذة الأطفال في مدينة الألعاب. اخترت بالة قمصان غصت بها أقلب وأعاين الالوان ناسيا سجن العراق وسجن أبي غريب، لقد امتصت (البالات) جميع همومي في هذا الجو الاحتفالي، شعرت بكف حميمة تربت على كتفي فالتفت اليها، أحتضنني فوراً صديقي (عبد الحسين فرج) صاهلا بضحكته كالعادة. لكنه صدمني حين قال: يابه والله العظيم اشتقت إلى السجن. يمعود هناك سجن حقيقي وهنا سجن مزيف، هناك أنت بصفة سجين أما هنا فأنت بصفة ماذا أنت من؟؟ هناك حرية أكبر وأوسع عكس هنا لأن العراق سجن هائل غير مرئي يحوي (١٨) زنزانة و(٣٠) مليون سجين. هنا زنزانة داخل زنزاننة بجدران غير مرئية لا تعد ولا تحصى وبلا أبواب وأقفال لكن الحدود كلها سور هائل مغلق يشبه سور أبي غريب. كل مواطن يشعر بسجنه اينما ذهب وفي كل مكان وزمان داخل جغرافيا السلطة، لكنه عندما يسافر ويخرج من رقعة نفوذها تبدأ أنهيارات الزنازين وسقوط السجون واحدا تلو الآخر. على العكس مني أنا فدائما أحطم زنزانة بزنزانة أخرى وهكذا أظل أحطم السجون من أجل سجون أخرى.

قلت له أنني قبل قليل كنت أفكر بوطن من القضبان. يبدو أننا قد اشتركنا بخط تفكير واحد مثلما كنا في السجن عندما نشترك نحلم بكابوس واحد.

رأيت شخصا يسترق النظر إلينا بريبة، يبرز رأسه ويخفيه بين زحمة رؤوس الناس في السوق. يتلصص وحين تصدم نظراتنا يصد إلى مكان آخر. لعبة قديمة بالية مللنا منها نحن المساجين، فلا داعي للخوف ولا للرعب: انها لعبة رجال الأمن وهذا واحدا منهم. قلت لـ (عبد الحسين فرج) هناك رجل أمن يراقبنا.. أفلت صديقي لنفترق ونلتقي أمام سينما غرناطة. وذهب كل منا في أتجاه، وإذا برجل الأمن يمسكني من رسغي وهو يقول: أنت مو ثامر؟ تمعنت بوجهه فتذكرته وقلت له: أنت مو خالد؟

تبين أنه (خالد) ابن عمي تركته صغيرا عندما هربت إلى إيران ولم نلتق إلا اليوم. ذهبنا معا إلى سينما غرناطة فاندهش (عبدالحسين فرج) حين رآني أضحك مع رجل الأمن. قلت له: طلع مو أمن... هذا خالد ابن عمي قشمرنا بخزرته. فراح يضحك صاهلا وهو يقول: صار العراق معتقلا والأقارب رجال أمن. ثم ألتفت إليّ وقال: أكثر شيء أشتقت له هم السجناء برجولتهم واخلاقهم ووعيهم عكس الموجودين هنا في السجن الكبير حيث الانهيار التام للأخلاق حتى الاحترام صار مذلة والتحية (السلام عليكم) صارت اليوم إهانة للنفس. لم أكن أعرف ان الواقع بعد الحصار قد انقلب مثل فردة حذاء قديم عتيق منكفئ على مصيره الغاشم. صديقي ثامر إذا لم ترتدي قناع الضواري المفترسة تصير لقمة ضائعة بين الانياب، اقلب سحنتك إلى مفترس جلف ولا تدع منفذا مفتوحا بوجهك تطل منها البراءة والحميمية والمودة، أغلقها بسحنة العبوس والصرامة والصلف. ألبس على وجهك قناع فأس. سوف تقابل وجوه أكلة لحوم

البشر تتلامض للانقضاض عليك فوجدك يزاحم ويضايق وجودهم. احذر لا تنظر إلى أحد فهو لا يتردد بفقأ عينك. يا صديقي أقلع ابتسامتك من وجهك واخفي المرح فقد تصادف وجوه معوجة مشمئزة حقودة تتضايق من مجرد انك جلست إلى جانبه في السيارة، طبعاً هو لا يتزحزح قليلاً ليوفر لك حقك من المقعد. وسوف تصادف نفس هذا السلوك في الشارع عندما يقابلك شخص تتجادح عيونه شررا من الحنق والسخط والغضب كأنه تلقى بصقة من بالوعة توا لأنها شمت فيه رائحة أنتن من جوفها، أو كأن السماء ذرقت فوق رأسه لأنه يقلد السفلة وطموحه ان يكون مصاص دماء، تحمل هذا الشخص وأمثاله فهو أما يدفعك بكتفه أو يزيحك بيديه حيث لا يتنازل مطلقا عن الانتقال وأفساح الطريق لك كي تمر، وإذا نظرت في وجهه سوف يصفعك بسؤال شرس فيه رنة شجار: ها شبيك تباوع.. امشبه.. يلا.. يلا اشطح.

فعلاً صادفت الكثير من هذه الوجوه ولم أفطن بأن الحصار العالمي وحصار السلطة قد أكلا أخلاق الناس واحترقت ملايين الضمائر فقد تهين الخنزير إذا شبهتهم به. تسافل المجمتع إلى حد خطير ومرعب، فالبارحة رأيت امرأة تنتحر مع أطفالها الثلاثة فوق جسر باب المعظم. كنت وقتها ذاهبا لرؤية الطفلة ابنة الحارس (قيصر) الذي يعمل مع أخي (عامر) الحجي ابو ليث في تجارة اطارات السيارات على طريق معسكر الرشيد. لقد سرقوا كلية الطفلة في مدينة الطب وهي تعاني الآن من مضاعفات السرقة، فقلت مع نفسي لأذهب وأرى بعيني آثار سرقة كليتها.. أرى الجرح الذي خلفته العملية الجراحية في السرقة.

صعدت الجسر توا، ليته سقط وانخسف ولم أشهد هذا الانتحار، لماذا هذا التوقيت اللعين: في ذات اللحظة يبرز رأسي مع أنحاءة الجسر وأرى الام ترمي طفلها الرضيع الذي تحمله إلى النهر وتتلقف ابنها الصغير

الآخر الذي يمشي ويتعثر وهي تمسكه بيدها اليمنى. رفعته ورمته لكن طفلها الثالث الكبير هرب بعدما رأى جنون أمه. ركضت وراءه وامسكته فظل يتملص منها ويرفس لا يدري المسكين ان قوة جنونها اكبر وامضى من كل قوة في الكون، وها هي ترفعه وتقذفه في دجلة ثم صعدت السياج وقفزت وراءهم تحلق بعباءتها مثل رغيف الحصار الاسود فوق شط المنايا.

برمشة عين اكتظ الجسر بالناس سوف يبتكر كل واحد منهم قصة للانتحار، بعضهم ممن لم يمسخه الحصار قفز إلى الشط لعله ينقذهم. أما أنا فقد سمرتني الصدمة وعقلي يكذب ما تراه عيني ويحيل الحادثة إلى لقطة في فيلم أو إلى مجرد كابوس.

ودعني (عبد الحسين فرج) وهو يصهل ضاحكا ويقول: لو ضيعتني فستجدني عند بالات الملابس. تركني فريسة لضواري الحصار وهو لا يدري كيف ملختني ودمرتني قصة أطفاله مع العجين: أبوهم (عبد الحسين فرج) يأتي يومياً للبيت قبل الظهر بكيلو طحين اسود كنوايا الحكام. تعجنه أمهم ثم تخبزه لكن أبوهم تأخر قبل يومين إلى ما بعد الظهر وجاءهم بكيلو الطحين الاسود فعجنته الام وراحت تهيء التنور لخبزه، لكنها أرتعبت وانشل لسانها حين أختفى العجين. نظرت إلى أطفالها وجدتهم ملطخين بالجوع. قال لي (عبد الحسين فرج): ان منظر أطفالي وهم ملطخين بالعجين جعلني أرى المستقبل الاسود الذاهبون نحن اليه.

واكتشفت اليوم من (خالد) ابن عمي بعدما أرعبنا بنظرات رجال الأمن عندما قال: زوجتي حامل. ونحن نبيع كل قطرة من بولها بـ (٣٠٠) دينار لأن هذه قطرة البول تأخذها أي امرأة إلى مختبرات التحليل ويعطوها تقريرا بأنها (حامل) فتستلم العائلة الطحين الابيض بكل قطرة بول.

برعب أدركت ان الجو المثالي للتدود راح يتشكل فقد صار عدد المجرمين أضعاف عدد الطلاب. واشم في الهواء دسم الجريمة، هذا يعني تفشي وباء الدود في أجساد المجرمين للقضاء عليهم.

هكذا كنت أفكر أثناء رجوعي للبيت متمنيا عدم مجيء رجال الأمن لأستدعائي إلى مركز الشرطة، لقد صارت الاستدعاءات أسبوعية بعد أن كانت شهرية، فقد كنت أبتلع اهانات رجال الأمن بشهامة لا نظير لها. كنت أفكر: كيف ان العالم أدار وجهه عنا، وكيف عافنا الله وتركنا نتخبط بصنان الذل والجبن. تروكونا مسمرين على مزابل مصيرنا الغامض ومن حولنا تجوس ذئاب الرعب. لدينا دكتاتور مجبول على القتل والجهل يضع كل طغاة الأرض تحت أبطه النتن. هو يختنق من رائحة كلمة الحرية ويتنفس بعمق وانشراح في مناخ الكوارث. لقد بنى عش الدكتاتورية من الجماجم وشعر الشوارب، وكلنا نرتجف هلعا من ان يبييض ويفرخ دكتاتوريات صغيرة قد تكبر في مستقبل أيامنا الآتية. ان مرض البعث قد انتشر وحلت لعنة الانعواج حيث تبدأ الوجوه المصابة بداء البعث بالعوج والسعار. لذلك أخشى من عدوى التباغض حين يكره واحدنا الآخر ويود الانتقام منه وسحقه لأتفه الأسباب. قلة منا تحصن ضد داء البعث فلم يحتقر الحياة ويكون مشروع استشهاد لكل من هب ودب، ولم يفقد ذاته فلا يردد كالببغاء نعم نعم ولالالا. بل يعرف متى يقول نعم ومتى يقول لا. ولم يكره وطنه كحال المصابين بداء البعث. كم أرتعب ان يستشري فينا فيكون هناك الكثير من البعثيين وان لم يتمموا، وبعثيون حتى وان كانوا ضد البعث عندما تسود أخلاقه وسلوكه على الجميع ويصير مثل الأمر الواقع أو القدر فيلبسون الاقنعة ذاتها ويتصرفون بوسائل البطش ذاتها. وتبدأ ملامحهم وسحنهم تتشكل من وجوه أعدائهم. فيصبح الجلاد والضحية في خلية واحدة متشابهين بشكل خطير حتى يتوهم الكثيرون

بأنهما توأم. صحيح ان الشعب مسجون في بسطال الدكتاتور، لكن البلوى والخوف هو الادمان على السجن والبحث عن دكتاتور جديد حال سقوط هذا الطاغية.

في جميع الأحوال نحن الخاسرون فقط، صدام يقتل أطفالنا بشتى الوسائل ليحرج الرأي العام والامم المتحدة وبالذات أميركا. فهو يجيد بذكاء عمليات المتاجرة بنا لإدانة أميركا. والمصيبة ان أميركا تضيق عليه الخناق ليبطش بنا كي تفضحه وتكشف عورته أمام العالم حين تلعلع جرائمه في آذان السماوات والأرض. تلعلع الجرائم ولكن بنا نحن، فدائما دائماً نحن الخاسرون وهم الرابحون.

وصلت إلى باب بيتنا وأنا أرتعد هلعا لا أدري ممن، هل أرتجف من مجيء رجال الأمن إلى بيتنا، أم أرتجف لأني تركت ورائي جثة بلادي ينهش بها شعب الدود الجائع الذي لا يشبع أبدا. دود بلا ذمة ولا ضمير نأكل بلادنا وذرة وذرة، ونتغوطه يومياً حيث كل واحد منا فخور بزربته الطازجة، فهل ينبعث وطن جديد من مصاريننا؟

الفصل الثامن

اسكندر



اسكندر

بموت (ولادة) صار عندي كسوف كلي وخربت الدنيا مثل هشيم الزجاج تناثر نابتا في لحم حياتي. انقلب كل شيء وانهار حتى ان الحياة فرغت من أية قيمة. موتها خيانة لي وغدر لحياتي، فقد غدا الطعام ماسخا والماء ماسخا والنوم ماسخا بل حتى الهواء الذي أتنفسه ماسخ. فقدت كل الاشياء طعمها وهجرت نفسي بلا رحمة. ما كان يخطر ببالي كل هذا الفراغ الموحش بموتها، وما كنت أعرف انها تحتل كل هذا الفراغ الذي نط علي وكشر بوجهي مثل قبر فاغر موحش. لم أقدر اهميتها في ملء كياني إلا بعد فقدانها، (ولادة) كانت العافية والامان بعدها صارت حياتي مشنوقة بحبل الوحشة، حياتي ترفس وترفس إلى ما لا نهاية، وها أنا اليوم أرفس بحبل يضيق وأختنق. قتلني ألف مرة هذا الجندي الاميركي السافل عندما قتل (ولادة). لا أخاف على حياتي بعد اليوم ولا أتخفى من مكان إلى آخر، لماذا أخاف من القتل وأنا ميت. رجعت إلى الجريدة منطفئاً ساخطاً أشتعل مرارة وكأن دم (ولادة) ملصوق بسقف حلقي فأكتب ناقما على كل شيء خاصة المجاهدين السفلة والجنود الاميركان القتلة السفلة.

صرت أتنقل بحرية مثل شبح بدون خوف ولا حذر ولا توجس، اتنقل من البيت في مدينة (الحرية) إلى الجريدة إلى بيت الحجي في الوزيرية أضافة إلى بيوت الاصدقاء، الذين راحوا يوبخونني على هذه االلامبالاة والاستهتار بحياتي فقد كنت أهيم على وجهي في شوارع خطرة مرعبة لا يدنو منها شخص عاقل، أنا لا أهاب ولا تخيفني كل وحوش القتلة وكل

أسلحتهم. عندي إستعداد لاختراق جهنم بغداد طولا وعرضا والغوص في ليلها الاجرب. أصدقائي المساكين لا يدرون ما حل بي بعدما حطم الجندي الاميركي نافذة الأمل.

لقد لعب (ثامر) دورا كبيراً في امتصاص نقمتي وعذابي، وحاول التخفيف من ألمي وحزني بتخفيف الصدمة ومحو آثار دم (ولادة) من روحي بعدما لفني أخطبوط اليأس وراح يرتشف ويمتص كل قطرة أمل بعيدة ومنسية لم تنوشها أذرع الواقع الخبيثة. وبقيت أندب وجودي كله: قضيت عمري مبحرا في زورق بلادي. قضيت عمري يوما بعد يوم أسد هذا الثقب وأركض لشد وتثبيت الشراع. في كل مرة أعاين بها الزورق أرى ان الثقوب في ازياد مطرد. وأركض، أسد وأطم لاهثا اتنقل من ثقب إلى ثقب خوفا على البلاد من الغرق. لم أتعب ولم أتذمر فأنا لم أحترق بنار اليأس مثل الكثير من الناس. بقيت أخفي كل هذا الشقاء والركض واللهاث منتظرا سقوط صدام لأرى كيف يهب الشعب في سد الثقوب وتصليح كل عطب وتنصيب شراع جديد. لكني انصدمت وانصعقت بعدما سقط صدام فوجئت بالشعب ينبش الثقوب التي أصلحتها ويخرب كل ما نزفت من أجله روحي ويهزأ من شقائي وأملي. رأيت الشعب يثابر بجهل وطمع ورعونة إلى احداث وصنع ثقوب جديدة. راح يجاهد ضد نفسه، واليوم الكل سيغرق ولن ينجو أحد.

لكن (ثامر) كان يواجهني ويبدد كوابيسي ويذهب بي بعيداً في نقل الصراع من الذاتي والشخصي إلى العالمي والكوني خاصة وهو يفتح باباً جديداً للخلاص بواسطة الدود فقال لي:

ـ ان المجاهدين السفلة والمجرمين والقتلة هم خلايا فاسدة ومتعفنة في جسد الطبيعة، وحين تتعفن الخلايا تستجلب الدود الذي يهب سريعا ويدب نحوهم لينظف البيئة البشرية من قذاراتهم. وها هي الطبيعة تطرد المجاهدين السفلة/ الخلايا الفاسدة المتعفنة تطردهم من جسدها لكي

تتطهر وتشفى من حتمية تضخم الاورام السرطانية. أنا أعول اليوم كثيراً على الدود فهو العلاج الوحيد.

ثم فاجأني وهو ينظر في عيني مباشرة وقال: لقد رأيت (روضان)... لا بل هو من وجدني عندما دخلت إلى شارع النهر لتحذير أحد أصدقاء أخي الحجي (ابو ليث)، نحذره من اختطاف محتمل هذه الايام سواء له أو لأحد أطفاله لأنه تاجر حقائب معروف في الشارع.

خرجت إلى النهر فوجدته خاليا موحشا تفوح من المكان رائحة زنخ الشط مخلوطة مع رائحة نتن جثث غير مرئية. جلست على دكة اسمنتية أحدق بنهر دجلة كيف ينسل هاربا يتختل بين أمواجه مرعوبا من رمي الجثث فوقه وكيف سيحتار بها ويقلق أين سيأخذها ويلقيها وفي أي مدينة سوف يسلمها. صار النهر مركبة لنقل الجثث ومقبرة مائية، يجري بسرعة يتلفت خائفا من كلاب بشرية مسعورة تنبح على ضفافه... شعرت فجأة بشخص يجلس قربي على الرغم من خلو المكان والدكات الاسمنتية فارغة. اقترب أكثر مني وهو يقول:

ـ وقت من النمنم يسيل على شيخ يبيع مسجده عند شجرة القمل بعدما كشف داود الهول في علة وجود الدود.

التفت أحدق بوجهه متطيرا فزعا غير مصدق عيوني وما أرى، انه وجه (روضان) كما تركته في سجن (زندان قصر). عرف تلعثمي واستغرابي منه فقال لي: أطلق علي ما شئت من الاسماء، طيف، شبح، الميت الحي، البرزخي الهائم مع حشود البرزخيين.

انهمر (روضان) يروي بصوته المغدور المكروب يطحن عظام السامعين لوعة واشفاقا وحسرة على صاحب الصوت. روى لي كيف شنقوه بطيش وخفة تشبه طيش ومهزلة المحكمة التي كان القاضي فيها يشرب الشاي (دشلمه) ويخابر كلما رن جرس التلفون. ولا يصغي لي

أحد لا في المحكمة ولا أثناء تنفيذ الإعدام وأنا أصيح: من قتل نفسا بريئة كأنما قتل الناس جميعاً.

لم أتيقن فعلاً من وجود (داود) حياً إلا بعدما صحوت من موتي. حينما شب بي حريق البحث عنه منذ تلك اللحظة وحتى الآن، فلم أتذوق طعم سعادة الموت كل هذه السنين.

ثم أضاف وهو حائر يتوسل بالكلمات ان تطيعه وتخرج بسهولة من فمه وهو يقول:

ـ ربما لا تنصدم ولا تتفاجأ إذا قلت لك أني رأيت أخاك (فاخر). صادفني ولم يفارقني عندما سمعني أسأل عن (داود)، رأيته يحمل الكيس ذاته، كيس الزبالة الذي وجدوه فيه مقطعا في مدينة (اسلام آباد). لكني لم أصادف شخصا مرحا بلا افتعال ولا صخب حتى وهو بهذه الحال، فقد رأيته ينز دما من كل مكان في جسده، ومن كثرة حبيبات الدم كأنه مصاب بالحصبة. أعرف سوف تسألني يا (ثامر) لماذا لا يريد رؤيتي أو لماذا لا يريد ان تروه.. أخوك (فاخر) من شدة حبه لكم يريد ان يبقى حياً في قلوبكم بصورته القديمة كي لا تتشوه بصورته الآن، يريد ان يبقى حياً كما هو سابقا في قلوبكم وذاكرتكم. ويقول: صعب عليهم ان يروا (فرانكشتاين) هو أخوهم...

سلبني (روضان) حاسة النطق وهو يتفايض يبكي من فمه الكلمات والجمل، بصوته الموجوع يشرق ويغرب وأنا لا أفهم شيئاً مثل الاطرش بالزفة. يحكي عن عوالم وكوارث ومعجزات لم أسمع بها وما خطرت على بال حي يتنفس. تلقفت بعض المقاطع والجمل من كلامه مثل: ان الطبيعة التي منحها الله غريزة البقاء تتفانى بالدفاع عن نفسها بعدما عبث بها الإنسان بطمعه وخسته وتهوره حين راح يهدم بيته الذي يأكل منه ويشرب ويتنفس. هنا اتخذت الطبيعة وسائل دفاعية وانتقامية لأجل البقاء. من يصدق ان ثقب الاوزون سيجبر البشر إلى مراجعة وانتقاد تطورهم

التكنولوجي وحضارتهم التي يعدونها من أعظم الانجازات الكونية؟ من كان يصدق نشوب أمراض وانتشار أوبئة ظلت مجهولة مثل الطلاسم كمرض جنون البقر وانفلونزا الطيور ومرض الآيدز مع كوارث واعاصير مثل تسونومي، وقبل ايام انتشر وباء انفلونزا الخنازير وهاهو وباء الدود قد بدأ اليوم.

مع الاسف يا (ثامر) ان العالم موبوء بتصديق القوي وتكذيب الضعيف، موبوء بتقديس المجرم القاتل وإدانة وتدنيس الضحية المقتولة. والبشر الأغبياء تصوروا ان الطبيعة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فكل هذه الكوارث والأوبئة والأمراض هي إنذارات للبشر وصيحات استغاثة لكنهم حمقى لم يفهموا كيف يستلمون تلك الرسائل ولا الاشارات. وها هي الطبيعة بعدما يئست في الخلاص من المجرمين الذين يقودون العالم للفناء، هبت للدفاع عن الكون وكان علاج المجرمين هؤلاء هو الدود.

أخذني (روضان) بصوته الدامع الموجوع إلى مجاهيل أراض لم تطأها قدم بشر، يخوض بي في زورق لسانه الذي يسيل كلمات وجمل منقعة بالدمع، يخوض وهو يدشن عصور جديدة ويفتح مغاليق مياه اقشعرت من ملامسة جسدينا فهي لم تصافح وتلمس جسدا من قبل.

رأيت ثلاثة طيور فواخت تحلق فوق النهر عابرة للمجهول. قلت له وأنا أحدق بالفواخت: يومياً أرى عشرات الطيور ولكن صورة هذه الفواخت الثلاثة ستبقى عالقة بذهني لتزامن مرورها بوجودك وانت تتفايض بشلالات كلماتك. كما ان الفواخت سترتبط بحالتي العقلية والروحية وأنا أغامر للانعتاق والسفر بعيداً داخل نفسي وخارجها. إذن الفواخت الثلاثة هذه انتزعت من نهر الزمن هذا الوقت ومن لحم المكان هذه القطعة حيث أنا واياك سوف ننقش وجودنا في ذاكرة الأرض.

التفت إلى (روضان) فلم أجده. لقد أختفى وتلمست مكانه قربي فوق الدكة، كان دافئاً تفوح منه رائحة زنخ الدمع.

انتبه (ثامر) لوجودي وكأنه عاد لنفسه بعد غياب رحلة برزخية لا يعرف كم طالت. وأدرك انه صار مثل صديقه (روضان) فقد سلبني حاسة النطق يشرق ويغرب بكلامه واخذني حاصل فاصل، لكن آخر كلماته بقيت تدوي في طبل رأسي:

- لم يبق سوى أمل واحد لانقاذ العالم، هو أملي بالدود.

لقد تعب (ثامر) معي كثيراً في التخفيف عني ولكن ها هو وجه (ولادة) يطاردني وأنا أخرج من الجريدة كأنه ملصوق على بؤبؤ عيني، اينما أدير رأسي يدمي قلبي. لا أعرف أين أهرب من موتها؟ امشي برأس ثقيل وصدر منخوب مثقوب بذات الرصاص الذي بعثر جسد (ولادة).

رأيت سائق سيارة (برازيلي) تكسي يدفع بها وحين رآني استنجد بي ونخاني بمساعدته في الدفع لعلها تشتغل ويذهب إلى (الفيتر). رحت أدفع السيارة من الخلف والسائق من باب الصدر المفتوح. برمشة عين خرج ثلاثة مسلحين من خلف جدار مهدم. ضربني أحدهم على رأسي ولم أفقد الوعي، ورأيت كيف سقط مني قلم الجاف الذي أنقذ حياتي من صلية الرصاص قرب كراج باب المعظم. بقيت أحمل هذا القلم منذ تلك اللحظة المشؤومة كتعويذة تحميني من كل أصناف القتل ومشتقاته ابتداء من السيارة المفخخة وحتى رصاص الاغتيال.

ضربوني ولفلفوني داخل صندوق السيارة فشخطت بسرعة تنهب الشوارع إلى مكان ساعرفه قريبا وأنا اردد مع نفسي بأن الوضع الامني قد تحسن.

العجيب ان الوضع الامني تحسن مباشرة بعد قتل (ولادة) وكأن الدنيا والبلاد والقدر كانوا بحاجة لموتها. كل هذه السنوات وهم ينتظرون مقتل (ولادة) لكي يتوقف النزيف وتخمد نيران الفتنة. هل ان (ولادة) أضحية

بشرية معاصرة لانقاذ البلاد من الهلاك والزوال، هل ان موتها استمرار لعقيدة الاضاحي التي تنقذ العالم من الفناء؟

تحسن الوضع بطرد المقاومة من قبل مقاومة المقاومة، عندما فز الناس من الأوهام فوجدوا أنفسهم غارقين بدماء أخوتهم حتى الخاصرة.

تحسن الوضع بموت (ولادة) وبخطفي معلوسا بين فكي المجاهدين السفلة، لا أعرف بأية لحظة تنطلق صيحة (الله أكبر) ويسقط رأسي بين يدي. ان هذه الرواية بهذا الكتاب ما هو الا رأس مذبوح على دكة التاريخ يسرد أحداث عصرنا الآن. لكن ذبحي صار أمنية عزيزة بعدما هددوني بالاسكافي. هذا الكائن الاسطوري والخرافي من شدة واقعيته قد سكن وتربع على عرش عقلي فلا أفكر بأحد غيره، واستنزف كنوز خيالي وأنا أدخل في مناخ محله الذي يشتغل فيه (على باب الله) حيث أرى عشرات الادوات والآلات والمعدات وأجهزة يستخدمها في تصليح الاجساد البشرية. أتخيل شكل وجهه وملابسه ولحيته التي تشبه حذاء أبي القاسم الطنبوري. لقد فرى قلبي وتوغل بعيداً هذا الاسكافي وراح يجوس تلافيف روحي.

سابقا كان خيالي اللعين يسوقني لرعب الدفن في مقبرة جماعية: يهيلون علي التراب الرطب ويلتصق بي كصخور من الصمغ. المقبرة ساكنة جافلة كأن قطرة دم سماوية سقطت فوق ظلامها السامت. اهالوا التراب اللزج علي ومضوا لكنني صحوت حالما أقفلوا علينا سقف المقبرة بالتراب. دبت بي الحياة صاخبة تلبط في دمي. الآن بعد دفني فززت من جيثوم الموت، أحوص تقيدني حبال الطين اللزج. أتنفس بلا هواء، اختنق ويطم فمي انفي رغوة تراب جاحد. أمزق بيدي جسدي محاولا استنشاق الهواء المحبوس في فقاعات التراب. لم تستفزني بطولة كافية لكي أفتح عيني وأرى نفسي أين. يقيدني ضغط الأرض كأنني في أعماق قلب

الأرض. لا جدوى ولا حيلة عندي في التحرك والتقلب يمنة ويسرة. تركت نفسي هكذا أذوب سكران حتى الثمالة من شرب الرعب.

والان تحقق رعب خيالي اللعين، وها هو موعد الاسكافي يقترب وأنا أراه كيف يدق المسامير تلو المسامير في جسدي. يريد تصليحي من مسلم مرتد إلى مسلم صالح قويم. سوف يملأني بالثقوب السود، فمن شدة هلع الدم يتحول اللون الاحمر فوراً إلى الاسود، حتى يغص جسدي بالثقوب السود: فوق ظهر قدمي وفي عظم الساقين ثم الركبتين ونهاية الفخذين في عظم الورك. ثقوب في كفي من باطنهما وفي الرسغين والمرفقين، وثقبين في زندي ثم في عظم الكتفين. لا أدري هل سيحفر ثقبا في رأسي مثل ثقب الاوزون أم يتركه سالما يتعذب وهو يرى ما حل به ويجن من كثرة الثقوب في زورق جسده المبحر صوب الموت، لا ربما يقطع رأسي ويخيط بمكانه رأس حمار أو كلب.

نعم سوف أموت مثل مئات الجثث الطافية في نهر دجلة، أنا لا أختلف ولا أشذ عن عقيدة القاعدة فأني مقتول مذبوح وسوف أنضم إلى جوقة حشود البرزخيين، هذه القافلة التائهة الهائمة من الضحايا، التي تزداد وتكبر كل يوم بقتلى جدد. سوف ينبشون الأرض شبرا شبرا بحثا عن القتلة عن المجاهدين السفلة، فلا تغمض عين لهم إلا بموت القاتل.

تذكرت أمي هنا وأنا بهذه الحال، أنتظر سوقي إلى الاسكافي. تذكرتها كيف تهين نفسها وتزجر روحها على قوة تحمل المصائب والأوجاع وتبقى حية عنيدة صلفة لا تهمها ضربات الكوارث والفواجع، فتقول عندما يطبق عليها وجع الصداع النصفي وتصيح ساخطة على نفسها: هجم بيتج يا روحي شكد عزيزه.

سمعت رشقات رصاص بعيدة تقترب وخطوات تتراكض هنا وهناك.

شممت رائحة شواط ودخان ثم جفلت من صوت انفجار قذيفة. أنا أتلفت مثل الاعمى داخل الكيس صوب مصدر إطلاق الرصاص. سمعت أصوات سيارات تقترب مني وشعرت بوجود ناس كثيرين من خلال لغط كلام عصبي موتور، كلام خليط بين اللهجة العراقيةو اللغة الانكليزية. سمعت صيحة فرح مستبشرة: هذا مخطوف بعده حي.

رفعوا الكيس من رأسي وعرفت ان قوة مشتركة من الجيش الاميركي ومغاوير الشرطة والصحوة هجموا على وكر المجاهدين السفلة في مزرعة قريبة من (عقرقوف) في منطقة أبي غريب. يا للمفارقة الجرباء حين يقتل جندي أميركي حبيبتي (ولادة) وينقذني من الاسكافي جندي أميركي آخر، من يدري ربما يكون نفس الجندي.

أخبرني أخي (قيصر) بأن بيت الحجي في الوزيرية احترق برمته ولم يعثروا على أي شيء أفلت من النار. تحولت محتويات البيت إلى رماد أسود. وأنا لا يهمني أي شيء سوى كتاب الدود، الرواية التي جعلتني قاسيا وساديا أتقدم ببطء داخل نخاع الوجع، جعلتني الكتابة الدموية ان أتوغل بعيداً إلى حافات وتخوم الالم بلا أدنى شفقة ورأفة.

إذن احترق التاريخ السري لمعجزة الدود في انقاذ العالم. كم أردت بعد مصيبة اختطافي ان أجري تعديلات حاسمة فقد استجدت آراء وأفكار جديدة. أردت اضافة وحذف بعض المقاطع والسطور والجمل لكي تتلاءم وتنسجم مع حكايات الرؤوس الثلاثة التي جعلتني أتبول على نفسي كلما أسمع صيحة (الله أكبر) مع كابوس الاسكافي.

المصيبة ان أوراق (ثامر) ومذكراته احترقت أيضاً ورسائل (روضان) كذلك. لم يبق أي أثر لقضية الدود.

في بيت الحجي المحروق التقيت بـ (ثامر) وجلسنا في الحديقة المتفحمة في خلفية البيت تحت أشجار سود تئن مع كل هبة ريح. حكى

لي كيف صادف (سيد علي) أبا النمنم بصحبة شاب في العشرين من العمر. أخبره (سيد علي) عن إعدام (روضان) وكيف انقلبت الدنيا ترشق طهران بزخات مطر ساخط طوال سبعة ايام لم تشرق الشمس خلالها أبداً. كان يهز الجبال المحيطة بطهران صوت رعد حانق وصفير ريح تخترق الأشجار فتصدر صوتا يئن موجوعا وهو يجوب الشوارع ويدور حول البيوت، ما جعل الناس تخرج من بيوتهم برغم سخط زخات المطر، خرجوا ينوحون ويلطمون كأن الدنيا تحكي لهم قصة قتل البراءة في إعدام (روضان).

يقول (ثامر) سألته عن الشاب الذي معه فقال مبتسما وقد ملأ وجهي برذاذ لعابه وهو يتكلم:

ـ هذا (سليم) ترك أمه الارملة في البصرة وجاء للتطوع إلى الشرطة، فهو من أم عراقية وأب يحمل الجنسية العراقية قتلوه في مشاجرة بالسكاكين أمام سينما (انقلاب) في طهران عندما كانت أمه حاملا به. جاء للتطوع ومحاربة المجاهدين السفلة.

ثم همس لي بعدما أخذني بعيداً على حدة:

ـ ربما سيقتل هذا الابن أباه المجرم الدولي ويخلص البشرية من شره.

رفع (ثامر) رأسه نحو الأشجار وقال: لم يحترق قلبي كثيراً لاحتراق مسودة كتاب الدود وأوراقي ومذكراتي ورسائل (روضان). لكنني أحترق وأركض مشتعلاً من جليد النسيان وتراكم طبقات ثلوج جديدة فوق وجوه: سعد استقلال، كريم الصيني، رذاذ صلبوخ، مرتضى الشوكي، كاصد وجليل ووووو وجوه السجناء في أبي غريب وبقية المعتقلات، ووجوه المعدومين. يا صديقي اسكندر لابد من العثور على ثغرة في الزمن وثقب في المكان، نتسلل منها إلى ذاكرة الأرض ونكشف جماجم وعظام من قتلوا ومن دفنوا أحياء في مقابرنا الجماعية، لكي نهبهم اللحم والدم

ويعودوا للحياة يقصون على الناس حكايات دمهم الذي ضاع تحت غبار الصحراء التي تتقدم نحونا بعواصف رملية مسعورة لكي تمحو آثار دمنا وبصمة وجوهنا.

البارحة شعرت بأن جليد النسيان بدأ يتكسر، كما يقول (ثامر)، ويذوب عندما كنت أتصفح مواقع الانترنيت وعثرت على شيء لا يصدق ولا يخطر على بال أي منا. وجدت موقعا اسمه (الدود) فانتشلني من بركة اليأس، واكتشفت بأن حزاما أخضر من الأشجار اللامرئية تقاوم الصحراء المسعورة وتصد رمال المحو. دخلت إلى الموقع وسحرني القصر الغامض المرعب لموقع (الدود) حيث ندخل من باب لباب ومن نافذة لأخرى وشبابيك نطل منها على أسرار تلو الأسرار. كما وجدت تحت القصر أقبية وسراديب فأثارني عنوان مقال اسمه (الدود والشذوذ الديني).

ناولني (ثامر) نسخة المقال ونهض يودعني خارجا من البيت المحروق. وأنا بقيت أقرأ تحت الأشجار السوداء يذري فوقي السخام والهباب مع دفقات الرياح. أقرأ وأضحك واندهش كيف عرف صاحب المقال الذي وقعه تحت اسم (سيمو تاليتا) الذي بدأ هكذا:

المعروف في الوسط الشعبي ان المنيوك أو المليوط به في مفهوم الشذوذ الجنسي يدمن على المني. حيث ينتج في مؤخرته (دودة) من كثرة وتنوع قذف المني. هذه الدودة تتغذى على السوائل المنوية (ماء الرجال). فكلما يقل منسوبها تريد الدودة هذا الغذاء، لذلك تظل تنبش وتقرص (صرم) المنيوك. تعذبه كثيراً في نبشها والبحث عن طعامها فيلجأ الشاذ (المليوط به)الى البحث عمن يمارس معه اللواط لكي ترتاح دودته وتكف عن أذيته في النبش. وهكذا صار المنيوك الشاذ يلقب بـ (الدودكي)أو (ابو دودة).

المهم ان (الدودكي) مثل المدمن على الهيروين، يتعذب أقسى أنواع

العذاب أثناء محاولة الاقلاع عن الادمان. فالقاتل المجرم يتعذب إلى حد بعيد أكثر من (الدودكي)وأكثر من المدمن على المخدرات لأن دودة الدم تجعله أشد تعلقا وادمانا على الدماء. الدودة الاولى تفقس في دماغ القاتل وليس في (الطيز)كما عند المنيوك العادي. بعدما يقترف القاتل جريمته يدخل دم الضحية المقتول في عيني القاتل ويذهب مباشرة إلى دماغه، وتدخل أنفاس المقتول الأخيرة عبر الشهيق إلى دماغه من خلال الرئتين. كما تدخل أصوت الحشرجة وشخير اختناق المقتول وتأوهاته وبعض الجمل الممزقة والكلمات المفككة إلى أذني القاتل ومنها إلى الدماغ. وهنا في الدماغ تحدث الانقلابات الكيمياوية بعد عملية القتل وموت الضحية فينتج خلال أيام قليلة الدود، الذي يبدأ بالبيض والتكاثر مع كل جريمة جديدة حتى يغزو جميع أعضاء الجسد. هذا القاتل منيوك بأكثر من مكان وليس من (طيزه) فقط. بل هو منيوك في عقله ومنيوك في قلبه، ومنيوك في جميع حواسه. إذن ان كل عضو من أعضاء جسده منيوك. لذلك لا يمكن مقارنة المنيوك العادي المسكين البريء من جرائم الدم بهذا المنيوك القاتل المجرم، لأن هذا منيوك حتى في ضميره، ولذلك هو يلبس قناع الدين لسد هوة النقص في شخصيته. كما يدعي انه مجاهد لتمويه بشاعة انحطاطه الروحي والاخلاقي. كذلك ان أحط واسفل المجاهدين الدودكية هو المجاهد الانتحاري، هذا الذي يئس تماما من علاجه وشفائه من وباء الدود، إذ يتصاعد في (طيزه) النبش إلى الذروة فيصل إلى دماغه وقلبه، حيث يلتهم الدود خلايا الدم ويفترس نخاعه فلا يقدر المتدود على العيش ولا يطيق الاستمرار بالحياة، فقد صار مرتعا للدود ومنبعا، كل شيء بجوفه وتحت جلده ينهش وينبش لذلك يفخخ نفسه بحزام ناسف وينتحر أو يقود سيارة مفخخة ويفرح بالاحتفال على آخر وجبة دم. فيقول عنه فقهاء عولمة الجهاد: الآن دخل الجنة.

هل الجنة بهذه القذارة والقبح، فبكل هذه الجثث يدخل الجنة، بكل

هذه الدماء ويدخل الجنة. أية جنة هذه التي لا تدخلونها إلا بمجزرة، اية جنة هذه التي تفوح منها رائحة شواء أطفالنا؟؟؟

أما الدودكية الذين يقتلون الأبرياء بقذائف الهاون والعبوات الناسفة والاغتيالات فهم يتدودون بالتخاطر عن بعد. هم مناويك ومليوط بهم عن بعد من خلال شم رائحة الدم واستنشاق رائحة الضحايا لحظة موتها.

غابت الشمس وامتد الظلام تحت الأشجار السوداء بحيث لم أستطع مواصلة القراءة، وتذكرت داود المجرم الدولي الذي ضحك على الجميع وهو منبع الدود.

نهضت من حديقة الرماد أنفض ملابسي من السخام والهباب. خرجت واغلقت الباب خلفي بسلسلة قصيرة وقفل كبير.

أشعلت سيجارة ومشيت باتجاه سيارات الكاظم ببطء أخطو غائباً عما حولي كأني شبح حقيقي واحد من حشود البرزخيين، أمشي بلا خوف ولا حذر فالميت لا يؤلمه مسمار الاسكافي.

عجيب أمري قبل أيام بمعجزة أفلت من ايدي الذباحة والآن اسير بخطوات لا مبالية وقد شفيت من التبول على ملابسي مع كل صيحة (الله أكبر). خطرت بذهني صورة هروب الناس إلى بيوتهم قبل الغروب. رأيت ان للبلاد جروحا كثيرة يدخل فيها الناس ليناموا مطمئنين، يزاولون حياتهم الطفيلية وعيشهم الدموي يقتاتون على ما تفرزه الجروح. ظل الناس موقنين مع أنفسهم انهم لم ولن يغادروا هذه الجروح أبداً.

ايقظني أخي (قيصر) غبشة فالشمس لم تطلع بعد. ايقظني يندهني بيده المرتجفة، وعندما استعدلت وجلست فوق فراشي صدفة كانت الكهرباء موجودة والتلفزيون يشتغل، رأيت عينيه حمراء تتفايض بالدمع. نظر بوجهي لحظة خاطفة وأجهش باكيا: قتلوا ثامر.

احدق مصدوما بوجه (قيصر) وأنا مشدوه يتجاذبني كابوس النوم وكابوس الصحو، الذي يرويه أخي بعيون نازفة تتجارى بالحيف والدمع:

ـ البارحة قبل غروب الشمس في شارع عشرين بالبياع كان (ثامر) يمسك ماعون باقلاء ويأكل قرب عربة دفع حيث يتصاعد البخار من قدر الباقلاء. رأى امرأة تتقدم إليه لا يظهر منها أي شيء لا الوجه ولا اليدين. كانت تلبس جبة سوداء فضفاضة مع برقع أسود فوق الوجه وكفيها داخل قفازين اسودين. كانت المرأة كلها أسود بأسود وقفت أمامه وتلفظت بكلمات كأنها شتائم، وبرمشة عين سحبت مسدسا وأطلقت ثلاث رصاصات في صدره. (ثامر)هجم عليها لولا قوة دفع الرصاص الذي جعله يلهث ويسقط على ركبتيه ويقع ماعون الباقلاء وتتناثر الحبات فوق حذائه وتحت كم بنطاله. ظل (ثامر) مبهوتا وهو يراقب المرأة السوداء كيف ركضت وقد رآها الجميع وهي تخلع الجبة السوداء والبرقع فيظهر رجل بلحية خفيفة، يرتدي قميصا لونه قهوائي فوق بنطلون قماشي أخضر.

أخي (قيصر) يحكي ويبكي وأنا أرى (ثامر) قد أخذته الدماء وراح يتكئ على مرفق يده اليسرى على الأرض بعدما صار وجهه أكهبا، يتلون بكل ألوان الطيف الشمسي بسرعة مذهلة. ثم تتداخل الالوان وتتمازج مع بعضها البعض يجمعها ألق الفرح وغبطة الشوق كمن وجد شيئاً مفقودا كان يبحث عنه طوال حياته، وها هو يحتضنه ولن يفارقه بعد الآن. تتماهى ألوان الفرح والغبطة مع ألوان الالم والشقاء. وجهه يبث كل هذه الالوان دفعة واحدة. ثم رأيته ينهض واقفا والدم يخر من صدره مثل شلالات حمر. نهض ومشى بخطوات قلقة ودخل في جوف الحوت ذلك الممر المعتم في سجن أبي غريب. تركض وراءه (سبلا الجنية) حافية منثورة الشعر و(روضان) يلهث خلفه وهو يحمل أكياس نمنم ملون. (ثامر) يمشي بهمة مستعجلا تواكبه عين (مرتضى الشوكي) ويرى أمامه (سعد استقلال)

يركض عبر القارات في الساحة الكبيرة للسجن صوب تل القتلى والجرحى. تواكبه فوق راسه أسراب الغربان وهي تنعق وتنظر تحتها إلى قطيع كلاب تنبح وتدور حول (القزان) الذي يفور بفقاعات دم تتدحرج راكضة وراء (ثامر).

تعب من الاتكاء على مرفقه الايسر فوضع يده تحت رأسه وتاهت عيونه بالسماء حيث بدأت الخفافيش تلعب مع الحشرات. أسبل عينيه على دمعة كبيرة أفلتت منه وهو مشغول يئن ويقول:

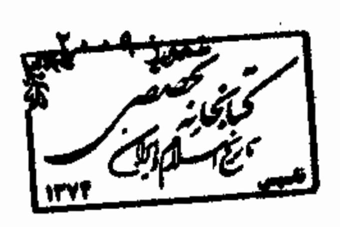
- أملي بالدود... بالدود أملي. فقد بقي العالم مرتعا لكل أنواع الجرائم لم ينقذه أحد لا الانبياء الرسل القديسون، ولا الفلاسفة والمفكرون وأهل المعرفة والخبرة والثقافة والرأي، بل كثرت الجرائم وتفاقمت حتى صارت كوارث. لا الدين أنقذ العالم ولا أنقذته العلمانية، ولا دول القانون ولا دول الدكتاتوريات. فشل الجميع، فشلت الاديان وكل الانظمة السياسية. كلها فشلت في انقاذ العالم. ولكن أملي كبير بالدود. وضعت كل ثقتي وذخيرة أمنياتي بها، فأنا أعول كثيراً على الدود في انقاذ العالم. الدود أملي الوحيد الوحيد.

سمعت أخي (قيصر) يفززني وهو يقول:

- ألف الحمد لله والشكرعلى احتراق كتاب الدود وإلا كنت مقتولا ميتاً وشابع موت. نهض (قيصر) يمسح عينيه ويزيل آثار الدمع وهو يخرج من الغرفة. رفعت رأسي إلى التلفزيون ولم تهبط من عيوني دمعة واحدة لكنها انفتحت على سعتها وأنا أرى شخصا يتلوى على الأرض في أحدى محطات المترو، يتلوى بوجه جميل لكن الالم الساحق جعل عينيه تندلق للخارج وفمه معوج. يصرخ ويجعر من شدة الألم وهو يمزق ملابسه إلى قطع متناثرة والناس يتطافرون من حوله حتى تعرى تماما وهو يتلوى ماسكا أضلاع صدره بيديه فبانت كوم أورام تشبه تلال صغيرة تحت جلده سرعان ما انفجرت بدود أحمر لاصف كأن الدم نفسه وقد تدود، راح يدب سريعا

وهو ينزل على الأرض ويختفي مخلفا بقع دم مرشوش. ثم تفجرت سيول الدود من أورام ظهره تبعه انفجاران من عينيه وانبثق الدود سريعا ينزف ويدب على الأرض ويختفي فوق آثار الدماء. انفجرت أذناه ورقبته، دود يندلع بعد انفجار التلال الصغيرة. هبطت حدة الانفجارت إلى بطنه التي اختضت بسلسلة انفجارت تفتق اثره الجلد واللحم بهياج دود يختفي فور ملامسة الأرض تاركا لون الدم حتى همد الجسد وكف عن التلوي، استلقى على ظهره منفرج الساقين وهنا انفجرت خصيتاه وتدفق الدود منهما ومن فتحة عضوه التناسلي، ثم انفجرت تلال منطقة الفخذين وربلة الساقين فلم يبق من الجسد سوى قماش من اللحم تمزق ليكشف عظام ناشفة ذات بياض بشع يتصاعد منها بخار أصفر خفيف وكانت أصابع كفيه يابسة معقوفة بأظافر منطفئة كأنها شموع الكارثة.

من جديد بدأت بكتابة رواية الدود، سوف أضيف لها كل ما جرى لي. سمعت رشقات قطرات المطر فمن جديد أيضاً بدأت تمطر، وها أنا أكتب على إيقاع المطر.



الفهرس



هذا الكتاب

أخي (قيصر) يحكي ويبكي وأنا أرى (ثامر) قد أخذته الدماء وراح يتكئ على مرفق يده اليسرى على الأرض بعدما صار وجهه أكهبا، يتلون بكل ألوان الطيف الشمسي بسرعة مذهلة. ثم تتداخل الألوان وتتمازج مع بعضها البعض يجمعها ألق الفرح وغبطة الشوق كمن وجد شيئاً مفقوداً كان يبحث عنه طوال حياته، وها هو يحتضنه ولن يفارقه بعد الآن.

